أوروبا

تاريخ وجيز

جون هيرست

ترجمة وتقديم

د. محمود محيي الدين

The Shortest History of Europe

أوروبا: تاريخ وجيز

جون هيرست

ترجمة وتقديم: د. محمود مُحيي الدين

تصميم الغلاف: هاني صالح

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٧

تصنيف الكتاب: تاريخ
دارالشروق
٧ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com
رقـم الإيداع ٢٠١٦/ ٢٥٩٤١
ISBN 978-977-09-3401-2

جون هيرست

أوروبا: تاريخ وجيز

ترجمة وتقديم

د. محمود محيي الدين

دار الشروق

مقدمة المؤلف

إذا كنت ممن يُحبون طَيَّ الصفحات سريعًا لتصل إلى النهاية لترى ما سوف يحدث، فسيعجبك هذا الكتاب. فالنهايات تقع سريعًا بعد البدء في قراءته. يروي الكتاب تاريخ أوروبا ست مرات، ومن زاوية مختلفة في كل مرة. هذا الكتاب يستند إلى مجموعة من المحاضرات أعددتها لتعريف طلبة الجامعات بالتاريخ الأوروبي. لم أبدأ المحاضرات منذ بداية التاريخ الأوروبي ثم أنهيها بنهايته، بل قمت بإعطاء الطلبة نظرة عامة ثم عدت إليهم بمزيد من التفاصيل.

تستعرض المحاضرتان الأوليان مجمل التاريخ الأوروبي. فيما يمكن اعتباره فعلًا التاريخ الوجيز لأوروبا. أما المحاضرات الست التالية فقد كان لكل واحدة منها فكرة رئيسية، بهدف تعميق الفهم للفكرة واختبارها بعمق.

لأي قصة حبكة وبداية ونهاية. لكن الحضارة ليس لها قصة على هذا النحو. تشدنا الرواية إذا ما اعتقدنا أن الحضارة يجب أن يكون لها صعود وسقوط، ولكن سيكون لها نهاية في كل الأحوال. هدفي في هذا الكتاب أن أستعرض العناصر الرئيسية للحضارة الأوروبية وأن أنظر في كيفية تطورها عبر الزمن؛ وأن أعرض كيف تتخذ الأشياء الجديدة أشكالها من تلك القديمة؛ وكيف يتماسك القديم ويعود.

تتعامل كتب التاريخ مع أحداث متعددة وأناس كثيرين بما يعتبر من عناصر قوة

التاريخ الذي يأخذنا قريبًا من الحياة. لكن ماذا يعني كل هذا؟ ما هي الأمور الهامة حقيقة؟ هذه هي الأسئلة التي تشغل تفكيري. أناس وأحداث كثيرة قد تجدهم في كتب أخرى للتاريخ لكنك لن تجدهم في هذا الكتاب.

بعد استعراضه للعصور الكلاسيكية، يركز الكتاب على أوروبا الغربية. فليست كل أجزاء أوروبا بذات الأهمية في تشكيل الحضارة الأوروبية. فالنهضة في إيطاليا والإصلاح في ألمانيا والحكومة البرلمانية في إنجلترا والديمقراطية الثورية في فرنسا كان لها آثار أكبر من تقسيم بولندا [على سبيل المثال].

لقد اعتمدت في هذا الكتاب بشدة على أعمال علماء التاريخ الاجتماعي، وأخص منهم بالذكر «مايكل مان» و«باتريشيا كرون». البروفيسورة «كرون» ليست خبيرة في التاريخ الأوروبي، بل متخصصة في الإسلام. لكنها في كتاب صغير لها عن المجتمعات في عصور ما قبل الصناعة ضمنته فصلًا يدل على براعتها تحت عنوان «غرائب أوروبا»؛ وهو تاريخ كامل في ثلاثين صفحة. مَنحني هذا الفصل من كتابها مفهوم عمل «الخليط الأوروبي» على النحو الذي تناولته في الفصلين الأوَّلَيْن من هذا الكتاب. وعليَّ لها دَين عظيم.

لسنوات طويلة في جامعة «لاتروب» في «ملبورن»، كنت محظوظًا بزمالة البروفيسور «إريك جونز»، الذي كان مشجعًا لاستخدام مدخل الصورة الكبيرة للتاريخ، وقد اعتمدت على كتابه «المعجزة الأوروبية».

لا أدَّعي أي أصالة لهذا الكتاب باستثناء طريقته. قدمت هذه المحاضرات للطلاب في أستراليا الذين درسوا كثيرًا من التاريخ الأسترالي، لكنهم كانوا على معرفة محدودة بالحضارة التي ينتمون إليها.

هذه الطبعة بها قسم جديد يتناول بالتفصيل القرنَيْن التاسع عشر والعشرين.

جون هيرست

الفصل الأول: أوروبا في الأزمنة القديمة والعصور الوسطى

تنفرد الحضارة الأوروبية بأنها الوحيدة بين الحضارات التي فرضت نفسها على سائر العالم. وكان هذا بالغزو، والاستيطان، والإمكانيات الاقتصادية، وقوة الأفكار. فقد ملكت هذه الحضارة ما كان الآخرون في حاجة إليه. وتستخدم اليوم كل دولة على الأرض اكتشافات العلم والتكنولوجيا التي تدفقت من الحضارة الأوروبية. فالعلم كان اختراعًا أوروبيًّا.

تكونت الحضارة الأوروبية في بدايتها من ثلاثة عناصر:

١ ـ ثقافة الإغريق والرومان.

٢ ـ المسيحية، وهي فرع متفرد من ديانة اليهود.

٣ ـ ثقافة المحاربين الجرمانيين الذين أغاروا على الإمبراطورية الرومانية وداهموا

أراضيها.

وكانت الحضارة الأوروبية مزيجًا من هذه العناصر، وهو ما سيتضح لاحقًا.

***

إذا أمعنا النظر في فلسفتنا، وفنوننا، وآدابنا، والعلوم، والرياضة، والطب، وطريقة تفكيرنا في السياسة، تجدنا نرجع في كل هذه الأمور الفكرية إلى اليونان القديمة. ولم تكن اليونان في أيامها العظمى دولة واحدة، ولكنها تكونت من مجموعة من الدول الصغيرة، أو مجموعة من «المدن ـ الدول» كما نطلق عليها اليوم. هذه المدن الصغيرة تحوطها رقعة من الأرض حولها، ويستطيع أي شخص أن يدخل إلى هذه المدن. وأراد اليونانيون أن ينتموا إلى دولة كانتمائنا اليوم إلى نادٍ من النوادي. لقد كان الانتماء للدولة أشبه بعضوية. وفي هذه المدن الصغيرة بزغت الديمقراطيات في صورتها الأولى. لم تكن ديمقراطيات نيابية، فلا توجد انتخابات لأعضاء في برلمان. الذكور من المواطنين قد يجتمعون، في مكان من اختيارهم، فيتحدثون عن الشئون العامة، ويُصوتون على القوانين والسياسات.

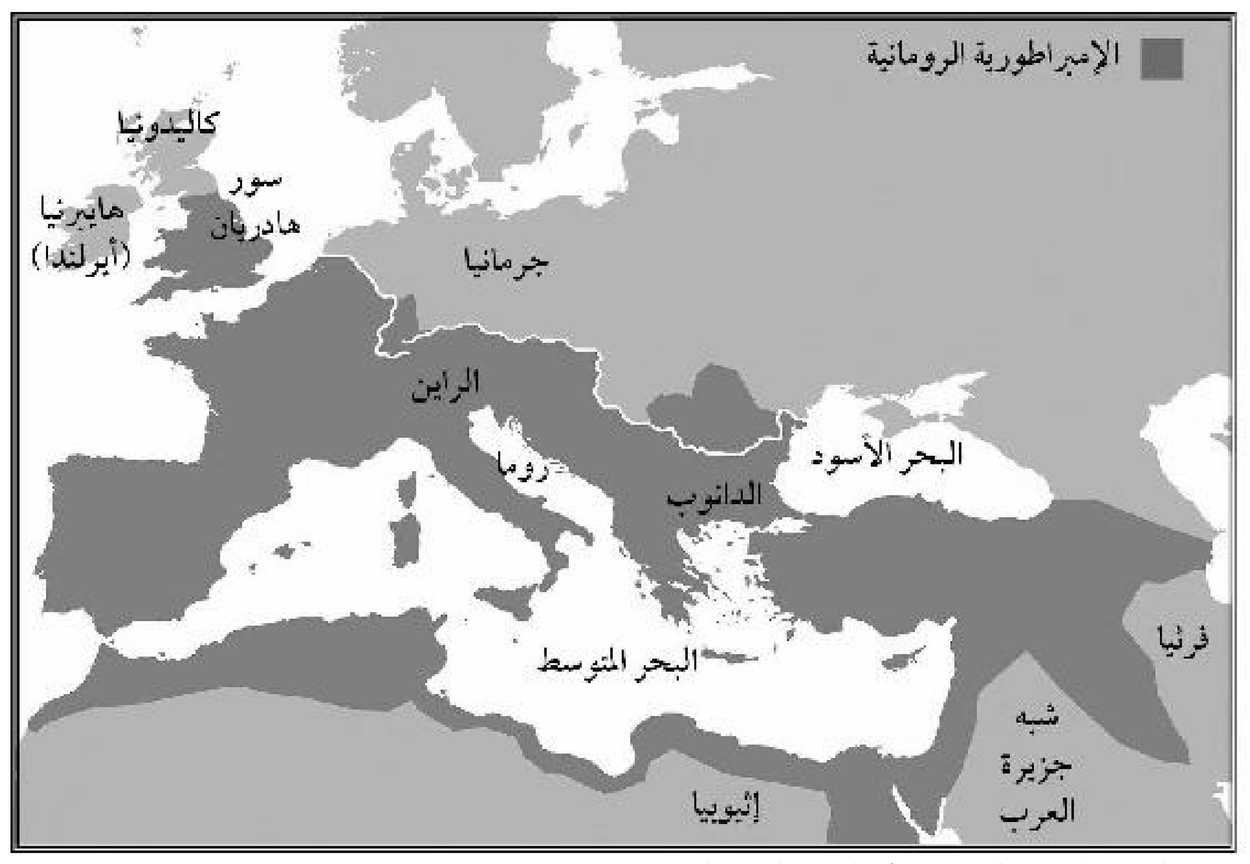


المدن والمستعمرات الإغريقية. ازدهرت الحضارة الإغريقية اعتمادًا على التجارة والزراعة في هذه المواقع حول البحر المتوسط والبحر الأسود.

وعندما زاد عدد الناس في هذه المدن الصغيرة، بدأ الإغريق في استيطان أماكن جديدة في الساحل الشمالي لإفريقيا، وفي إسبانيا، وفي جنوبي فرنسا وإيطاليا. وفي إيطاليا قابل الرومان ـ الذين كانوا عندئذ مجموعة متخلفة من الناس ـ القادمين إليهم من اليونان وأخذوا في التعلم منهم.

وفي زمنهم أقام الرومان إمبراطورية كبرى ضمت اليونان وكافة المستعمرات اليونانية. في الشمال حدد نهرا الراين والدانوب أطراف الإمبراطورية، التي تعدت هذين النهرين في بعض الأزمنة، أما حدها الغربي فكان المحيط الأطلنطي. وكانت

إنجلترا جزءًا من الإمبراطورية الرومانية، ولكنها لم تضم إسكتلندا أو أيرلندا. وكانت صحارى شمال إفريقيا حدودًا جنوبية لهذه الإمبراطورية. أما في الشرق، فلم تكن حدود الإمبراطورية واضحة، وذلك لمتاخمتها لإمبراطوريات منافسة. وأحاطت الإمبراطورية بالبحر المتوسط، كأنه بحيرة في وسطها، وتضمنت جانبًا من أوروبا كما نعرفها اليوم، وكثيرًا من أراضيها ليس أوروبيًّا: مثل تركيا، ودول الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

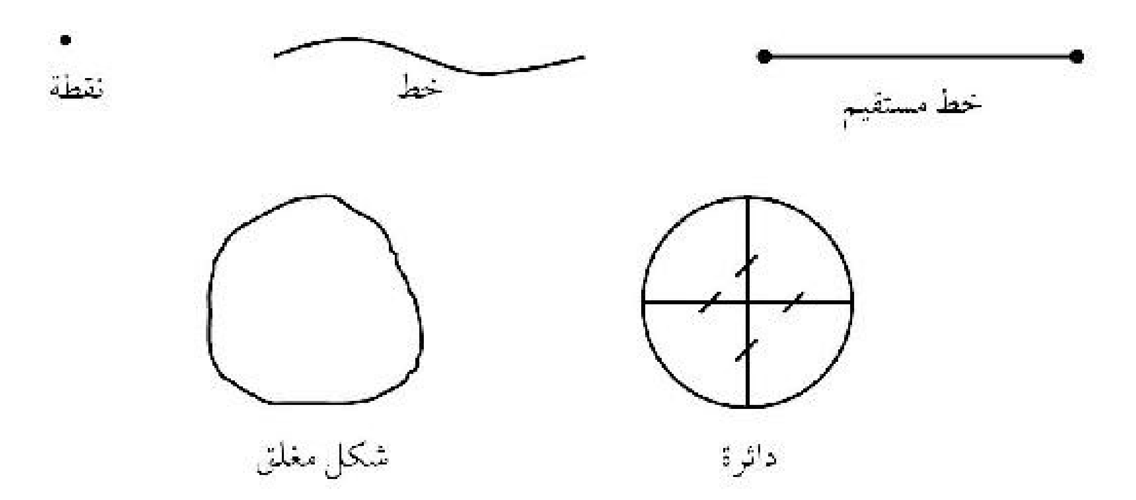


حدود الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني الميلادي

لقد كان الرومان أفضل من الإغريق في الحروب، وكانوا أفضل منهم في القانون الذي استخدموه في إدارة شئون الإمبراطورية. وكذلك كانوا أفضل في الأعمال الهندسية،

فاستعانوا بها في الحروب وتنظيم الإمبراطورية. ولكن فيما عدا ذلك، اعترف الرومان بأن اليونانيين القدامى كانوا أفضل منهم، فنسخوا ما فعلوه واقتفوا آثارهم. فتجد النخبة من الرومان يتحدثون اليونانية واللاتينية؛ لغة الرومان، ويرسلون أبناءهم إلى أثينا للدراسة في جامعاتها، ويتخذون عبيدًا يونانيين يستأجرونهم لتعليم أطفالهم في البيوت. لذلك عندما نتحدث عن الإمبراطورية الرومانية باعتبارها يونانية ـ رومانية، فلأن الرومان أرادوها كذلك.

لعل علم الهندسة هو أسرع السبل لتوضيح ذكاء اليونانيين. فقد كان يدرس في المدارس. وكثير منا قد ينسى، فدعنا نبدأ بالأساسيات. هكذا تعمل الهندسة: فهي تبدأ بعدد محدود من التعريفات الأساسية وتبني عليها. فأولا: البداية هي «النقطة»، وعرفها الإغريق بأن لها موقعًا لكن ليس لها حجم. بالطبع للنقطة حجم، فهناك عرض النقطة على الصفحة، ولكن الهندسة هي عالم مفترض، عالم نقي. ثانيًا: الخط له طول، ولكن لا عرض له. ثالثًا: الخط المستقيم، ويعرف كأقصر خط بين نقطتين. ومن هذه التعريفات الثلاثة يمكنك أن تعرف الدائرة: في المقام الأول هي خط يصنع شكلًا مغلقًا. ولكن كيف تشكل الاستدارة؟ إذا ما فكرت فيها، فإن الاستدارة من الصعب تعريفها. يمكنك تعريفها على أي حال باعتبار وجود نقطة داخل الشكل، نقطة واحدة تمتد منها خطوط مستقيمة متساوية الطول.



ومع الدوائر، نجد الخطوط المتوازية التي تمتد بلا نهاية، والمثلثات بأنواعها المختلفة، والمربعات، والمستطيلات، والأشكال الهندسية المختلفة. هذه الأشكال، التي تُكونها الخطوط، كلها محددة التعريف، وخصائصها مفصح عنها، واحتمالات وجود أشكال أخرى بتقاطعها وتداخلها يمكن التعرف عليها. كل شيء يتم إثباته اعتمادًا على ما تم تأسيسه افتراضًا من قبل. على سبيل المثال، فباستخدام خطوطٍ متوازية يمكنك توضيح أن مجموع زوايا مثلث هو ١٨٠ درجة.

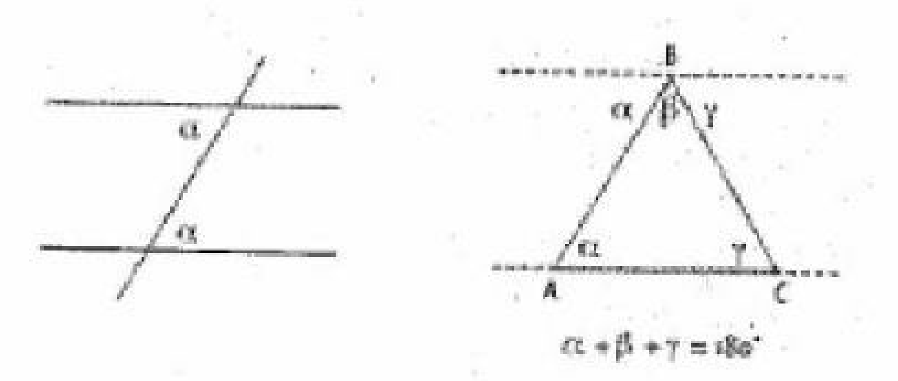
يتميز علم الهندسة ببساطته، وانضباطه، واتباعه لنظام منطقي، وبقدرته على الإقناع، وأيضًا بجماله. فلقد وجد الإغريق علم الهندسة جميلًا، وهذا في حد ذاته يُعطينا مِفتاحًا لفهم العقل الإغريقي، فلم يتعامل الإغريق مع علم الهندسة كمجرد تمارين تُحل، أو لاعتبارات عملية في مسح الأراضي أو الملاحة، ولكنهم تعاملوا مع الهندسة كدليل لفهم طبيعة هذا العالم. فعندما ننظر حولنا، فقد نصدم لتنوع ما نراه: أشكال متباينة، وألوان مختلفة، وأشياء كثيرة تحدث في ذات الوقت ـ بعشوائية حينًا وبفوضى أيضًا.

اعتقد الإغريق أن هناك تفسيرًا بسيطًا وراء كل هذا، وأن وراء كل هذا التنوع والتباين والاختلاف، هناك شيء بسيط، ومنتظم، ومنطقي يفسر كل ما يحدث حولنا. شيء مثل الهندسة.

لم يتعامل الإغريق مع العلم كما يتم التعامل معه اليوم، بافتراضات معينة واختبارات لها من خلال التجارب العملية. فلقد اعتقدوا أنه إذا أعملت عقلك وفكرت بعمق، ستصل إلى النتيجة السليمة. ولذلك اتبعوا نظامًا من «التخمينات الملهمة». فمثلًا أحد الفلاسفة

علم الهندسة في التطبيق العملي

لا تلتقي الخطوط المتوازية، لذا فإن خطًّا مستقيمًا يقطعها سيوجد زوايا متساوية. وإذا لم تتساو هذه الزوايا، فإن الخطوط قد تتقارب أو تتباعد، ولكنها لن تكون متوازية في هذه الحالة. وإلى يومنا هذا نستخدم الحروف اليونانية لتعريف الزاوية ـ وفي الرسم التالي تشير α إلى زاويتين متساويتين. ولعل استخدامنا للحروف اليونانية في علم الهندسة يذكرنا بأصول هذا العلم. وهنا نستخدم الحروف الثلاثة الأولى: ألفا α، بيتا β، وجاما .



ومن هذا التعريف يمكننا تحديد مجموع قِيَم الزوايا في مثلث. نضع المثلث ABC في الجانب الأيمن بين خطين متوازيين: معرفة كيفية استخدام ما نعرفه لحل ما لا نعرفه من حِيَل علم الهندسة. الزاوية α عند النقطة A، تساوي الزاوية عند النقطة B، وهما زاويتان متساويتان عند خطين متوازيين. وكذلك الزاوية γ عند C تساوي الزاوية عند النقطة B. والخط المستقيم الموازي الأعلى عند B مكون الآن من ثلاث زوايا: $\alpha+\beta+\gamma$. وجميعًا يُشكلون خطًّا مستقيمًا، ونعرف أن الخط المستقيم يشكل زاوية من ١٨٠ درجة.

إذن $\alpha+\beta+\gamma=$ ١٨٠ درجة. ولقد أثبتنا بخطوط متوازية أن مجموع الزوايا الداخلة في مثلث هي أيضًا $\alpha+\beta+\gamma$. إذن فمجموع زوايا المثلث ١٨٠ درجة.

لقد استخدمنا خطوطًا متوازية لإثبات شيء بخصوص المثلثات.

اليونانيين ذهب إلى أن كل المواد مؤلفة من الماء، مما يوضح إفراطهم في محاولة إيجاد إجابات بسيطة. وفيلسوف آخر ذكر أن كل المواد مكونة من أربعة عناصر: الأرض والنار والهواء والماء. وفيلسوف آخر قال إن المادة مكونة من عناصر صغيرة، وأطلق

عليها «الذرة» وفاز بذلك بالجائزة الكبرى. لقد قام بتخمينة ملهمة وهو ما توصلنا إليه نحن في القرن العشرين.

عندما بدأ التعرف على العلم بصورته المعاصرة، منذ ٤٠٠ عام، أو ٢٠٠٠ عام بعد الإغريق، فقد بدأ بالتشكيك في المفاهيم الأساسية للعِلم الإغريقي، والذي ظل مُهيمنًا، وقد تحدى العلم المعاصر اليونانيين القدامى باستخدام نفس الأسلوب اليوناني القديم الذي يقضي بأن الإجابات يجب أن تكون بسيطة، ومنطقية، ورياضية. فعالِم القرن السابع عشر «نيوتن»، و«آينشتين» العالم الأشهر في القرن العشرين، كلاهما قال إنك تقترب من الإجابة الصحيحة كلما كانت إجاباتك أكثر بساطة. وكلاهما كانت لديه القدرة على إعطاء الإجابات في شكل معادلات رياضية، والتي وصفت تكوين المادة، وكيف تتحرك المادة.

كثيرًا ما أخطأ الإغريق في تخميناتهم خطأ كبيرًا. ولكن أسلوبهم الرئيسي الذي كان يؤكد على ضرورة بساطة الإجابات، ومنطقيتها، ورياضيتها كان من الممكن أن يكون خطأ أيضًا، ولكنه كان في النهاية صحيحًا. هذا ما تحتفظ به الحضارة الأوروبية من فضل للإغريق.

هل يمكننا تفسير لماذا كان الإغريق بهذه المهارة؟ أعتقد أننا لا نستطيع. يفترض في المؤرخين القدرة على تفسير الأشياء، ولكن عندما يصطدمون بالأشياء الكبيرة ـ مثل لماذا في هذه «الدول ـ المدن» اليونانية كانت هناك عقول منطقية، ومرنة، ونافذة ـ فلن

تجد إجابات مقنعة. كل ما يقدر المؤرخون على فعله هو إثارة التعجب، شأنهم شأن الآخرين.

وإليكم الآن معجزةً أخرى. نحن نقترب من العنصر الثاني من هذا المزيج الأوروبي. اعتقد اليهود بأن هناك إلهًا واحدًا. وكان رأيًا غير معتاد في هذا الزمن، إذ كان الإغريق واليونان يعتقدون في تعدد الآلهة. وزاد اليهود على ذلك بأن اعتقدوا أن هذا الإله الواحد يرعاهم رعاية خاصة؛ وأنهم شعب الله المختار. وفي المقابل كان على اليهود أن يحفظوا قانون الرب، وكانت أسس هذا القانون الوصايا العشر، التي منحها موسى [عليه السلام] لليهود الذين قادهم من أسرهم في مصر. واحتفظ المسيحيون بالوصايا العشر؛ حيث ظلت مركز التعاليم الأخلاقية في الغرب حتى وقت قريب. وعرف الناس الوصايا بأرقامها. كقولك إن شخصًا ما معروف عنه أنه لا يخالف الوصية الثامنة، ولكنه يخالف السابعة أحيانًا. والوصايا العشر، كما دُونت في الكتاب الثاني من الكتاب المقدس في سِفر الخروج، الإصحاح العشرين هي:

«ثم تكلم الرب بجميع هذه الكلمات فقال:
أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من دار الاستعباد.
لا يكن لك آلهة أخرى أمامي.
لا تصنع تمثالًا منحوتًا ولا صورة مما في السماء من فوق، ولا مما في الأرض من تحت، ولا مما في الماء من تحت الأرض.
لا تحلف باسم الرب إلهك باطلًا.
اذكر يوم السبت لتقدسه. في ستة أيام تعمل وتنجز كل أعمالك، أما اليوم السابع ففيه سبت الرب إلهك، لأن الرب خلق السماوات، والأرض، والبحر، وكل ما فيها في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع، ولذلك بارك الرب يوم السبت، وقدسه.

أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك في الأرض التي يعطيكها الرب إلهك.
لا تقتل.
لا تزن.
لا تسرق.
لا تشهد على قريبك شهادة زور.
لا تشتهِ بيت قريبك، لا تشتهِ امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا أي شيء يملكه قريبك».

لقد كانت الوصايا العشر مجرد بداية للقانون الأخلاقي. وكان لليهود نظام تفصيلي معقد لقوانين تغطي ما تشمله القوانين في المعتاد ـ مثل الجريمة، وحقوق الملكية، والمواريث، والزواج ـ وأضيف إلى ذلك ما يتعلق بالنظام الغذائي، والنظافة، وإدارة المنزل، وكيفية تقديم القرابين في المعبد.

ورغم اعتقاد اليهود بأنهم الشعب المختار، إلا أنهم كثيرًا ما تعرضوا للإهانة، والغزو، والنبذ إلى خارج ديارهم، ولكنهم لم يشككوا أبدًا في وجود الرب، أو أنه يرعاهم. وإذا ما داهمتهم كارثة، استنتجوا منها أنهم لا يتبعون شريعتهم كما ينبغي، وأنهم أساءوا للرب. وبذلك فإنه عند اليهود، كما عند المسيحية، هناك ارتباط لصيق بين الدين والفضيلة، على خلاف حالات أديان أخرى. فالرومان والإغريق كانت لديهم آلهة تتصرف بلا أخلاق، انغمسوا في علاقات محرمة، وتآمروا على بعضهم البعض. في الديانة الرومانية، ربما تُعاقب الآلهة البشر، ولكن ليس لارتكابهم مخالفات أخلاقية، ربما يكون العقاب لأن الشخص لم يقدم قرابينه كما ينبغي، أو تناساها لزمن.

كان عيسى [عليه السلام]، مؤسس المسيحية، يهوديًّا، وكذلك كان أتباعه الأُوَل.

وعندما بدأ عيسى في نشر تعاليمه، لم يكن اليهود مسيطرين على بلدتهم؛ كانت فلسطين إقليمًا نائيًا للإمبراطورية الرومانية. وتطلع بعض أتباعه إلى أن يقودهم في ثورة ضد روما. وأراد مناوئوه أن يدفعوه إلى التصريح بهذا التوجه، فسألوه هل علينا أن ندفع الضرائب لروما؟ فطلب منهم أن يعطوه قطعة من العملة المتداولة، ففعلوا، وسألهم صورة مَن هذه على العملة؟ فأجابوا أنها صورة قيصر روما. فقال عيسى [عليه السلام]: «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله».

وكان عيسى [عليه السلام] على علم تام بالشريعة اليهودية وتعاليمها، ونمَت تعاليمه منها. وكان من تعاليمه أن يجمع جوهر الشريعة، فمنها: أَحِبوا الإله ربكم بكل قلبكم، بكل روحكم، بكل عقلكم، وأَحِبوا جيرانكم حبكم لأنفسكم.

لم يكن من الواضح إذا كان عيسى [عليه السلام] يقول أن تأخذ الخلاصة وأن تنسى التفاصيل، أو أنه قال إن التفاصيل مهمة ولكن الخلاصة هي دليل يشمل أهم الأمور. وتَجادل الفقهاء فيما إذا كان عيسى [عليه السلام] قد التزم في إطار اليهودية، أو أنه انفصل عنها. ولكن من المؤكد أنه طوَّر التعاليم الأخلاقية بأساليب شديدة التطلب، والتي ربما يعتقد البعض أنها مستحيلة الاتباع. عليك أن تتعمق فيما ذكره في عظة الجبل كما دونت في إنجيل متى، الإصحاح الخامس.

> «سمعتم أنه قيل: أحِب قريبك وأبغض عدوك. أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم وصلوا من أجل مضطهديكم. لتصيروا بني أبيكم الذي في السماوات، لأنه يطلع شمسه على الأشرار والأخيار، وينزل المطر على الأبرار والفجار. فإن أحببتم من يحبكم، فأي فضل لكم؟ أوَليس الجباة [الرومان المكروهون] يفعلون ذلك؟ وإن سلمتم على إخوانكم وحدهم، فأي زيادة

فعلتم؟ أوَليس الوثنيون يفعلون ذلك؟ فكونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم السماوي كامل».

في هذا الإطار، كان عيسى [عليه السلام] يُحول القواعد اليهودية إلى نظام شامل للمحبة. كان عيسى [عليه السلام] واحدًا من عدة معلمين وأنبياء في هذا الزمن. وقد أثاروا جميعًا حفائظ قيادات العقيدة اليهودية، وفي حالة عيسى [عليه السلام] تعاونت قيادات اليهود مع الرومان في القضاء عليه. ولكن عيسى [عليه السلام] كان مختلفًا عن سواه من معلمي عهده، إذ بعث مرة أخرى ـ أو هكذا اعتقد أتباعه. وبذلك لم يكن معلمًا، أو نبيًّا، أو رجلًا صالحًا، وهو على الأرجح اعتقاد كثير من المترددين على الكنائس اليوم، فقد اعتقد أتباعه أنه ابن الرب، وأن شيئًا معجزًا قد حدث عندما صُلب. لقد ضحى الرب بنفسه لينقذ البشرية من اللعنة، والتي كانت الإثم الأصلي الذي جلب الشر إلى العالم. إذا آمنت بالمسيح، فأنت تنقذ نفسك، وبعد موتك فلن تُلقى إلى جهنم، ولكنك ستكون مع الإله في الجنة.

هل هذا الدين لليهود فحسب أم لكل الناس؟ وقد اختلف أتباع عيسى [عليه السلام] في إجابة هذا السؤال. ذهب التقليديون من أتباعه إلى أنه لا يمكنك أن تكون مسيحيًّا إلا أن تكون يهوديًّا أولًا، وأن تتبع كل التشريعات الصارمة التي فُرضت على اليهود في العهد القديم. ومنها ضرورة الختان للذكور، وهي عملية مؤلمة جدًّا للبالغين من الرجال. وإذا ما اتبع هذا الطريق الصارم، فإن المسيحية ستكون مجرد طائفة صغيرة من اليهودية، وربما انتهت أو لم تكن ذات شأن. وبالتالي فإن الفريق الثاني قد فاز في هذا الجدل، وهو الفريق الذي ذهب إلى أن المسيحية دين جديد تمامًا. وأنه ليس عليك أن

تكون يهوديًّا أولًا، وكل القيود الصارمة لشريعة اليهود لا محل لها؛ فالمسيح قد حرر أتباعه من كل هذا، وتعاليمه عن المحبة تتجاوز ما يمكن لقوانين أن تمنحه. وكان هذا رأي «بولس»، المبشر الكبير للمسيحية في مهدها، وفي رأي البعض مؤسسها، لأنه عندما مات عيسى [عليه السلام] كانت عقيدته شأنًا يهوديًّا فقط. عيسى [عليه السلام] كان يهوديًّا، وأتباعه كانوا يهودًا، وبعضهم أرادها كذلك. لقد كان «بولس» من قال بوضوح إن المسيحية دين لكل الناس، ومن هذا الوقت أصبحت المسيحية، على أقل احتمال، دينًا للعالم. وفي خلال ٣٠٠ عام انتشرت المسيحية عبر الإمبراطورية الرومانية.

أما المجموعة الثالثة في المزيج الأوروبي، فكانوا المحاربين الجرمانيين، الذين غزوا الإمبراطورية الرومانية. عاش الجرمانيون في التخوم الشمالية للإمبراطورية، وفي القرن الخامس الميلادي تدفقوا إليها. ومع عام ٤٧٦ قاموا بتدمير الإمبراطورية من الغرب. وبدأ تشكيل هذا المزيج للحضارة الأوروبية في فرنسا وإسبانيا وإيطاليا.

كان الجرمانيون أُميين، فلم يتركوا أي سجلات مكتوبة، ولم نعرف إلا قليلًا عنهم قبل موجات الغزو التي قاموا بها. المعرفة الأولى بهم ـ وربما لا تكون معرفة مباشرة ـ قام بها المؤرخ الروماني، تاكيتوس، في القرن الأول بعد الميلاد. وقد وصف زعماءهم ومَن في صحبتهم من محاربين عاشوا وحاربوا معًا وكانت حياتهم من أجل المعارك على هذا النحو:

«من المهين في ساحة المعركة أن يتفوق على الزعيم أحد من رفقائه، ليس للرفقاء أن يعادلوا شجاعة الزعيم. وإذا ترك أحد الرفقاء أرض المعركة حيًّا بعد سقوط الزعيم، فهذا معناه أن

يعيش في عار وخِزي لما قُدر له من عمر. فمعنى الإخلاص عندهم أن يقوم الرفقاء بالدفاع عن الزعيم وحمايته، وأن يقوموا بكل ما تطلبه الشجاعة من أجله. فيحارب الزعماء من أجل النصر، ويحارب رفاقه من أجله. وكثير من النبلاء الشباب عندما يرون موطنهم راكدًا في حالة من السلام الطويل، يسعون إلى مساندة قبائل أخرى في حالة حرب. فلا يطيق الجرمانيون حالة السلام. فالشهرة تُكتسب مع مواجهة المخاطر، ولن يمكن لزعيم الحفاظ على أكبر عدد ممكن من الأنصار والرفاق إلا بالبأس والحرب. ويطلب الرفاق أشياء كثيرة من زعمائهم: «أعطني هذا الفرس المحارب، أو هذا الرمح المظفر، المخضب بالدماء». أما بالنسبة للطعام، فيمنح كجراية مستمرة. وهذه الأيادي المبسوطة أكفها طلبًا يجب أن تطعم بحروب ومعارك. وستجد أنه من الصعب إقناع جرماني أن يصلح أرضًا، وأن ينتظر ثمارها في مواسم الحصاد بصبر، الأسهل أن تقنعه بمواجهة عدو، وأن يحوز جوائزه من إصابات في جسمه. الجرماني يرى أن ما يتكسبه بالعَرق، بلا قيمة، وأدنى مما يمكن أن يتكسبه بالدم».

هؤلاء إذن هم القوم الذين سيطروا على الإمبراطورية الرومانية في خلال ٣٠٠ عام.

لقد اختبرنا الآن العناصر الثلاثة لمزيج الحضارة الأوروبية. دعنا نلخصها:

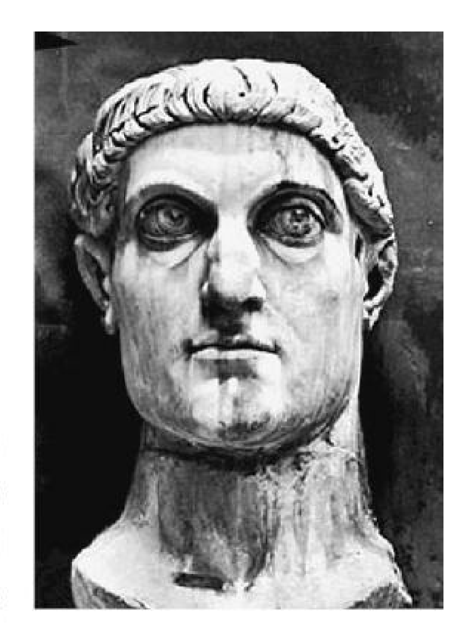
رأى الإغريق أن العالم بسيط، ومنطقي، ورياضي. ورأى المسيحيون أن العالم مليء بالشر، وأن المسيح وحده هو المخلص من هذا الشر. أما المحاربون الجرمانيون فقد رأوا أن القتال متعة. إن هذا المزيج غير المتجانس هو الذي تجمع ليصنع الحضارة الأوروبية.



* * *

كيف اجتمعت هذه العناصر الثلاثة معًا؟ أولًا، انظر علاقة المسيحية بالعالم اليوناني ـ الروماني. فقد حاولت السلطات الرومانية، من وقت لآخر، أن تمحو المسيحية من الأرض. فصادروا الكتب المقدسة، واستولوا على ممتلكات الكنيسة، واعتقلوا وعذبوا المسيحيين، وأعدموا من لم يكفر بالمسيح.

لقد كان الرومان، في الغالب، متسامحين. حكموا إمبراطورية متنوعة الأجناس، والأديان. فإذا احترمت قواعد السلم، فإن الرومان كانوا على استعداد لتركك وشأنك، يمكنك أن تتمتع بحكم لعشيرتك، وأن تمارس طقوس دينك؛ هناك فقط استثناء واحد، إذ إنه كان عليك القيام بالتضحية بتقديم القرابين من أجل الإمبراطور. فقد اعتقد الرومان بأن الإمبراطور مثل إله. وكانت التضحية المنتظرة ضئيلة. فربما يكون هناك رسم أو تمثال للإمبراطور وأمامه لهب، فعليك أن تأخذ حفنة من الملح وتلقيها في النار فتتوهج؛ وفي هذا كفاية. لعل ذلك كتحية العلم، أو التغني بالنشيد الوطني. وقد امتنع المسيحيون عن فعل ذلك، لأنهم، كاليهود، قالوا بأنهم لن يعبدوا إلا إلهًا واحدًا، وإنهم لن يتخذوا الإمبراطور إلهًا. تجاهل الرومان عدم اعتراف اليهود بالإمبراطور، فقد اعتبروهم غريبي الأطوار، ومتقلبين، لكن يمكن تمييزهم، فهم أناس ممعنون في القدم بمعبدهم، وإلههم، ويشغلون حيزًا محددًا من البلاد.



الإمبراطور الروماني «قسطنطين» (٢٧٢-٣٣٧) الذي منح المساندة الرسمية للمسيحية في عام ٣١٣ بعد الميلاد

على العكس من ذلك، كان المسيحيون يتبعون دينًا جديدًا، وأتباعه قد يكونون أيًّا من الناس، يعيشون في أي مكان. ونظر إليهم الرومان باعتبارهم هدامين، مدمرين، يجب القضاء عليهم. وربما نجحوا في

ذلك، إذا ما استمروا في اتباع سياسة الاضطهاد. ولكن حدثت معجزة في عام ٣١٣ بعد الميلاد، إذ اعتنق الإمبراطور «قسطنطين» «المسيحية» أو على الأقل فإنه منح مساندة رسمية للكنائس. فقد اعتقد أن إلههم ربما يرعاه، ويحمي الإمبراطورية أفضل من أي إله آخر. لم تكن المسيحية بعدُ عقيدةً للأغلبية، احتضنها الحاكم. منح المسيحيين المال، وأقر أحكام الأساقفة. بعد خمسين عامًا أخرى، قام إمبراطور روماني آخر بتحريم كل الأديان المخالفة للمسيحية. بعد أربعمائة عام من قيام عيسى [عليه السلام] بنشر تعاليمه في إقليم مضطرب من الإمبراطورية الرومانية، فأصبحت المسيحية الدين

الرسمي الوحيد للإمبراطورية. وأخذ الأساقفة والقساوسة يطوفون في المدن، ويتوجهون إلى الأقاليم والقرى لتدمير معابد الوثنية. وكان هذا أول رابط واتصال بين العناصر الثلاثة: الإمبراطورية الرومانية تصبح مسيحية.

في هذه المرحلة أصبحت الكنيسة شديدة الاختلاف عما كانت عليه في أيامها الأولى. في البداية اتفقت مجموعات صغيرة من المسيحيين على الاجتماع في بيوت لهم. ولكن بعد ثلاثة أو أربعة قرون أخرى، كان هناك نظام هرمي من «الرسميين» مدفوعي الرواتب: قساوسة، وأساقفة، ومطارنة. ثم تمكن أحد الأساقفة من أن يجعل من نفسه بابا للكنيسة، وحكمها. وكان للكنيسة نظامها، وقوانينها، ولوائحها، ومحاكمها، وأهدافها. كما تحكمت الكنيسة في شئون هامة كالزواج، والميراث، وليس فقط الشئون الكنسية. كما قامت الكنيسة بتطبيق نظام خاص بها لفرض الضرائب، وجعلته إلزاميًّا على كل رعاياها.

عندما سقطت الإمبراطورية، صمدت الكنيسة ـ فقد كانت حكومة في ذاتها. وكان البابا شخصية مناظرة لإمبراطور روما، ومتحكمًا في هرم من المسئولين، ذوي السلطة، يخضعون له. وهنا نرى الرابط الثاني في صناعة الإمبراطورية: الكنيسة تصبح رومانية.

وبعدما سقطت الإمبراطورية الرومانية، حافظت الكنيسة على معارف اليونان وروما. وهذا تطور مدهش، لأن كل الكُتاب، والفلاسفة، والعلماء المنتسبين إلى اليونان وروما لم يكونوا مسيحيين بل وثنيون. لكن لماذا تشغل الكنيسة نفسها بهؤلاء الوثنيين؟

فكانت مجموعة من المسيحيين يرون أن الكنيسة لا شأن لها بهؤلاء ومعارفهم، فكتاباتهم ضالة، باطلة، والحقيقة الوحيدة تكمن في المسيح. وتساءل «ترتوليان»: «ماذا هنالك من شأن لأثينا بالقدس؟». لكن هذا الرأي لم يسد.

لم يُقم المسيحيون نظامًا للتعليم خاصًّا بهم، وبالتالي عندما بدأت المسيحية تنظم عقائدها، اعتمدت على أناس متعمقين في المنهج اليوناني ـ الروماني. اعتمد هؤلاء على الفلسفة والمنطق اليونانيين لشرح المسيحية، والدفاع عنها. واعتقد هؤلاء الأحبار المسيحيون أن الفلاسفة والأخلاقيين اليونانيين والرومانيين يملكون جانبًا من الحقيقة، في حين أن المسيحية بالطبع تملك الحقيقة الكاملة. ولكن من الممكن استخدام فلسفة الإغريق لتقود إلى الحقيقة وتذود عنها.

فبالرغم من وثنيتهم، قامت الكنيسة بالحفاظ على كتاباتهم، واستعملتها. وهذا هو الرابط الثالث: المسيحية تحفظ المعارف اليونانية والرومانية.

عندما قام الجرمانيون بغزو الإمبراطورية الرومانية، لم تكن في نيتهم تدميرها. لقد قدموا إليها للسلب، والنهب، والاستحواذ على أجود الأراضي والاستقرار، والتمتع بملذات الحياة. لقد كانوا راضين بقبول حكم الإمبراطور. لكن المشكلة تمثلت في أنه في القرن الخامس بعدما أتى الجرمانيون إلى الإمبراطورية، سيطروا على أراض كثيرة، حتى لم يعد للإمبراطور ما يسيطر هو عليه. لقد انتهت الإمبراطورية الرومانية، لأنه لم يعد هناك ما تحكمه من أرض.

لقد وجد المحاربون الجرمانيون أنفسهم مطالبين بإدارة المجتمعات التي قاموا بغزوها، ولم يكونوا متوقعين ذلك، وكان عليهم تنظيم وإدارة هذه المجتمعات في ظل ظروف صعبة. كان الجرمانيون أميين، وبالفوضى التي أحدثوها سقط ما تبقى من الإدارة الرومانية، وتقلصت التجارة والمدن. فما كان من زعماء المحاربين إلا أن جعلوا من أنفسهم ملوكًا على ما أنشئوه من ممالك صغيرة. وتقاتل هؤلاء الملوك، وصعدت ممالك، ثم انهارت سريعًا. ومرت عدة قرون، حتى ظهرت حدود لدول في غرب أوروبا؛ فرنسا، وإسبانيا، وإنجلترا. وفي مثل هذه الأحوال، تكون الحكومات، كما هو متوقع، في غاية الوهن. لم تكن هذه الحكومات لديها القدرة حتى على فرض الضرائب. وبدلًا من أن يكون هذا الجرماني زعيما للمحاربين، أصبح ملكًا، واقتطع أرضًا، ومنحها لأتباعه، الذين حولوا أنفسهم إلى نبلاء. وكان هناك شرط على النبلاء مقتضاه أنه إذا احتاج الملك جيشًا، قام النبلاء بتجهيزه له، فيرسلون جنودًا بأعداد غفيرة. لكن سرعان ما بدأ النبلاء يعاملون الأرض باعتبارها مِلكًا لهم، وأصبحت لهم آراؤهم فيما يتعلق بأعداد الجنود الواجب إرسالها للملك، وبأي نوعية، ولأي غرض.

في يومنا هذا ترى زعماء الدول يتفقدون حرس الشرف، يتحركون بين صفوفهم، وكأنهم يعاينون الجنود، وربما قالوا بعض كلمات. وهذا استمرار لتقليد من العصور الوسطى عندما كان يعاين الملك، فعلًا، الجنود الذين أرسلوا إليه من قبل النبلاء، وربما قال لنفسه: ماذا أرسلوا إليَّ هذه المرة من حثالة؟

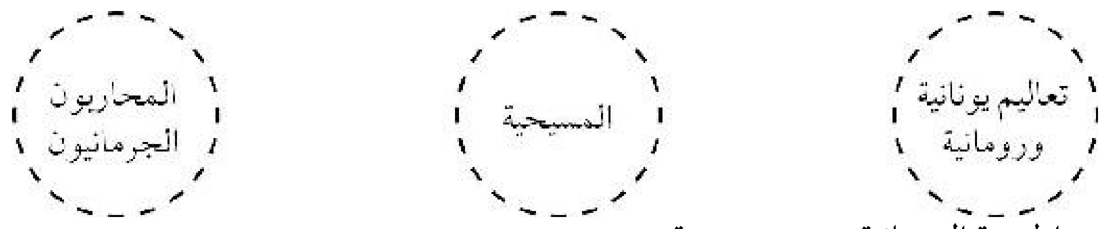
خاض الملوك حروبًا طويلة من أجل حصولهم على قوة أكبر: من أجل أن يحكموا دون أن يكونوا تحت رحمة النبلاء؛ لكي يفرضوا نظامهم الضريبي، ولكي يحصلوا على جيش يسيطرون عليه، ولكي يكون لهم نظامهم الإداري. ولأن الملوك قد بدءوا من موقف ضعيف، كانت هناك أمور لم يستطيعوا أبدًا تغييرها. الملكية الخاصة أصبحت مصونة؛ فقد أحال النبلاء الأراضي المقتطعة لهم، بشروط محددة، إلى ملكية خاصة مع مرور الزمن. وهذا قيد دائمًا حركة الحكومات، فبالرغم من تصاعد قوة الملوك الأوروبيين، لم يصبحوا أبدًا مثل جباري الشرق الذين ملكوا كل شيء في ممالكهم. إذا احتاج أحد جباري الشرق موارد، فما عليه إلا أن يصادر ممتلكات الناس، أو يرسل جنوده إلى أحد الأسواق ليستولوا على بضاعة بأمر الملك. الحكومات الأوروبية، حتى وإن أطلق عليها أنها «سلطة مطلقة»، لا يمكنها أبدًا التصرف بهذا النحو. «ليس كل شيء ملكًا للملك» كان الأساس لفكر الأوروبيين عن الحكومة. ومن حق الملكية الخاصة اشتق مفهوم الحقوق الشخصية، وهي مكون رئيسي في التراث الأوروبي. فمفهوم أن الحكومة يجب أن تكون مقيدة ظهر جليًّا، لأنه منذ البداية كانت الحكومة مقيدة في ممارسة سلطتها.

هذه القيود المفروضة على الحكومة، كانت أيضًا مهمة للتنمية الاقتصادية. هذا الضمان الذي تمتع به التجار، كان سببًا حيويًّا لنمو اقتصادي في أوروبا لم يضاهِه نمو في أي مكان آخر.

هذه المعرفة التي لدينا عن هؤلاء المحاربين وسلوكهم، لا تجعلنا نتعجب من أنهم بعد

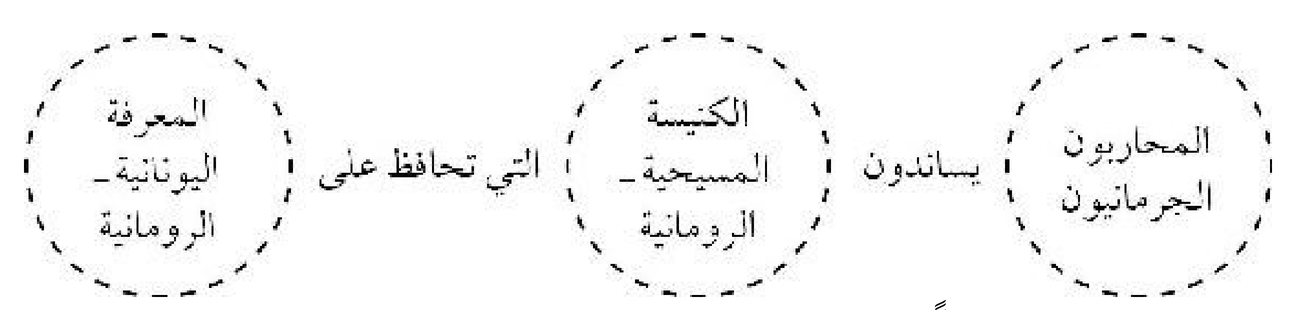
غزوهم للإمبراطورية الرومانية، بوقت قليل، أصبحوا مسيحيين. لقد كانت الكنيسة هي المؤسسة الوحيدة التي صمدت بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية. لقد كان الأسقف، في أغلب الأحوال، هو الذي يقابل حشد المحاربين عند وصولهم إلى الإمبراطورية بنية الاستيلاء على خيراتها، وربما قال لزعيم المحاربين: «يمكنك أن تأخذ هذه الأرض في هذا الجانب من النهر، ولكن رجاءً اترك الباقي لنا». ربما أشار أيضًا إلى قصر الحاكم الروماني البائد، فيحصل عليه زعيم المحاربين، ويدعو الأسقف نفسه لهذا القصر بدعوى المساعدة في إدارة شئونه. وسرعان ما استطاع الأساقفة إقناع هؤلاء المحاربين بأنهم سيتمكنون من قتل المزيد من أعدائهم إذا ما اتبعوا الرب. لقد كان هؤلاء غزاة من نوع خاص: فقد قبلوا باتباع دين من غزوهم. وقامت الكنيسة بإقناع هؤلاء الحكام الجدد، من ملوك ونبلاء، أن من مهامهم تأييد العقيدة المسيحية. وهذا هو الرابط الرابع، والأخير: المحاربون الجرمانيون يساندون المسيحية.

وإذا ما لخصنا كل هذه الروابط:

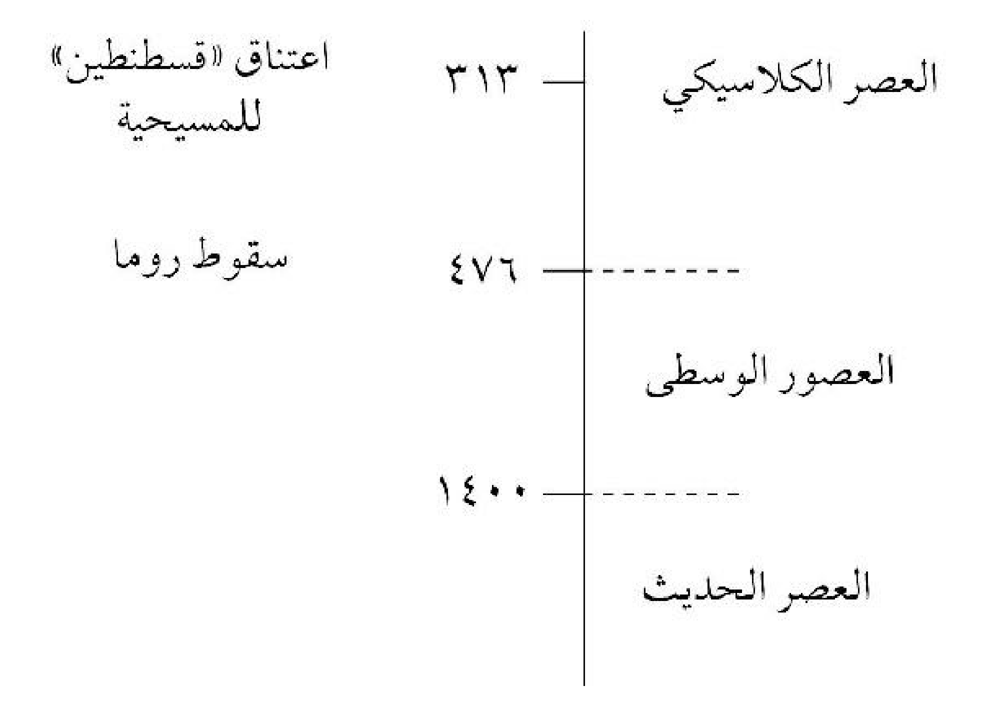


- الإمبراطورية الرومانية تصبح مسيحية.
- الكنيسة تصبح رومانية.
- الكنيسة تحافظ على المعارف الإغريقية والرومانية.
- **المحاربون الجرمانيون يصبحون مسيحيين.**

فسنصل إلى النتيجة التالية:



هذا مزيج غريب حقًّا، أليس كذلك؟ هؤلاء ليسوا حلفاء طبيعيين. إنه مزيج غير مستقر. في النهاية سوف يتحلل هذا المزيج إلى عناصره، ولكنه تماسك على حاله لفترة من الزمن اقتربت من ألف عام ـ منذ عام ٤٧٦، تاريخ سقوط الإمبراطورية الرومانية، حتى عام ١٤٠٠ ـ وهذه الفترة يطلق عليها المؤرخون، العصور الوسطى. ومن المؤرخين من يأخذ نظرة شاملة كبيرة للأمور فيعتبرون عام ١٤٠٠ هو بداية العصور الحديثة. وهذا يوضح التاريخ الأوروبي بأزمنته الثلاثة: القديم أو الكلاسيكي، والعصور الوسطى، والحديث.



وعبر العصور الوسطى، تماسك هذا الثلاثي المتنافر، ولكن العناصر تبدأ ذاتها في التغير. انظر إلى المسيحية؛ على أي نحو كانت، فلم تكن ديانة محبة للحرب. قال عيسى [عليه السلام]: «أحبوا أعداءكم». رفض المسيحيون الأوائل أن يجندوا في الجيوش، وهذا ما جعل الرومان متوجسين منهم. ولكن المسيحيين شرعوا في مشاركة مع المحاربين الجرمانيين. دين «أدر له وجهك الآخر» أصبح مساندًا بالرجال الحديديين. ما هذا التناقض؟ ليس تناقضًا كبيرًا كما يبدو، فبمجرد أن أصبحت المسيحية دينًا لـ«كونستانتين»، والديانة الرسمية للدولة، كان عليها أن تغير رأيها بشأن العنف. الحكومات يجب أن تحارب، وإذا أرادت الكنيسة مساندة الحكومات، فعليها أن توافق على أن الحكومات تستطيع، في بعض الأحوال، أن تحارب بعدل.

وعندما تشاركت الكنيسة مع هؤلاء المحاربين، لم تقبل قيمهم بالكامل. ومع مرور الزمن، تحول المحارب إلى فارس. فارس محب للقتال، فخور بقدرته على القتال، ولكنه يقاتل من أجل أغراض نبيلة. وشجعته الكنيسة على قتال غير المسيحيين ـ وهذا غرض نبيل بالتأكيد. ودفعت الكنيسة الصليبيين إلى الأرض المقدسة، التي سقطت في أيدي المسلمين ومنحت مزايا كنسية خاصة للمقاتلين هناك.

الفارس هو الذي يحمي الضعفاء، خاصة النساء الكريمات. وبهذا البعد الأخلاقي للقتال، يكون الرجل فارسًا في احتفال ديني. يوضع سيفه على المذبح في الكنيسة، وبعد ذلك يعلق في موضعه على الفارس، وعليه بعدها أن ينطلق لفعل الأمور النبيلة بهذا



ملك الفرنجة «تشارلز» «شارلمان» يثبت سيفًا في موضعه لرولاند، الذي تقول الأسطورة إنه قتل وهو يحارب المسلمين في إسبانيا

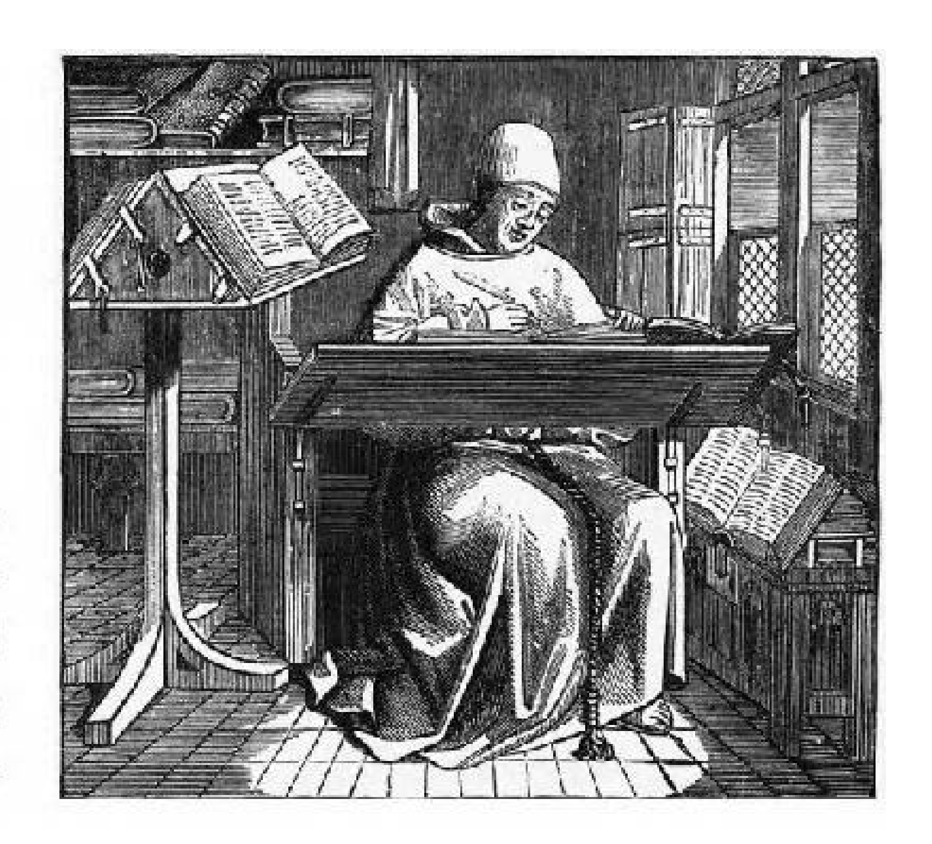
السيف. هذا السلوك بشأن حماية وتشريف السيدات الكريمات، يرجع إلى زمن بعيد في أوروبا. وبعد اختفاء الفرسان، أصبح هذا هو السلوك المتوقع من الرجل نبيل السلوك ـ «الجنتلمان» ـ كخليفة للفارس المسيحي. فيتوقع من هذا الرجل أن يظهر احترامه للنساء؛ فيقف عندما يقدمن إلى المكان، وأن يرفض الجلوس إذا ما كن واقفات، وأن يلامس بأصابعه قبعته قبالتهن. لقد تعلمت هذا في مدرستي، ولم أنس ما تعلمت، وبهذا أكون تذكارًا حيًّا للعصور الوسطى.

وفي العصور الحديثة رفضت زعيمات الحركات النسائية مثل هذا السلوك. رفضن تشريفهن على هذا النحو المتحجر فأردن أن يكن متساويات مع الرجال. وفي حملات الأوروبيات من أجل المساواة، كانت لهن ميزة لأن المرأة كان لها درجة من الاحترام القديم في الثقافة الأوروبية، فكان للحركة النسائية قدر من القبول المبدئي. وهي قصة

مختلفة تمامًا في الثقافات الأخرى.

دعنا ننظر إلى بعد آخر متوتر في هذا المزيج: حفاظ الكنيسة على التراث المعرفي للإغريق والرومان. لقد كانت هذه عملية نشطة من الحفاظ على هذا التراث، وليس لأن الكنيسة وضعت الكتب النفيسة في خزانات وتركتهم على الأرفف. لقد حفظت هذه الكتب ويمكننا الاطلاع عليها الآن ـ لأن الكنيسة نسخت هذه الكتب طوال العصور الوسطى. لم تكن هناك طباعة، والكتب تبلى وتهلك. لقد كان الرهبان في صوامعهم هم من قام بعملية النسخ، وفي أحوال كثيرة دون دراية لما ينسخون ـ ولهذا كانت هناك أخطاء كثيرة ـ لكنهم حافظوا على كنوز اليونان وروما من معرفة.

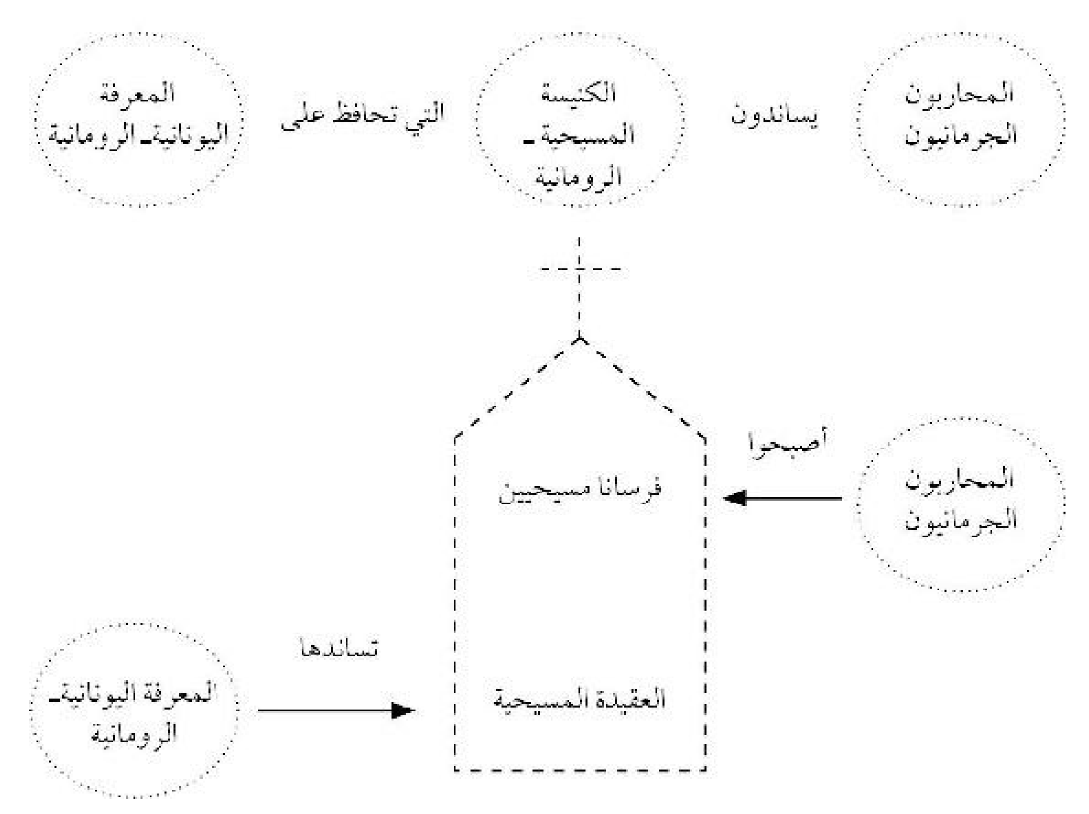
إذا ما قرئت الأدبيات الإغريقية ـ الرومانية فإنها تقدم فلسفة، ونظامًا للقيم، وأسلوب حياة، غير مسيحي ووثني. ولكن الكنيسة، في العصور الوسطى، كان لها القدرة على السيطرة على الحياة الفكرية، بما منع أي شخص أن يطلع على هذه الأدبيات إلا وفقًا لمعاييرها. فقامت الكنيسة باستعارة ما احتاجته، وأعادت تركيبه، ووضعته في نسق إنجيلي، وبهذا أوجدت اللاهوت المسيحي، بتفسير للرب، وعالمه، وطريقه للخلاص. وبهذا وضعت الفلسفة اليونانية، ومعارفها، ومنطقها



حافظت الكنيسة على المعارف اليونانية والرومانية، وانتفعت بها لدعم عقيدتها

في إطار خدمة المسيحية. ولم تزعج الاكتشافات الجديدة لنصوص قديمة أحبار المسيحية، فقد نسجوا هذه الاكتشافات في علم اللاهوت.

دعنا نلخص كيف عمل هذا المزيج في العصور الوسطى. أصبح لدينا محاربون تحولوا إلى فرسان للمسيحية، وأصبحت المعارف اليونانية ـ الرومانية معينة للمسيحية. والكنيسة في وسط هذا الاتحاد المتنافر، ممسكة بزمام الأمر كله. التعليم مسيحي، والفرسان مسيحيون، والعالم صبغ بالمسيحية، دنيا المسيح.



وبعد عام ١٤٠٠ من ميلاد المسيح، بدأ هذا الاتحاد الغريب في التفكك، فيما يعتبره المؤرخون بداية للعصر الحديث.

الفصل الثاني: أوروبا المعاصرة

هذا المزيج الذي شكل الحضارة الأوروبية كان مضطربًا. لقد استمر العمل بهذا المزيج لفترة طويلة خلال العصور الوسطى، لحوالي ألف عام، لكن عناصره لم تكن متناغمة مع بعضها البعض. ومع بلوغ أوروبا العام ١٤٠٠، بدأ هذا المزيج في التفكك. وقد حدث هذا مع بدايات عصر النهضة.

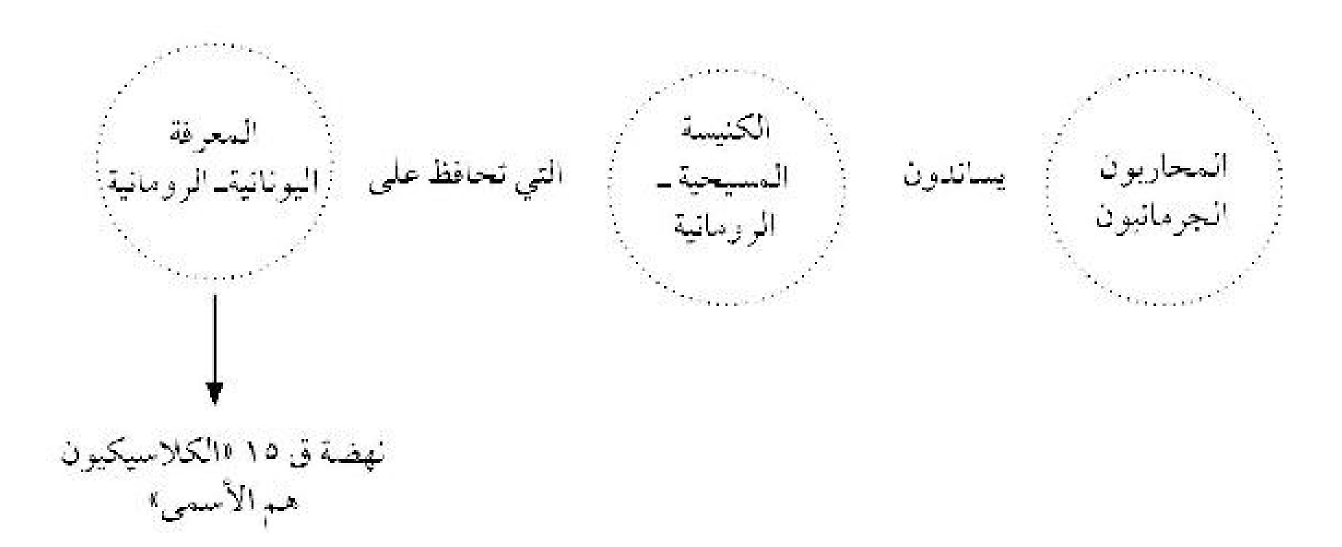
عادة ما كانت توصف النهضة بأنها اكتشاف، أو إعادة اكتشاف، للمعرفة اليونانية والرومانية. لكن لم يكن الواقع أن هذه المعرفة قد فقدت، فلزم العثور عليها، بالرغم من أن هناك بعض الاكتشافات قد تمت في هذا العهد. لكن التغير تمثل في أنه بدلًا من استخدام الكنيسة لهذه المعرفة القديمة لمساندة اللاهوت وعقيدتها، أصبح هناك أهل العلم، ومعظمهم خارج الكنيسة، والذين لهم اهتمام في تخيل هذا العالم اليوناني الروماني الذي أنتج هذه المعرفة. لقد أرادوا أن ينتجوا فنونًا كما فعل الفنانون القدماء، وأن يقيموا مباني مثلهم، ويكتبوا اللاتينية مثلهم ، وأن يفكروا على طريقتهم. لقد فكروا وكأنهم في هذا العالم السابق القديم الذي لم يكن مسيحيًّا بل وثنيًّا ـ وهذا ما أخفته الكنيسة لأنها استخدمت المعارف القديمة لأغراضها.

لقد كان عالمًا أكثر دنيوية؛ فقد انشغل القدماء بالبشر وما يفعلون في هذه الدنيا، أكثر من اهتمامهم بحياتهم بعد الموت. احتفى القدماء بقدرات الإنسان وقوته، ولم يسهبوا في

الحديث عن انحرافاته. كان عالمًا منفتح الفكر، وسعى مفكرو عصر النهضة إلى الدخول فيه. كان هناك تنوع كبير للآراء بين الفلاسفة القدماء والأخلاقيين بشأن حياة الإنسان وكيفية تفكيره. على أي حال، لم يهاجم مفكرو عصر النهضة الدين المسيحي. لقد تباينوا في مواقفهم الشخصية، لكن على العموم، كان رأيهم في المسيحية مماثلًا لرأي القدماء في الدين. وهو أن الدين شيء موجود ولا يسبب مشكلة بوجوده، شيء جيد أو شيء ضروري، لكن هناك أشياء أخرى تستوجب الاهتمام. الدين ليس من شأنه أن يسيطر على الحياة والفكر، على خلاف ما ترى الكنيسة. وبمجرد أن تنكسر حدة هذه السيطرة، يصبح الفكر الأوروبي أكثر جرأة وتحررًا، وأقل انقيادًا وراء الثوابت، على عكس ما كان من قبل.

ومع عصر النهضة، بدأت عملية طويلة من علمنة المجتمع الأوروبي. وفي العالم العلماني، يمكن للدين أن يتواجد، لكن كشأن شخصي، أو كتجمع لأناس يرتبطون بمعتقدات معينة ـ كعالمنا المعاصر. الدين لا يسيطر على المجتمع، ولا يفرض قواعده وطقوسه على كل شخص، أو يتحكم في الفكر.

ما حدث في عصر النهضة، هو أن أناسًا كانوا ينتمون لثقافة وعقيدة معينة، اتبعوا ثقافة أخرى ونهجًا آخر. وعندما تفعل ذلك، فإنك لست هذا الشخص القديم. لن تعود الأشياء كما كانت كثوابت، أو حتميات. ولم تكن هذه هي المرة الأخيرة التي انسلخ فيها المفكرون الأوروبيون من جلودهم.



رجال عصر النهضة، هم أول من أطلق على اليونانيين والرومان، العصر الكلاسيكي. الكلاسيكي هنا تعني الأفضل على الإطلاق: فهم كلاسيكي، أداء كلاسيكي، بما يعني شيئًا لا يمكن التفوق عليه. لقد اعتقد رجال عصر النهضة أن إنجازات القدماء في الأدب، والفن، والفلسفة، والعلم لم يسبقهم إليها أحد، وأنه لا يمكن التفوق عليها. وأنهم يمكن أن يحققوا شيئًا جيدًا، إذا ما استطاعوا فقط الاقتراب من مستواها. وبهذا أحدثت النهضة خللًا في مزيج الحضارة الأوروبية بذكرها أن: الكلاسيكيين هم الأسمى.

يعمل نظام الزمن عندنا وفق قاعدتين مختلفتين، بما يعتبر تذكرة مستمرة لهذه الطبيعة المختلطة لحضارتنا. فنحن نؤرخ للسنوات بداية من ميلاد المسيح، وبهذا فإننا نعتبر أنفسنا منتمين للحضارة المسيحية. الحرفان «AD» اختصار لكلمتين لاتينيتين «Anno Domini»، (في سنة الرب) (المسيح لم يولد في السنة الأولى، ولكن الأغلب قبلها بأربعة أو ستة أعوام). على أي حال، فإن الطريقة التي نقسم بها الزمن إلى عصر كلاسيكي،

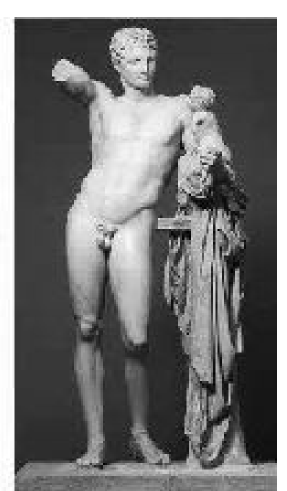
عصور وسطى، عصر حديث ـ لا علاقة لها بالمسيحية، إنها رؤية عصر النهضة، التي تذهب إلى أن العصر الكلاسيكي وصل إلى قمة تمامه، لكن الجنس البشري هام على وجهه، وأضاع إرث هذا العصر. وهذا الزمن الضائع هو العصور الوسطى، وهو ذات الزمن الذي وصلت فيه الكنيسة إلى تجلياتها في الحياة الفكرية والاجتماعية. إذن، فصفات العصور بالكلاسيكية، والحديثة، وبينهما العصور الوسطى، هي تركيبات غير مسيحية.

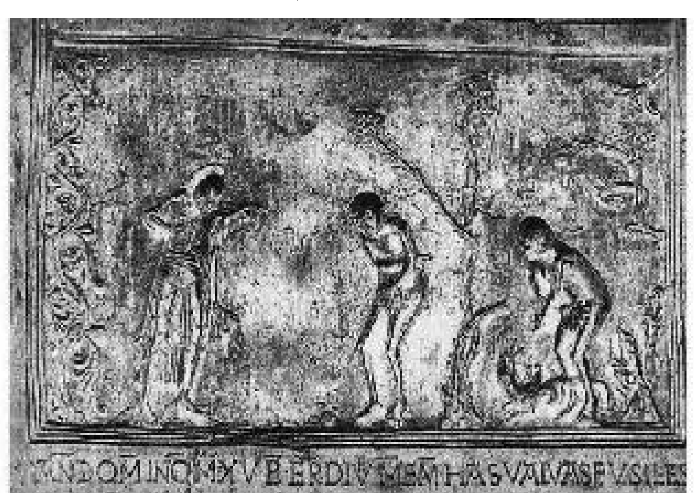


ثلاثة أعمال من النحت يمكنها أن تشرح حركة العصور الثلاثة، الكلاسيكي والعصور الوسطى والحديثة. الأول تمثال قديم من العهد الإغريقي يفتقد إحدى

ذراعيه، إذ لم تصمد كثير من التماثيل اليونانية القديمة عبر الزمن.

والذي لدينا من هذه التماثيل نسخ رومانية، التي لم تكن بذات الجودة. والتمثال الأول من اليسار هو للإله «هيرميس» ومعه الرضيع «ديونيس» للنحات «براكسيتيليس». جسد الإنسان كمثال للجمال والكمال هو اختراع إغريقي. ويفرق مؤرخ الفنون «كينيث كلارك» بين الجسد العاري والجسد المجرد من الملابس. فالجسد العاري كاف لذاته ومناسب تمامًا على وضعه، أما الجسد المجرد من الملابس فيظهر وكأن به نقص. بالطبع ليست أغلب أجساد الرجال على هذا النحو: لقد كان غرض الإغريق ألا يعرضوا جسدًا بعينه. لقد عملوا من أجل استكشاف الكمال في الجسد، واستخدموا علمهم بالرياضيات لإيجاد النسب والأبعاد التي تسر الناظرين وتكون جميلة.







من يمين الصورة: «هيرميس» للنحات «براكسيتيليس»؛ الإله يواجه آدم وحواء، من الأبواب البرونزية في «هيلدشيم»؛ ومن اليسار «ديفيد» للنحات «مايكل أنجلو»

النحت الثاني في الوسط هو رؤية من العصور الوسطى لشكل الإنسان، وهو موجود على أبواب كاتدرائية «هيلدشيم» في ألمانيا، وهو نحت يصور آدم وحواء بعد أكلهما

للفاكهة التي حرمها الإله عليهما. يلوم آدم حواء، وحواء تلوم الأفعى. والاثنان مُستحيان من عريهما ويغطيان سوءتيهما. هذه قطعًا ليست أجسادًا عارية على الطريقة الإغريقية، لكن النحت يعبر عن التعاليم المسيحية، في أن الجسد شر، وسبب للخطيئة.

والنحت الثالث لـ«مايكل أنجلو» في عصر النهضة، في شكل تمثال يصور نفسه على طريقة اليونانيين، ويرجع إلى فكرتهم عن العري. ويقدم تمثال «ديفيد» كشكل إنساني للكمال: رجل يجسد في المنحوت لقيم سامية ونبيلة وجميلة. كما يقول «هاملت»: «في العمل كأنه ملاك وفي المهابة كأنه إله».

من العري، إلى التجرد من الملابس، إلى العري نرى فكرة عن التحرك من الكلاسيكية إلى العصور الوسطى إلى العصر الحديث، هكذا فهمت النهضة نفسها.

***

كانت النهضة أول عرقلة كبرى لعالم العصور الوسطى، والثانية كانت حركة الإصلاح البروتستانتية في القرن السادس عشر. وقد كانت هجومًا مباشرًا على الكنيسة. وكان هدفها أن ترجع الكنيسة إلى ما كانت عليه قبل أن تصبح رومانية. فكما رأينا، اتخذت الكنيسة ملامح رومانية، لأنها كبرت في إطار الإمبراطورية الرومانية؛ ولما انهارت الإمبراطورية استمرت الكنيسة مع البابا، الذي كان في مقام إمبراطور، ومعه مطارنة وأساقفة الذين كانوا مثل ولاة الإمبراطورية القديمة، وعمل تحت إمرتهم قساوسة في كل جهة. هذا الشكل المقدس، كانت له قوانينه، وقواعد عقابه، وأهدافه،

ونظامه الضريبي.

حكم البابا والأساقفة الكنيسة وحددوا تعاليمها. وكانت الكنيسة تقدم لك الخلاص، ولكن بوسائل محددة تحكمت هي فيها. تحتاج إلى قساوسة وأساقفة حتى تنجو من الآثام. عليك أن تحضر الصلوات والقداس، وتحتاج إلى قسيس ليخلق هذا المناخ السحري لإحالة الخبز والنبيذ إلى جسد المسيح ودمه. وتحتاج إلى قسيس ليستمع إلى اعترافك وليمنح المغفرة والكفارة عن خطاياك. قد يقوم القسيس بطلب ترديد اسم السيدة العذراء، أو تذهب إلى الحج إلى بيت المقدس، أو في حالة ارتكاب الخطايا الكبرى أن تسمح بأن تجلد أمام مذبح الكنيسة. وإذا كنت غنيًّا وتحتضر، فإن القسيس سيقول لك بحزم إنك لن تدخل الجنة إلا إذا تركت جانبًا من ثروتك للكنيسة.

وفي العصور الوسطى لم يلتحق رجال الكنيسة بها لأنهم كانوا أكثر تقوى أو تدينًا، بل لأن الكنيسة كانت التنظيم الأكبر والأغنى في عهدها. تملي عليك الأوامر الكنسية، كما تملى عليك اليوم التعليمات في الخدمة الحكومية، أو شركة كبيرة، أو السياسة، أو في الجامعة. لكي تحصل على وظيفة مأمونة، أو عمل جيد، أو مرتب مرتفع لتعيش بشكل لائق، ولتمارس السلطة. وهناك فرص كبيرة في الكنيسة لكي تثري وتمنح فرص عمل للأصدقاء والأقارب.

بيد أن هذه المؤسسة الغنية، الناهبة، الفاسدة كانت أيضًا هي الحافظة لتعاليم عيسى [عليه السلام]، ونهج المسيحيين الأوائل. كان عيسى [عليه السلام] وأتباعه أناسًا

بسطاء، لكن الباباوات والأساقفة عاشوا في القصور. حذر عيسى [عليه السلام] من مخاطر الغنى، واجتمع المسيحيون الأُول في منازل بعضهم البعض. كل هذا مدون في الإنجيل، وبهذا فإن كتاب الكنيسة المقدس سيكون كالديناميت المتفجر في أيدي منتقديها، كيف استطاعت الكنيسة تفادي النقد المدمر لها؟

ولما كان الإنجيل مكتوبًا باللاتينية، فنفر قليل تمكنوا من قراءته. وأكدت الكنيسة أنها السلطة الأولى والأخيرة في تفسير الإنجيل. وإذا استخدم أي شخص الإنجيل لنقد تعاليم وممارسات الكنيسة وجعلوا من أنفسهم مصدر إزعاج، أُحرقوا باعتبارهم زنادقة؛ أي أتباع ضالون يشكلون خطرًا على أنفسهم وعلى العالم المسيحي. ولكن مع حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر، ظهر زنديق أفلح في النجاة. وكان اسمه «مارتن لوثر».

كان «لوثر» راهبًا متمسكًا بالدين، وكان شديد الاكتراث بشأن خلاصه من الذنب: ما الذي عليه أن يفعل، وهو كثير الخطايا،



«مارتن لوثر» للرسام «لوكاس كراناش»، ١٥٣٢

حتى ينقذ نفسه ويخلصها من الذنوب؟ فجأة ارتاح عقله وهو يقرأ الإنجيل، وتحديدًا خطاب «بولس» إلى الكنيسة في روما. يقول «بولس» إيمانك بالمسيح سوف يخلصك. ومن هنا استنبط «لوثر» أنه لا عليك فعل شيء للخلاص، وتحديدًا ليس عليك أن تضع نفسك تحت رحمة القساوسة وتتبع أوامرهم. كل ما عليك فعله هو أن تؤمن، أن يكون لديك إيمان. الإيمان وحده هو الذي سيخلصك، وهذه الرسالة الأساسية لـ«لوثر». اعتقد في المسيح وستُخلص. كمؤمن، ستحتاج أن تقوم بأشياء تسعد الرب، أن تفعل، كما تقول الكنيسة، أعمالًا طيبة، أن تتصرف كما أمر المسيح أن تتصرف، ولكن هذه الأعمال في حقيقة الأمر لن تعينك على الخلاص. وهنا يكمن الفرق الجوهري بين البروتستانتية والكاثوليكية. أكد الكاثوليك على الأعمال الطيبة كجزء من عملية الخلاص. الذهاب إلى الحج، إعطاء أموال للفقراء، هذا سيساعد في تعاملك مع الرب. «لوثر» ذهب إلى غير ذلك ـ كيف لأعمال نقوم بها نحن كمذنبين خاطئين تنال رضا الرب؟ الشيء الوحيد الذي يمكن أن نفعله هو أن نؤمن، وإذا آمنا فالرب قد وعد بأننا سنُخلص.

هذا نوع جديد من «اعمل ـ كل ـ شيء ـ بنفسك» كدين. هذا النظام الهائل الذي أقامته الكنيسة عبر القرون، كان غير ضروري، هكذا قال «لوثر». لم يلق هذا الرأي استحسانًا في روما. رفض البابا نقد «لوثر» للكنيسة، وتعاليمه الجديدة بشأن الخلاص. وكان رد «لوثر» بتنديد شديد للبابا: من يظن هذا الرجل نفسه؟ هو ممثل المسيح على

الأرض، هكذا أخبرنا، ولكنه عدو المسيح حقًّا. إنه يعيش في بذخ ويرتدي تاجًا ثالوثيًّا، وعندما تكون في حضرته عليك أن تُقبل أصبع قدمه، وعندما يتحرك فهوُ يحمل على أكتاف خدامه ـ ولكننا نعلم من الإنجيل أن المسيح كان يجوب الديار على قدميه. كان الإنجيل هو المفتاح لنقد «لوثر» للكنيسة. إن لم يكن الأمر في الإنجيل ذاته، فلا مبرر للكنيسة للإصرار عليه أو ممارسته. الإنجيل هو السلطة الوحيدة. وبعد انفصاله عن روما، أول شيء فعله «لوثر» هو ترجمة الإنجيل إلى الألمانية، حتى يستطيع كل شخص قراءته، ويصبح مالك أمر نفسه فيما يتعلق بخلاصه.

كانت حركة الإصلاح البروتستانتية من خلال جعل التعاليم والطقوس مؤسسة على الإنجيل. حاولت أن تسترجع حياة الكنيسة الأولى. ورسالة الحركة الإصلاحية تمثلت في أن المسيحية ليست رومانية.

كيف تسنى لـ«لوثر» أن ينجو من الحرق باعتباره زنديقًا من وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية؟ هناك عدة أسباب. أولًا اختراع الكتابة، فنقد «لوثر» وتنديده بالكنيسة وضع فورًا في مطبوعات، ووزع في كل أوروبا. كانت الكتابة اختراعًا حديثًا قد مر عليه خمسون عامًا فقط عندما بدأ «لوثر» هجومه على الكنيسة. وقبل أي محاولة من البابا لتنظيم صفوفه لهزيمة «لوثر»، كان كل شخص معني على علم بانتقاداته، وقارئًا لها. فلم يكن «لوثر» مجرد زنديق بأتباع معدودين في بلد واحد، كشأن آخرين من قبله، بل كان له أتباع في عدة دول. والسبب الثاني هو أن عددًا من الأمراء الألمان رحبوا بهجومه

على روما. لم تكن ألمانيا بلدًا واحدًا، ولكن مجموعة دول. ويرجع ذلك، جزئيًّا، إلى أن الكنيسة قد مارست تأثيرًا أكبر على ألمانيا مقارنة بالدول الموحدة مثل فرنسا وإنجلترا. فقد استحوذت الكنيسة على مساحات شاسعة من الأراضي، ربما النصف في بعض الأماكن، وجمعت أموالًا كثيرة من الناس، وعين البابا أساقفة دون أخذ رأي الأمراء. وباتباعهم لـ«لوثر»، تمكن الأمراء من الاستيلاء على أراضي الكنيسة، وعينوا هم الأساقفة، ومنعوا تدفق الأموال إلى روما. وأصبح الأمراء حماة لـ«لوثر»، وفي رعايتهم بدأت الكنيسة اللوثرية في الظهور. وتأسست هذه الكنيسة فيما تجاوز نصف ألمانيا، ومنها انتشرت شمالًا إلى السويد والدنمارك والنرويج. واتبعت إنجلترا طريقتها البروتستانتية متمثلة في كنيسة إنجلترا.

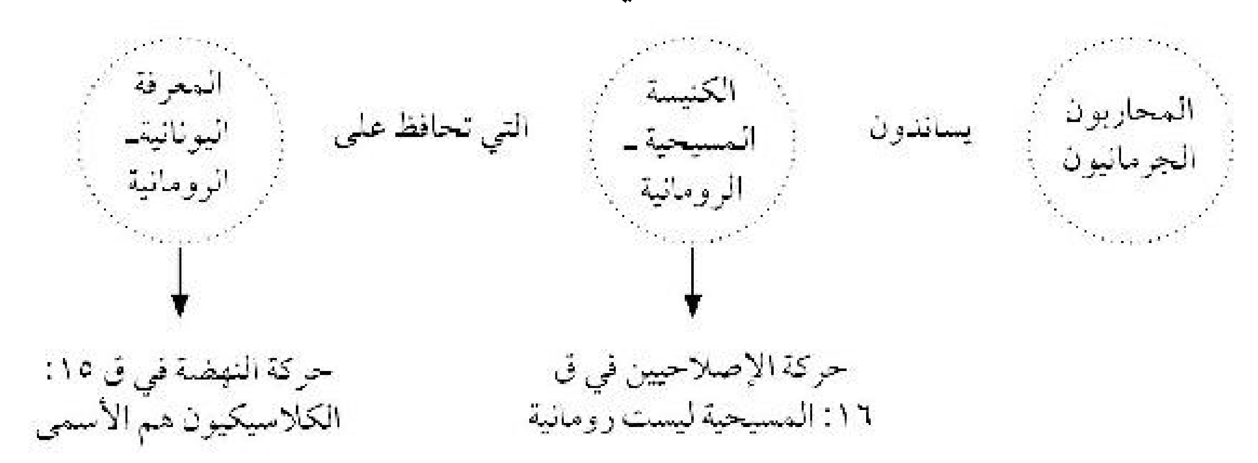
وسرعان ما تكونت كيانات عديدة منافسة لكنيسة روما. واتخذت الكنائس البروتستانتية عدة أشكال، اختلفت باختلاف البلدان. وتمتعت هذه الكنائس بالاستقلال الذاتي في هذه الدول كسلسلة من الكنائس القومية، بينما كانت الكنيسة الكاثوليكية منظمة دولية. وعندما بدأ الناس يقرءون الإنجيل بأنفسهم، كما نصحهم «لوثر» وآخرون من الإصلاحيين، وجدوا أسبابًا من الإنجيل لنقد «لوثر» أيضًا. وبدأت الحركة البروتستانتية تولد كنائس جديدة، إذ لم يعد هناك سلطة مركزية لتفسير الإنجيل، وتفرض رقابة على العقيدة.

حارب الكاثوليك والبروتستانت بعضهم البعض لأكثر من مائة عام. فقد نظر كل إلى

الآخر باعتباره مخطئًا تمامًا، لا باعتباره شكلًا آخر من المسيحية، لقد حاربوا بعضهم ليس لأنهم غير مسيحيين، ولكن باعتبارهم أعداء للمسيحية وللكنيسة الحق. وهذه الكنيسة الحق يمكن الحفاظ عليها إذا ما دمر الطرف الآخر. وهذا التوجه لسفك الدماء أدى إلى مذابح بشرية. لقد كان أفضل لبروتستانتي أو كاثوليكي أن يقتل، على أن يترك ليدعو إلى عقيدة تغضب الرب، وتدمر الكنيسة على الأرض. ولكن بعد أن حاربوا بعضهم لأكثر من مائة عام دون انتصار فرقة على أخرى، آثروا الهدنة لفترة طويلة، وبالتدرج صعد إلى السطح مفهوم التسامح. أولًا، كان هناك قبول بأن تكون هناك دول بروتستانتية وأخرى كاثوليكية، وبعد ذلك، وكقفزة كبرى، ظهرت فكرة أن طوائف مختلفة من المسيحيين من الممكن أن يعيشوا في سلام في بلد واحد، وهو ما كان ليقبله الكاثوليك والبروتستانت في البداية.

النهضة وحركة الإصلاح الديني كانا ذَوَيْ توجه نحو الماضي، لقد حاولا فصل مكون من مكونات المزيج المؤسس للحضارة الأوروبية، عن بقية المكونات. فالنهضة نظرت إلى المعارف اليونانية والرومانية. والإصلاحيون والبروتستانتيون كانت نظرتهم أيضًا إلى الوراء، حينما كانت الكنيسة لم تتخذ الهيكل الروماني بعد. واحتفظت الكنيسة الكاثوليكية بالوثائق التي كانت أساسية للحركتين. فقد احتفظت بالمعارف اليونانية والرومانية، التي استخدمتها حركة النهضة بعد ذلك للهروب من سلطة الكنيسة على الفكر والإبداع، كما أوجدت الإنجيل وقدسته، وهو الذي استخدمه الإصلاحيون

البروتستانتيون لمهاجمة اللاهوت الكاثوليكي، ووحدة الكنيسة.

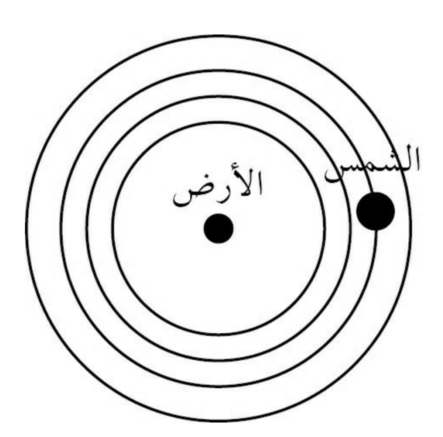


* * *

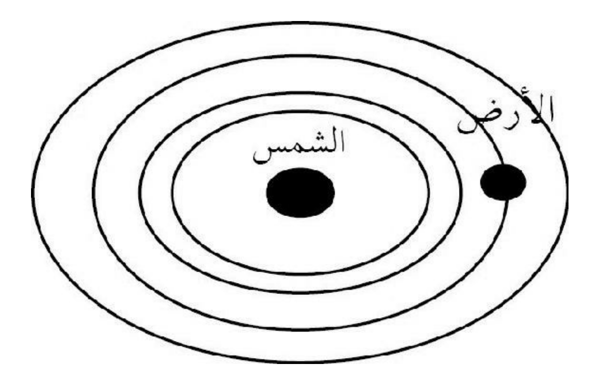
علينا الآن أن ننظر إلى ما جعل الثقافة الأوروبية ذات توجه مستقبلي، وما الذي جعلها تؤمن بالتقدم، وبأن الأمور عبر الزمن ستكون أفضل، وهو أمر غريب عن أن يعتقد فيه الناس. الإيمان بالتقدم جاء بفضل الثورة العلمية في القرن السابع عشر. وهي الفترة التي بدأ فيها العلم الحديث.

في بداية القرن السابع عشر، كان اليونانيون هم السلطة المفسرة للكون وكيفية عمله. وتعاليمهم الرئيسية في هذا الشأن، أن الأرض هي مركز الكون، وحولها تدور كل الكواكب الأخرى والقمر والشمس. واعتقد اليونانيون أن الأرض ثابتة، ولم يظهر عليها حركة ـ فأي قوة تلك التي تحركها؟ إنها ثابتة. فالأرض هي النطاق الدنس؛ على الأرض تتغير الأشياء وتبلى، ولكن الجنة نقية، كاملة، لا تبديل فيها. ولماذا تتحرك الكواكب في دوائر؟ لأن الدائرة شكل كامل. إنها واحدة من التعاليم اليونانية في

الهندسة، أن هناك أشكالًا كاملة كالمربع والدائرة. إذن فالكواكب تتحرك في دوائر، ولأن هذا نظام متكامل، فلا توجد قوة تحركها. إنها تدور سريعًا في حلقات كاملة متناغمة.

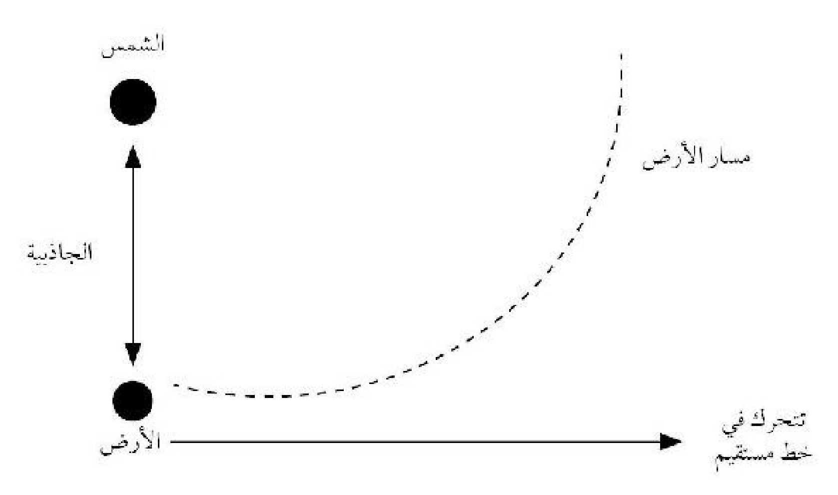


وفي القرن السابع عشر تمت هزيمة هذا الرأي، فيما نعتبره اليوم أنه الحقيقة. الشمس هي مركز النظام؛ وتدور الكواكب حول الشمس، ليس في دوائر ولكن في شكل بيضاوي، وما الأرض إلا كوكب من الكواكب التي تدور حول الشمس، وحولها يدور القمر. والنظام هو نظام واحد، لا توجد نطاقات منفردة بين أرض دنسة، وجنة نقية. إنه نظام واحد، وقانون واحد، أو مجموعة واحدة من القوانين التي تفسر الأمر كله.



ولكن ما الذي يجعل الأرض والكواكب تتحرك؟ يجيب «إسحاق نيوتن»، بأن كل شيء في الكون يستمر في التحرك في خطوط مستقيمة، إلا إذا أثر عليه شيء آخر. وهذا

الشيء المستمر دائمًا، هو جاذبية متبادلة بين الأشياء الموجودة في الكون. كل الأجسام تجذب بعضها الآخر. هذا الكتاب منجذب إلى الأرض، والقمر منجذب إلى الأرض، والأرض منجذبة إلى الشمس. تتحرك المياه على الأرض في مد وجذر بسبب تغير قوة الجاذبية بين الأرض والقمر. إنه نظام واحد يربط الأشياء جميعًا. نستطيع الآن أن نعرف لماذا تتحرك الكواكب. هناك قوتان مؤثرتان عليها: التوجه التلقائي إلى أن تتحرك في خط مستقيم، وانجذاب لها ناحية الشمس. ونتيجة القوتين، يتحرك الكوكب في هذا الشكل البيضاوي حول الشمس.



هذا الانجذاب المتبادل بين الأجسام، جعل يقدم مصطلح الجاذبية، واستطاع أن يحسب قوة الجاذبية بين أي جسمين من خلال القانون العام للجاذبية. ويشرح هذا القانون بمعادلة رياضية. ويقول بأن قوة الجاذبية تزداد عندما يكبر حجم الأجسام: ولها علاقة مباشرة بحجم الأجسام. وتقل قوة الجاذبية عندما تزداد المساحة اتساعًا بين الأجسام. وفي الواقع، فإن الجاذبية تقل بسرعة كبيرة عندما تتحرك الأجسام بعيدًا عن بعضها؛ فقوة الجاذبية تقل بمربع المسافة بين الجسمين. إذن فمضاعفة المسافة بين

جسمين تجعل الجاذبية بينهما أقل أربع مرات (2x2). وها هي المعادلة، وهي المعادلة الوحيدة التي سأزعجكم بها، وقد استخدمها «نيوتن» لقياس الجاذبية بين الأرض والشمس.

$$F = G \frac{m1 \times m2}{r^2}$$

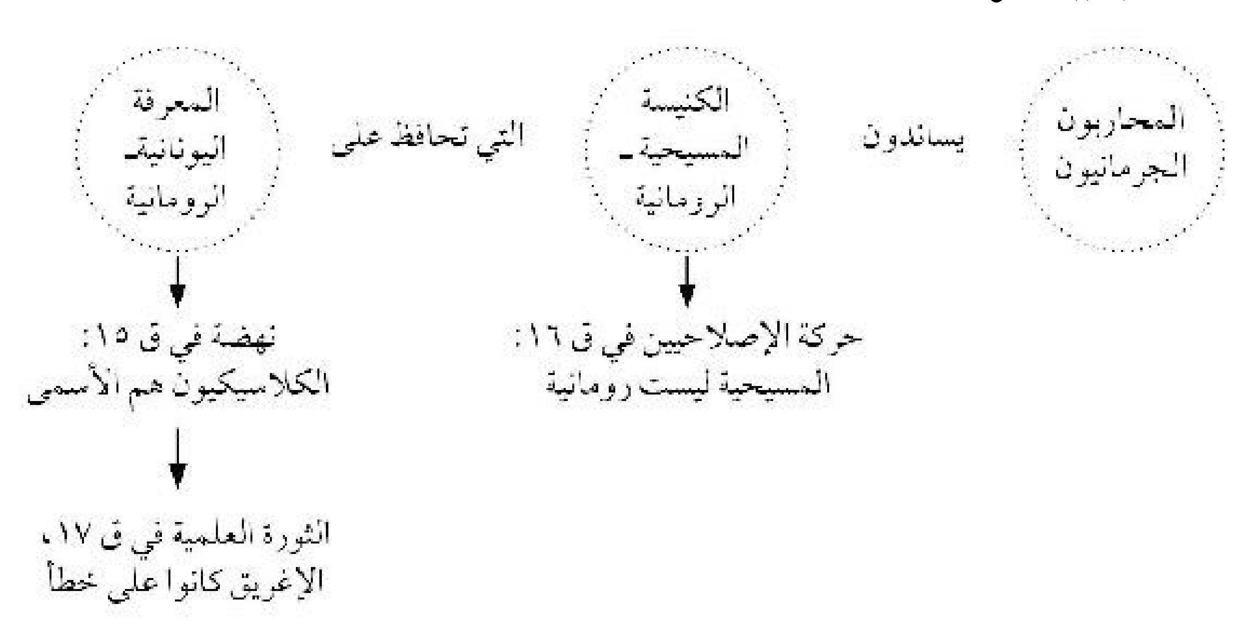
حيث: قوة الجاذبية بين الجسمين
F: ثابت الجاذبية
G: كتلة الجسم الأول
m1: كتلة الجسم الثاني
m2: المسافة بين الجسم الأول والجسم
r: الثاني

معادلة كهذه تذكرنا بأن الرياضيات هي أساس العلوم، وأن تلك التخمينة اليونانية القديمة كانت سليمة: العالم بسيط والقوانين التي تحكمه ستكون رياضية في شكلها. حقًّا، فلقد انقلب علماء القرن السابع عشر على معرفة اليونانيين فيما يتعلق بالكون، لكنهم فعلوا ذلك مستخدمين قوانين اليونانيين في الرياضيات.

يا له من إنجاز عظيم أن تكتشف من موقعنا على الأرض ـ وهو الكوكب الثالث قربًا من الشمس ـ كيف يعمل النظام بأكمله. وكيف كان من الطبيعي أن يضع البشر أنفسهم في مركز الكون. وكيف كان من الطبيعي أن يتبعوا دليلًا من حواسهم، فيفترضوا أن الأرض ثابتة. وكيف كان من المناسب أن نحترم علوم الإغريق. لكن ضد كل هذه التيارات، انتصر القرن السابع عشر للعلم.

كانت رسالة الثورة العلمية أن الإغريق كانوا على خطأ. وأن هذه الهالة الكبيرة حول

الكلاسيكية قد كسرت. لقد فعلنا أكثر من مجرد حلم أن نتساوى معهم؛ لقد تجاوزنا الكلاسيكيين تفوقًا.



إلى أي مدى كان هؤلاء العلماء متمكنين من علمهم؟ ومن أين جاءهم هذا التمكن؟ لقد اكتشفوا أن البشر هامشيون، وأنهم ليسوا في مركز العالم. وهذه واحدة من المعضلات الغربية؛ نعم نحن أكفاء متمكنون، لكننا نستمر في اكتشاف أننا لا شيء. والأسوأ سيأتي في القرن التاسع عشر، عندما يتبنى «داروين» رأيًا بأننا نتشارك في الأصل مع القرود. وقد كان هذا حطًّا من قدر الإنسان ووضعه. نحن لسنا في مركز الكون، ولسنا مخلوقًا ذا خصوصية، لقد انحدرنا وفقًا لنظام الصدف من مملكة الحيوان.

عارضت الكنيسة، بجناحيها البروتستانتي والكاثوليكي، هذا العلم الجديد، بأن الشمس هي مركز الكون وأن الأرض تدور حولها. الرب خلق الأرض، هكذا قال الإنجيل، وبعد ذلك وضع الشمس والقمر والنجوم فوقها. في النهاية كان على الكنيسة

أن تفسح الطريق أمام هذه الآراء، وتعلن أن العلماء على حق ـ وقد فعلت ذلك مرة أخرى بعدما تحدت «داروين»، ولكن بعد زوال كبير لجانب من سلطاتها في المرتين.

لم يعتبر الجيل اللاحق على الثورة العلمية أن اكتشافاتها قد حطت من قدر الإنسان. على العكس، فقد رأى هذا الجيل أنه إذا كان بفضل العقل قد تمكنا من معرفة كيف يعمل نظامنا، وشرحناه بعلم الرياضيات، إذن فإنه يمكن استخدام العقل أيضًا للتحرك قدمًا؛ ونستفيد منه في تحمل أعباء الحياة، والارتقاء بها. هذه الرغبة في احترام سيادة العقل، هي التي شكلت عصر التنوير، كحركة فكرية في القرن الثامن عشر، والتي قصدت من احتكامها إلى العقل إعادة لتشكيل المجتمع، والحكومة، والأخلاق، وعلوم الدين.

بدأ عصر التنوير في فرنسا، وكان في أشد قوته هناك. رأى مفكرو التنوير أن العالم محكوم بالجهل والخرافة. وأن القوتين غير الراشدتين في المجتمع هما الكنيسة الكاثوليكية، والملك الذي كان يحكم حكمًا مطلقًا. إذا انتشر الاحتكام للعقل والتعليم، فإن الخرافة والجهل سينحسران، وسيتوقف الناس عن الاعتقاد في الخزعبلات والخرافات، كالمعجزات، أو أن الملوك تحكم بأمر الله. وعندما تتيح التعليم للناس، فإن التنوير سيتبعها. لكن قادة حركة التنوير لم يكونوا ديمقراطيين، فقد كان يُسعدهم أن يتولى حاكمٌ مستنير تنفيذَ مخططاتهم لوطن مَبني على العقل. بعض ملوك القرن الثامن عشر في أوروبا كانوا، كما قيل، طغاة مستنيرين. فقد تخلصوا من العقوبات الهمجية

والتعذيب، وشرعوا القوانين، وبدءوا يفعلون شيئًا لتعليم الناس.

كان العمل الأكبر لحركة التنوير الفرنسية، إعداد موسوعة. وكانت أول موسوعة حديثة، وكان لها تأثيرها، فلم تكن كما نرى موسوعات اليوم كمرجع رصين كتب من علماء في مجالاتهم. لقد كانت موسوعة راديكالية، لأنها احتكمت إلى العقل في كل شيء، ولم تعط للترتيب الهرمي اعتبارًا. فلم تبدأ كما كانت لتحب الكنيسة، باللاهوت والرب. أين تجد الرب في الموسوعة؟ تجده في باب حرف D لكلمة الرب (Dieu) أو حرف R لكلمة (Religion). هذا دليل يتبع ترتيبًا أبجديًّا للمعرفة، وهذا الترتيب الأبجدي، كان تحديًا للكنيسة، ودعواها بأنها تحوز الحقائق العليا. كل المعارف تم التعامل معها بذات المنهج، وخضعت لنفس المعيار. فبالنسبة للعبادة، ذهبت الموسوعة إلى «أن طريقة عبادة الرب لا يجب عليها الانحراف عن العقل، لأن الرب هو مبدع العقل».

ومع ذلك كان محررو الموسوعة حريصين على عدم الهجوم المباشر على الكنيسة أو الملك، حيث كانت الرقابة قوية في فرنسا القرن التاسع عشر، هذا بالرغم من تعاطف الرقباء، واقترح رقيب منهم أن يحتفظ بأصول الطبعة الثانية في منزله! ولعلنا ندرك كيف تعاملت الموسوعة بحرص بدخولها في موضوع صعب، عندما نطلع على ما كتب في سفينة نوح. بدأت بسؤال عن حجم السفينة. لقد كانت، حتمًا، كبيرة للغاية، حتى تحمل زوجين، ليس فقط من حيوانات أوروبا، ولكن من سائر العالم. وليس فقط الحيوانات، ولكنها حملت طعامًا يكفي ركاب السفينة على مدار رحلتهم الطويلة.

خروفان لن يكفيا، فيجب أن يكون هناك مئات من الأغنام لإطعام الأسود. هذه يجب أن تكون سفينة هائلة الحجم، بالرغم من أن الإنجيل يقول إن من صنعها أربعة. كم كان حجمهم وقوتهم! وبإظهار أن الموسوعة تحاول فقط أن تستفهم، تظهر أيضًا صعوبة حدوثها.

لم يكن رجال التنوير، بالضرورة، مخالفين للرب كخالق، أو موحد للكون. لقد اعترضوا على ما اعتبروه خرافة، وكيف استغلتها الكنيسة حتى تسيطر على عقول الناس. لقد كرهوا أن تقوم الكنيسة بتوجيه الناس أنهم سيحرقون إن لم يطيعوها. لقد كانت رسالة التنوير أن الدين خرافة. وبهذا بات على الدين، الذي كان يومًا ما مركزيًّا في الحضارة الأوروبية، أن يهمش. وسيأخذ العقل مكان الدين. إذا ما اتبعنا العقل والعلم، سيحدث التقدم. وهذا السهم، في الشكل التالي، سيأخذنا من الظلمة إلى النور.



كان التقدم فكرة جديدة، فلم يعتقد القدماء أن هناك تقدمًا. اعتقدوا أن هناك دورة للنمو والاضمحلال؛ وأن المؤسسات والمجتمعات تكون نشطة وصلبة في شبابها، وبعدها تفسد، وأن التاريخ يتحرك في دوائر. لم تؤمن الكنيسة بالتقدم، أو على الأقل التقدم الإنساني بمعزل عن الرب، لأنها اعتقدت أن البشر أشرار أصلًا. وإذا ما قاد العقل هؤلاء البشر، فلن يصل بهم إلى مجتمع كامل أبدًا.

جربت أفكار التنوير حظها لأول مرة مع الثورة الفرنسية، في نهايات القرن الثامن عشر. ولسوء حظ الآمال الكبرى في العقل، لم تأت الثورة بعهد جديد من التنوير. بعدما أزيح كل من الملك والكنيسة؛ أتت الثورة بحمامات دماء، واستبداد، ودكتاتورية. لكن قبل أن يحدث هذا، كان العنصر الأخير من هذا المزيج للحضارة الأوروبية قد

انتزع. وقد كان ذلك بالحركة الرومانسية التي ظهرت في آخر القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر.

أعلت الحركة الرومانسية من شأن الأحاسيس والمشاعر والعواطف. وفي هذا كانت على خلاف مع حركة التنوير، التي وضعت إيمانها كله في العقل. لقد كانت حركة شملت أوروبا، وإن قويت في ألمانيا، التي طبقت أكثرية أفكارها. لم يرغب أصحاب الحركة الرومانسية في أن يسيطر العقل على المشاعر والوجدان. ورأوا أن الكاتب أو الفنان ليس عليه تقليد الكلاسيكية بحرفية، ولكن عليه أن يكشف عن روحه، ويعبر عن مشاعره، وآلامه، ومعاناته، ويظهر ذلك في أعماله. الفن يجب أن يكون عاطفيًّا ومعبرًا لأقصى درجة.

هذه الأفكار الألمانية تطورت بمعارضة صريحة للأفكار الفرنسية للتنوير. ذهب الألمان إلى أنك لا يمكنك أن تتحدث عن الفرد والمجتمع بشكل مجرد، لأن الجنس البشري يختلف اعتمادًا على البلد الذي يعيش فيه. نحن نتشكل، وفقًا لرأي الرومانسيين، تبعًا للغتنا وتاريخنا؛ فيعيشان داخلنا. وعليه، فإن الألمان، بتاريخهم ولغتهم، سيختلفون دائمًا عن الفرنسيين. ولا يوجد شيء يمكن أن تطلق عليه العقل على وجه العموم، على النحو الذي يفكر فيه مثقفو الصالونات الفرنسية. ورغب الرومانسيون الألمان في معرفة ما كان عليه حال المحاربين الألمان قبل اختلاطهم بالحضارة، وبروما، وبالمسيحية. كانوا يسحبون الألمان بعيدًا عن هذا الخليط. لقد أحبوا

هؤلاء القادمين من الغابات، قوتهم وحيويتهم وفطرتهم. رفضوا اتباع مفكرين ضعاف الحجة. لقد وقروا الألمان الذين ارتبطوا بالتراب، وعرفوا ما يجب أن تكون عليه كألماني.

بدأ اهتمامنا المعاصر، واحترامنا للثقافة من هذه النقطة التي بدأ فيها رجال الحركة الرومانسية في جمع ثقافة الفلكلور. لقد كان الرد على الضجة حول العقل التي أحدثها مفكرون فرنسيون متكبرون، هو أن ترتدي الأحذية الثقيلة وتذهب للتجول. تذهب للألمان، وللفلاحين، وتدون قصصهم وأغانيهم: هناك ستجد التنوير الحقيقي. كانت رسالة الرومانسيين، أن الحضارة مصطنعة: وأنها تعوقنا وتفيدنا. وأنه في إطار الثقافة التقليدية، سنعيش الحياة.

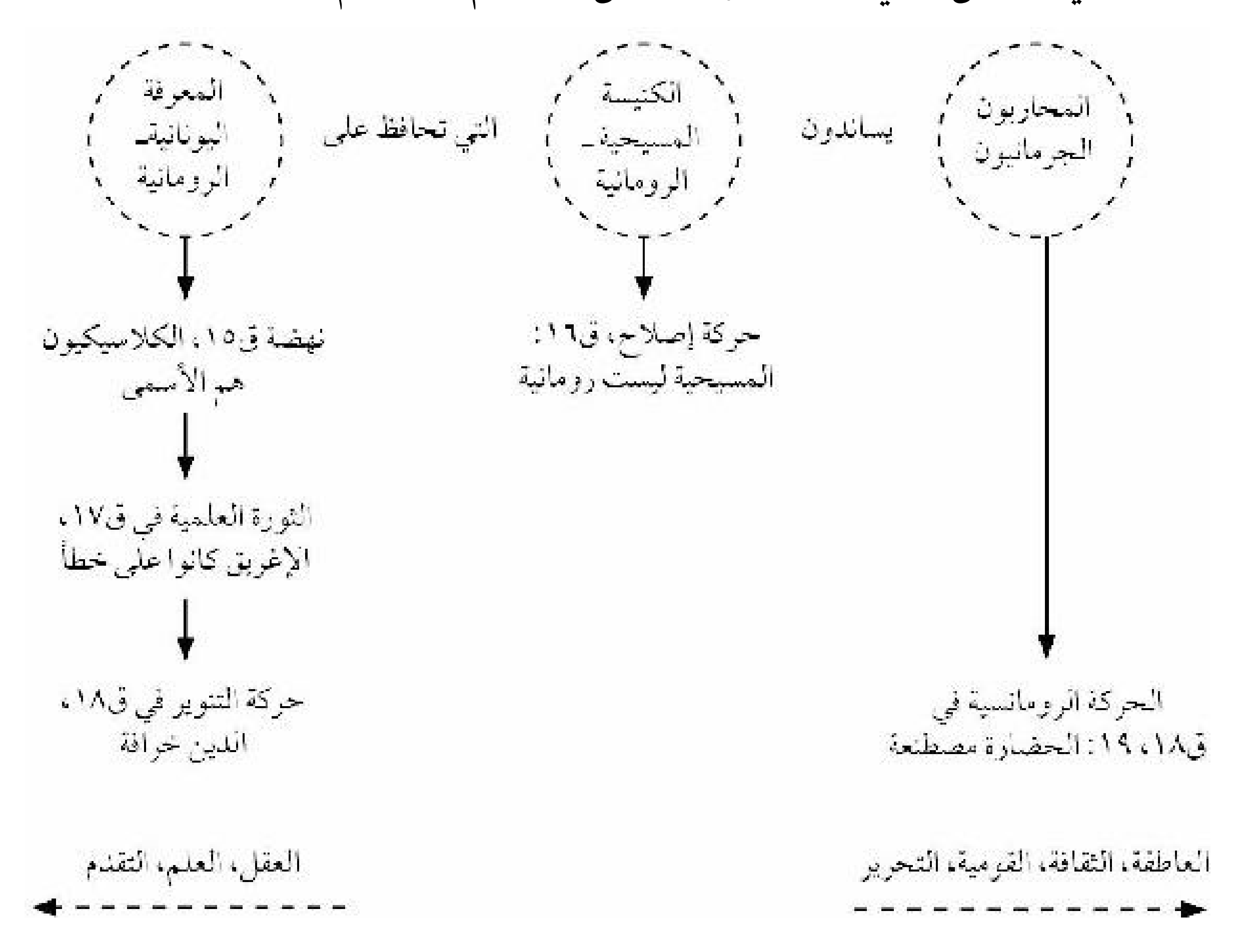
كانت هذه الرؤية قوية، منذ هذا التاريخ، في المجتمع الغربي.

تفجرت هذه الرؤية في الستينيات من القرن العشرين. ومن أشكال هذا التفجر، دعوتها من أجل الحرية: والدعوة بألا تكون هناك قواعد، أن نعيش في حياة بسيطة ومباشرة وواضحة، دعونا ننتج غذاءنا بأنفسنا، ونحيك ملابسنا، وأن نطلق شعورنا، وأن نعيش في تجمعات، وأن نكون صرحاء في مشاعرنا وتعاملاتنا. وأن نحاكي أناسًا أصلاء من عمال وفلاحين، أو من «همجيين نبلاء».

لقد قدم الرومانسيون أيديولوجية ـ الفكر المنظم ـ للحركة القومية، والتي ما زالت قوة كبيرة في عالمنا المعاصر. تذهب القومية إلى أن الناس المتميزين بثقافتهم ولغتهم، عليهم أن يعيشوا معًا وتكون لهم حكومتهم. ليس كافيًا أن تعمل التفكير بشكل مجرد

فيما يمكن أن يشكل حكومة جيدة؛ إذا لم تكن الحكومة من شعبك، فإنها ليست حكومة جيدة. على الصرب أن يعيشوا معًا وتكون لهم حكومتهم، وعلى الكرواتيين أن يعيشوا معًا وتكون لهم حكومتهم أيضًا. فدولة يعيش الصرب والكرواتيون فيها معًا، ستعني أنهم لن يستطيعوا التعبير عن أنفسهم. وميزة أن تكون صربيًّا لن تثمر شيئًا، إلا إذا حصلت على دولتك، وهذه هي أيديولوجية القومية.

لقد آمنت الحركة الرومانسية بالعاطفة، والثقافة، والقومية، والحرية، وتخلق اتجاهًا مضادًّا كما في الشكل التالي مخالفًا لحركة العقل، والعلم، والتقدم.



وبهذا يكتمل الشكل. يمكنك أن ترى ماذا حدث في السنوات التالية لعام ١٤٠٠.

هناك فراغ في المركز في المكان الذي كانت تشغله الكنيسة عندما كانت في مركز الحضارة في العصور الوسطى. قامت كل من حركة النهضة، والإصلاح الديني، والثورة العلمية، وحركة التنوير، والحركة الرومانسية، وبأشكال متباينة، بتخفيض سلطة الكنيسة.

مازال لدى الكنيسة الكاثوليكية بعض السلطة في يومنا هذا. إذا كنت من «الأشخاص المستنيرين»، فربما تفكر في أنه يجدر بك مهاجمة البابا. بالتأكيد، كل شخص مستنير يعتقد أن تحديد النسل أمر جيد، ولكن البابا يقول إنه ضد تعاليم الرب ولا يوجد اعتبار براجماتي يجعله أمرًا جيدًا. سيظل خطأ، حتى لو أن الكاثوليك في الغرب يتجاهلون تعاليم البابا في هذا الشأن. لكن على وجه العموم كانت هناك حركة كبيرة من العلمنة.

القوتان التوأمتان للعلم والتقدم في يد، والعاطفة والحرية في اليد الأخرى، ما زالتا في غاية القوة. وفي بعض الأحيان يدعمان بعضهما البعض، وفي بعض الأحوال يعارضان بعضهما. فكر في كيفية قيام هاتين القوتين في تقسيمنا. أولًا اقرأ ما أورده الإنجيل [سفر التكوين] عن خلق الجنس البشري:

> «وجعل الرب الإله آدم ترابًا من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفسًا حية. وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقًا؛ ووضع هناك آدم الذي جبله. وقال الرب الإله «ليس جيدًا أن يكون آدم وحده، فاصنع له معينًا نظيره». فأوقع الرب الإله سباتًا على آدم، فنام؛ فأخذ واحدة من أضلاعه، وملأ مكانها لحمًا. وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم، امرأة، وأحضرها إلى آدم. فقال آدم: «هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي: هذه تدعى امرأة، لأنها من امرئ أخذت». لذلك يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بامرأته؛ ويكونان جسدًا واحدًا».

ماذا تقول إذا اقترحت تجاهل علم الأحياء، وتطور الأنواع، وندرس ما سبق في المدارس؟ «لا، لا»، هذا ما ستقوله لأنك من «المستنيرين». هذا هو التعليم الذي نتحدث عنه، إذا ما أراد الآباء تعليم أولادهم مثل هذا، فعليهم أن يعلموهم هذا بأنفسهم. ماذا لو احتفظنا بعلم الأحياء وتطور الأنواع، وندرس ما ذكره الإنجيل أيضًا؟ «لا، لا»، لقد أظهر العلم أن الإنسان تطور من الحيوان، هذا فقط ما يمكن تدريسه، ولا يمكننا تحمل تدريس غير ذلك.

والآن لتقرأ قصة أخرى، من الأستراليين الأصليين:

> «في يوم من الأيام، كان هناك رجل عجوز، وله ابن أخ أحبه بشدة. وذهب ابن الأخ إلى بلدة بعيدة، وأحب فتاة. وهربا معًا، لكن كبار القبيلة تعقبوهما، لأن الفتاة كانت موعودة لشخص كبير السن في القبيلة. ووجدوا الشاب وقتلوه برمح. ولما علم العجوز بمقتل ابن أخيه، حزن بشدة، لأنه كان يحبه جدًا. ورغم كبر سنه، سافر العجوز، ليحضر جثة الشاب إلى موطنه. وكان الجثمان حملًا كبيرًا على العم كبير السن، والشاب قد اكتمل نضجًا. ولكنه تحمل، وحمل الجثمان، ودفنه كما يجب. يمكنك أن تتبع المسار الذي اتبعه الرجل العجوز. وأين توقف ليواري الجثمان التراب، وهناك سترى نبع ماء. وحيث وضع الجثمان على الأرض الصخرية، ستجد بحيرة صخرية تملؤها دموع العجوز».

يعيش أهل أستراليا الأصليون في عالم أسطوري. كل بقعة من أرضهم لها قصتها، التي تربط آباؤهم بحياتهم المعاصرة. هل ترى أن مثل هذه القصص يجب حفظها؟ ستجيب بـ«نعم». هل يجب تعليمها لأبناء الأستراليين الأصليين؟ «نعم، بالطبع». هل يجب تدريسها في المدارس؟ «نعم». وهي تدرس بالفعل.

وإذا أردت لعب دور رجل من رجال التنوير فلي أن أقول: «إذا أراد الأطفال تعلم مصادر الآبار والبحيرات، فعليهم تعلم الجيولوجيا».

وقد ترد بالقول: «ليست هذه هي النقطة».

إذا قلت كرجل من التنويريين: «إن أهل أستراليا الأصليين عاشوا في خوف من الظلام والشعوذة»، وأنت لا تستمع. أنت مسحور. هؤلاء كان لديهم حياة أكثر اكتمالًا وطبيعية. أنت مأخوذ بهذا الشعور الرومانسي.

يبدو عليك هذا التضارب. تريد العلم لأولادك ولكنك حاقد على هؤلاء الناس الذين بلا علم ولم يتعكر صفو عقائدهم التقليدية.

إنه مصيرنا الذي يتمزق، وينقسم، ويضل طريقه. حضارات أخرى لها منهج واحد، وليس لها هذا المزيج الثلاثي الغريب. لا يوجد عليهم أعباء هذا الشقاء، والتقلبات، والغموض التي اكتنفت حياتنا الأخلاقية والعلمية.

لقد قدمنا من أصول مختلطة بشدة، ولا يوجد مكان يمكن أن نطلق عليه سكنًا.

فاصل: هذا الشعور الكلاسيكي

اعتقد المفكرون والكُتاب في عصر النهضة أن الفن والأدب والمعرفة اليونانية والرومانية يمكن فقط التساوي معها، ولا يمكن التفوق عليها. ولهذا أطلقوا عليها وصفَ كلاسيكي، بمعنى الأفضل. تجادل الناس لقرنين كاملين حول إنجازات القدماء مقارنة بالمعاصرين. ولم ينته هذا الجدل إلا في القرن السابع عشر، عندما تم إثبات أن علم اليونان كان مخطئًا فيما يتعلق بالشمس والأرض والكواكب والنجوم. ومن هذا الوقت لم تعد هناك للكلاسيكيين قداسة، وعقدت آمال أكبر على ما يمكن للمعاصرين تحقيقه. لكن في بعض حقول العلم، كانت نقطة البداية هو ما كتبه اليونانيون والرومان. ومازال ممكنًا حتى وقتنا الحالي أن يأتينا هذا «الشعور الكلاسيكي» عندما نتأمل ما فعله هؤلاء العظماء.

ما زال الفلاسفة الثلاثة الكبار الآتون من أثينا ـ «سقراط» و«أفلاطون» و«أرسطو» ـ قوى عظمى في علم الفلسفة. وقد قيل إن كل الفلسفة الغربية مجرد هامش لما كتبه «أفلاطون». وارتبط الثلاثة بعلاقة وطيدة. فـ«أفلاطون» سجل كلمات «سقراط»، الذي أبدع الفلسفة كحوارات مع تلامذته. وكان «أرسطو» تلميذًا لـ«أفلاطون».

لم يدَّعِ «سقراط» أنه يعلم الحقيقة، بل يبني الطريقة التي توصل إليها، وهي أساسًا بأن تتساءل عن كل شيء، وألا تقبل شيئًا بمعناه الظاهر، ويفترض أن الرأي المعتاد ليس له أسس منطقية. فيسأل «سقراط»، مثلًا، بما يظهر أنه سؤال بسيط: من هو الإنسان الجيد؟ فيرد أحد تلامذته برد ما، فيسترسل «سقراط» مظهرًا ما في الإجابة من عوار. فيجيب التلميذ، أو آخر من التلامذة، بإجابة أخرى، ولكن بدقة أكبر. وتتوالى الأسئلة والإجابات بتوضيح أكبر. اعتقد «سقراط» أنه إذا كان عقلك صافيًا، ذكيًّا، يمكنك التوصل للحقيقة. لست مضطرًّا لتعقب الحقيقة، أو تقوم ببحث حولها. الحقيقة موجودة، وما عليك إلا تربية عقلك لتمسك بها.

وهذه الطريقة مازالت تحمل اسمه: الطريقة السقراطية. وهي الطريقة التي تتبع في دور العلم، حيث لا يطلب من المعلم أن يتلو المعلومة أو القانون، ولكن يساعد التلاميذ على التفكير بوضوح، ويشارك معهم في مناقشة مثمرة، على مثل هذا النحو:

المعلم: أماندا، ما هي الثورة؟

أماندا: إسقاط حكومة بالقوة.

المعلم: ماذا لو كانت دولة يحكمها ملك، فيقوم أخوه بقتله ليصبح ملكًا مكانه ـ هل هذه ثورة؟

أماندا: لا.

المعلم: إذن ليس كل حالات استخدام القوة، لتغيير الحكومات، ثورات.

أماندا: حسنًا، لا، ليس في كل الحالات.

المعلم: إذن ما هو المطلوب، بالإضافة لاستخدام القوة، لصنع الثورة؟

***

هناك فخ في هذه الطريقة. فالأذكياء يستطيعون التمييز، دون الكثير من المعرفة.

عاش «سقراط» و«أفلاطون» و«أرسطو» في أثينا، عندما كانت ديمقراطية، في القرنين الخامس والرابع قبل ميلاد المسيح. وكان ثلاثتهم من المنتقدين للديمقراطية، وسقط «سقراط» ضحية لأثينا الديمقراطية. فقد حوكم لإنكاره للآلهة، وإفساد أخلاق الشباب. وكان دفاعه أنه لم يكن مصرًّا على أن يتبعه أحد في آرائه. هو ببساطة قام بسؤال الناس حتى تكون لديهم أسبابهم فيما يعتقدون. ووجد ٥٠١ من المحلفين «سقراط» مذنبًا؛ وإن كان التصويت متقاربًا. وكان على المحلفين أن يقرروا أي عقوبة سيفرضون عليه. وقد طالب الادعاء بالموت لـ«سقراط». وعند هذه النقطة، كان على المتهم أن يكون معتذرًا، وأن يأتي بزوجته وأطفاله مطالبًا بالرحمة. لكن «سقراط» رفض أن يتنازل، وتساءل، ما هي العقوبة المناسبة لشخص شجعك أن تحسن من مستواك العقلي والأخلاقي؟ ربما معاشًا منتظمًا لمدى الحياة! ربما تعاقبونني بالنفي كجزاء، ولكن إذا ما طردت من مدينة، سأفعل نفس الشيء في مدينة أخرى. حيثما سأكون، قال «سقراط»، لن أستطيع العيش دون إلقاء الأسئلة «فالحياة التي لا تختبر، لا تستأهل العيش فيها». ربما تفرضون غرامة عليَّ، ولكن لديَّ القليل لأعرضه، فأنا لست رجلًا غنيًّا. انتفض

أتباع «سقراط»، وقد فقدوا الأمل في تغيير موقفه، فعرضوا دفع غرامة كبيرة، لكن المحلفين كالمتوقع آثروا إعدامه.

كانت عمليات الإعدام في أثينا سريعة، في المعتاد، لكن إعدام «سقراط» أُجل بسبب أعياد دينية. وكان يمكنه أن يهرب، وتمنت السلطات، بعض التمني، أن يفعل، ولكنه رفض هذا الخيار. لماذا التمادي في التمسك بالحياة، إذا لم أكن سأعيش للأبد؟ تساءل «سقراط». ليس الهدف أن تعيش، ولكن أن تعيش بشكل حسن. لقد عشت حياة طيبة تحت القوانين اليونانية، وأنا مستعد للقبول بجزائي. لقد استمر فيلسوفًا حتى النهاية. ولما نزعت الأغلال عنه، علق قائلًا: «ما أقرب الألم من السعادة».

كانت وسيلة إعدام «سقراط» أن يشرب سمًّا مستخرجًا من نبات الشوكران. وترجَّاه تلامذته أن يؤخر شرب السم، إذ كان عليه أن يشرب السم في نهاية اليوم، ولم تكن الشمس قد غربت بعد وراء التلال. وقال «سقراط» إنه سيشعر بالمهانة، أمام نفسه، إذا تمسك بالحياة، وأخذ السم بكل هدوء، وبلا أي علامة لعدم استساغته قائلًا إن هذا السم يقتل سريعًا.

لقد حكيت مقتل «سقراط» بشكل فيه تعاطف مع الفيلسوف، فهل من الممكن أن تحكي هذه القصة ليكون تعاطفك مع الادعاء؟ لقد كان ابن المدعي من المرتادين لمناقشات «سقراط»، ثم أصبح ساقطًا، معاقرًا للخمر. ألم يكن المدعي على حق عندما قال إن «سقراط» شخص خطر؟ إذا تم التساؤل عن كل شيء، فسيفقد الناس

وجهتهم، لا يمكن العيش بالعقل وحده، يجب أن تكون هناك تقاليد، وعادات، ودين حتى يوجه الناس، ويجعل المجتمع ممكنًا.

هذه حالة يصعب الجدل بشأنها. فالانحياز الآن في ثقافتنا هو لـ«سقراط». لكن الأمر لم يكن دائمًا على هذا النحو، لكن شرح «أفلاطون» لموت «سقراط»، صمد أمام السنين، ليجعل منه قديس التساؤلات.

ما زال «أفلاطون» هو نقطة البداية لسؤال رئيسي للفلسفة: هل خبرة أحاسيسنا، دليل جيد للحقيقة؟ اعتقد «أفلاطون» أن ما نراه ونجربه في حياتنا ما هو إلا ظل ممثل لما يوجد فعلًا بشكل كامل في حياة أخرى سامية وروحانية. توجد في هذه الحياة موائد عادية، ولكن في نطاق آخر، هناك موائد في أشكال كاملة. حتى الأفكار المجردة مثل العدل، والخير موجودة بشكل كامل في عالم آخر. وأن البشر قد جاءوا من هذا النطاق الآخر، و هم من خلال تمرين عقولهم وأرواحهم، عليهم أن يعيدوا اكتشافه. «أفلاطون» هو الفيلسوف الأعظم للمثالية، برفضه وجهة النظر المادية للعالم.

عرف «أفلاطون» أن الأشخاص ذوي الفهم العادي، سيرفضون تعاليمه: ولأمثالهم كانت لديه إجابة قوية إلى يومنا هذا. تخيل مجموعة من الأشخاص موثقين في الأغلال أمام كهف. لا يستطيعون رؤية ما خلفهم، ولكن يستطيعون رؤية ما في الكهف. من خلفهم الأعلى طريق، ومن خلفه نار. عندما يمر الناس والماشية والعربات بالطريق، يعكسون ظلالًا على حائط الكهف، حيث يحجبون الضوء الناجم عن النيران. لن يرى

هؤلاء الأشخاص إلا الظلال؛ سيعرفونهم، ويتناقشون بشأنهم، ويعملون أفكارهم حول ما يرون؛ وسيظنون أن هذه الظلال هي الحقيقة. وبعد ذلك خذ شخصًا من الكهف إلى الخارج، لن يرى في البداية بسبب الضوء، وبعد ذلك سيكون مشتتًا ومندهشًا بالألوان، وبأجسام لها ثلاثة أبعاد. ولكنه سيقول في النهاية: إننا لم نستطع أن نرى الحقيقة كاملة حيث كنا.

أما «أرسطو»، تلميذ «أفلاطون»، فقد كان المنظم الأكبر للمعرفة عن العالم الطبيعي، وعن الكون، وعن الأرض، وعن النطاقات السماوية. في القرن السابع عشر، ومع الثورة العلمية، كانت تعاليمه أن الأرض هي مركز الكون، قد أسقطت. على أي حال، فقواعد «أرسطو» عن صفاء التفكير قد صمدت. لقد أعطانا القياس المنطقي، المكون من ثلاثة أجزاء، تبدأ بفرضيتين، وتنتهي إلى نتيجة، على هذا المنوال:

لكل القطط أربع أرجل

مليجان قط

إذن: فمليجان لديه أربع أرجل

هل هذه نتيجة سليمة؟ للقياس المنطقي أن يكون نتيجته سليمة، يجب أن تكون الفرضيتان صحيحتين، والحجة سليمة. وفي هذه الحالة فإن الفرضيتين سليمتان: القطط لها أربع أرجل، ومليجان نفترض أنه قط، وإذا كان لكل قط أربع أرجل، فمليجان يجب أن تكون لديه أربع أرجل. الحجة التالية ليست سليمة عن مليجان:

لكل القطط أربع أرجل

مليجان لديه أربع أرجل

إذن: فمليجان قط

النتيجة خاطئة، حتى ولو كانت الفرضيتان سليمتين، لأنه لا يوجد رابط بين مليجان والقطط، فقد يكون كلبًا. من الممكن أن تكون الحجة سليمة، لكن النتيجة خاطئة، مثل هذه الحالة التي يكون فيها أحد الفرضين خطأ. على سبيل المثال:

كل القطط سوداء

مليجان قط

إذن: فمليجان أسود

هذه الحجة سليمة، ولكن النتيجة خاطئة، لأن الفرضية الأولى غير صحيحة. هناك قواعد لتعريف كل الطرق التي من الممكن للقياس المنطقي أن يتضمن عملية استنتاجية خاطئة، ولهذا نرى لماذا أوصانا اليونانيون بأن نفكر بعقلانية ورشادة.

الطب المعاصر يرجع في أصوله إلى اليونانيين، وتحديدًا لـ«هيبوكراتيس» [أبقراط]، الذي عاش في أثينا في العصر الذهبي في القرن الخامس قبل الميلاد. كتاباته صمدت عبر التاريخ، وإن كانت حتمًا أنها تجميع لأعمال كُتاب عدة، عملوا وفقًا لمنهجه ومبادئه. طبق «أبقراط» القياس العقلي المنطقي لفهم العلل، مفترضًا أن لها أسبابًا طبيعية، وفرق بينها وبين السحر وأعمال العرافين والكهان. وقد قام بدراسة مجالات تطور المرض،

والظروف المحيطة بالمريض. وفي محاولته لفهم أنماط حدوث المرض، كان «أبقراط» أول علماء الأوبئة. وقد وضع قواعد ملزمة للأطباء، ليكونوا ملتزمين بقواعد الأخلاق والسرية تجاه مرضاهم، وهذا العمل حدد مهنة الطب. وإلى وقت قريب، كان طلاب الطب يحلفون بقسم «أبقراط»، الذي كتبه وحمل اسمه من بعده. وهو بالمناسبة يفصح عن وضع الطب في زمنه:

> سأتبع نظامًا تكون فيه الفائدة لمرضاي، وفقًا لقدرتي وحكمي على الأمور، وبما لا يؤذيهم أو يضرهم. ولن أعطي عقارًا مميتًا لأي إنسان إذا سألني إياه، ولن أعطي اقتراحًا بهذا الشأن. وكذلك لن أعين امرأة على الإجهاض. ولأي منزل سأدخله، سأتوخى منفعة المريض، وسأمتنع عن أي أذى أو فساد، وخاصة أي إغراء من ذكر أو أنثى، عبدًا أو حرًّا. وأي شيء أراه أو أسمعه، يتعلق بحياة الناس، أثناء ممارسة مهنتي على المرضى، أو له علاقة له بهم، فلن أتحدث عنه، ولن أبوح به، وأعتبر ذلك جميعه أسرارًا مقدسة. وسوف أحفظ بطهارة وقداسة حياتي ومهنتي.

لكن «أبقراط» حمل الطب الغربي بخطأ جسيم، نابع من بحث اليونانيين المستمر عن التبسيط. فقد علم تلاميذه أن صحة الجسم تعتمد على التوازن السليم لعناصر أربعة: الدم، والبلغم، والعصارة الصفراء، والعصارة السوداء. وحتى القرن التاسع عشر، كان هذا هو المرجع لتطبيق استنزاف دم المريض، عندما يكون التشخيص بأن دماء كثيرة هي السبب وراء المرض. وبهذا الاعتبار كان ينظر لـ«أبقراط» ككلاسيكي لا يُعلى عليه لوقت طويل.

كان اليونانيون أكثر تفوقًا من الرومان في كل فروع المعرفة، باستثناء القانون. تطور القانون الروماني بأحكام القضاة، وتعليقات خبراء القانون، التي أصبحت جزءًا أصيلًا من القانون. ورغم أن الرومان كانوا أكثر واقعية من اليونانيين، إلا أن فكرهم القانوني

تأثر بالمثالية اليونانية. ومع تعرف الرومان على قوانين الشعوب التي غزوها، كانوا مهتمين بالقواسم المشتركة بينها. ما الذي اتفق عليه الناس جميعًا ليكون قانونًا؟ وطريقة التفكير هذه، قادت لمفهوم أن هناك قانونًا طبيعيًّا ـ القانون في شكله المكتمل ـ والذي يجب أن يستخدم لتنقيح قوانين أي مجتمع، والذي لا يجب أن ينحرف عنه أي مجتمع يتحرى العدالة.

أكثر الأعمال اكتمالًا للقانون الروماني، جمعت في القرن السادس، بأمر من الإمبراطور «جوستنيان»، والذي حكم الإمبراطورية الشرقية، والتي نجت من هجوم الجرمانيين. قانون «جوستنيان»، الذي أعيد اكتشافه في القرن الحادي عشر، كان عظيم الأثر في أوروبا، ولكن تأثيره كان أقل في إنجلترا لاستقرار قانونها العام، وإن تأثر به القانون الإنجليزي للعقود. هذان مثالان متعلقان بالعقود:

بالنظر إلى عقد الإيجار، مثلًا: إذا سرق حصان للإيجار، ما هي مسئولية المستأجر؟ إجابة: عليه أن يدفع ثمن الحصان إلى المالك، لأن عليه الحفاظ عليه. ولكن إذا سرق الحصان بالقوة، فإن المستأجر ليس مسئولًا. فليس عليه أن يعرض نفسه للخطر، ليحمي حصانًا يملكه غيره. ولكن إذا أبقى الحصان لفترة تجاوزت فترة الإيجار، فإنه مسئول عن الخسارة، حتى إذا أخذ الحصان عنوة.

انظر إلى حالة أخرى لصائغ يصنع خاتمًا. هل هذا عقد لبيع خاتم، أو عقد لأجرة عمل الصائغ؟ تطبق قواعد مختلفة لهذه العقود المختلفة. الإجابة تعتمد على من أتى

بالذهب. إذا كان العميل هو من أتى بالذهب، فإن العقد هو لأجرة الصائغ. وإذا أتى الصائغ بالذهب، فهو عقد بيع لخاتم.

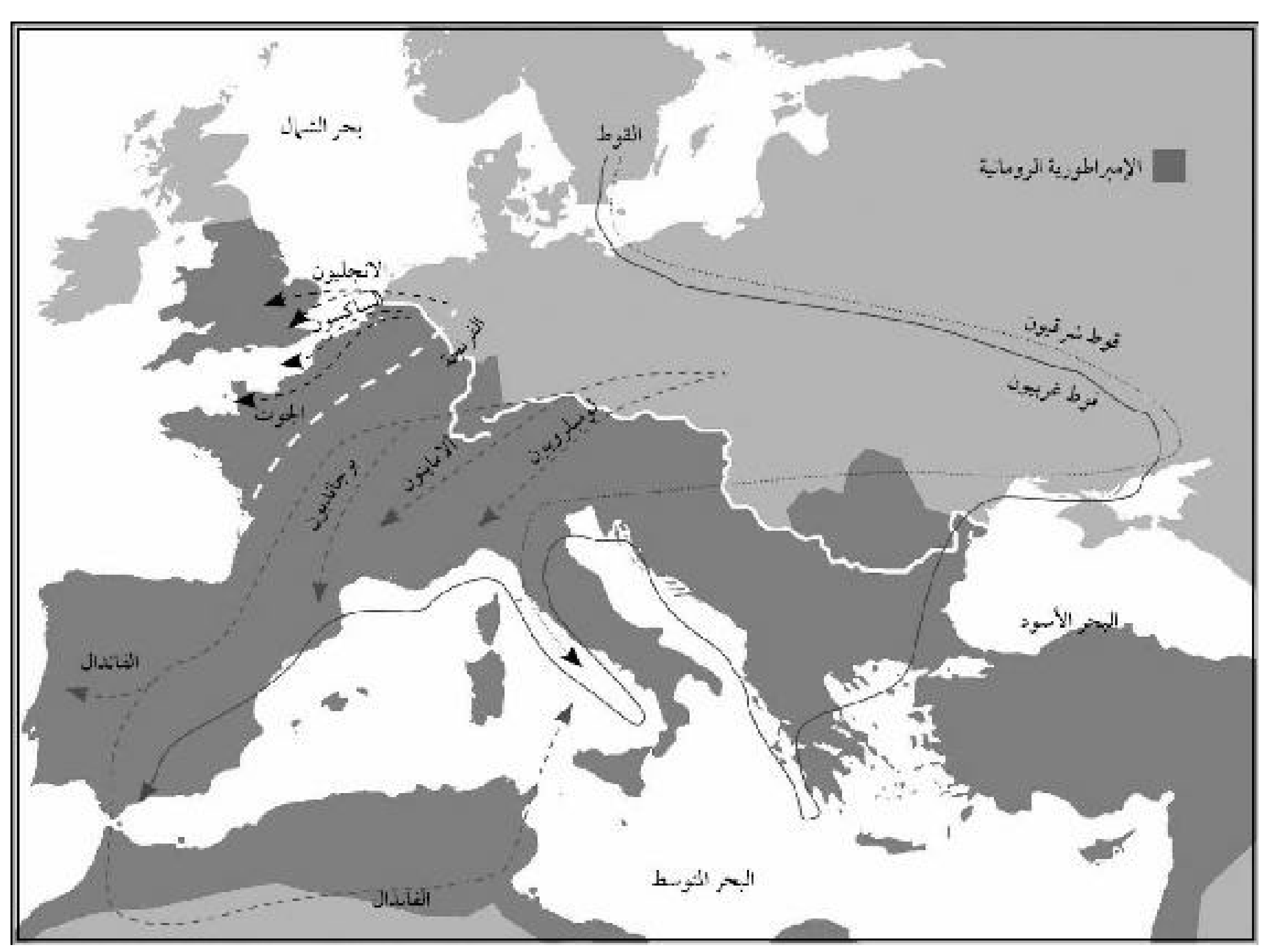
يمكنك أن ترى مدى شمول وتفصيلية القانون، وتحديد الضوابط التي تحدد هذه المبادئ في كل أنواع المعاملات. ربما تختار أن تفعل أشياء بشكل مختلف، ولكن عند ظهور أي مشكلة، نعلم أنه قد تم التفكير فيها. نرى أنفسنا صغارًا أمام هذا البنيان المعرفي الهام الذي تشكل من نتاج أعمال عقول كثيرة عبر القرون. هذا هو الشعور الكلاسيكي.

الفصل الثالث: غزوات وفتوحات

غزوة الجرمانيين للإمبراطورية الرومانية كانت واحدة من ثلاث غزوات كبرى. فبعد الجرمانيين جاء المسلمون، وبعدهم الفايكينج القادمون من الشمال. بعد سنوات من الاضطراب، استقر المجتمع الأوروبي، ثم بدأ بعد ذلك في التوسع ـ في حملات صليبية ـ إلى الأرض المقدسة، ثم لإزاحة المسلمين من إسبانيا، وبعدها عبروا البحار ليسيطروا على ثروات العالم.

الغزوات الجرمانية	القرن الثالث		
		٤٧٦	سقوط روما
الغزوات الجرمانية	القرن الخامس القرن السادس		
الغزوات الإسلامية	القرن السابع القرن الثامن		
	القرن التاسع	٨٠٠	«شارلمان»
غزوات الفايكينج			
	القرن العاشر		
بدء الهجوم على إسبانيا المسلمة	القرن الحادي عشر	١٠٦٦	هجوم النورمان على إنجلترا
الحملات الصليبية على الأراضي المقدسة	القرن الثاني عشر		
التوسع عبر البحر إلى الأمريكتين والمحيط الهندي	القرن الخامس عشر	١٤٥٣	سقوط القسطنطينية

عندما نتحدث عن سقوط الإمبراطورية الرومانية، نحدد لها تاريخ هو ٤٧٦ ميلادية. ولكن النصف الغربي للإمبراطورية هو الذي سقط في هذا الوقت، إذ سقط الجانب الشرقي للإمبراطورية، الذي يتحدث اليونانية، بعدها بحوالي ١٠٠٠ عام، بسقوط القسطنطينية كعاصمة له. كانت القسطنطينية مدينة يونانية اسمها بيزانطيون (أو بيزانطيوم باللاتينية)، والتي أعطت للإمبراطورية الشرقية اسمها المعروف بالإمبراطورية البيزنطية، وسنناقش سقوطها فيما بعد.



الغزاة الجرمانيون والإمبراطورية الرومانية

تعطي كلمة «السقوط» صورة مضللة لما حدث في الإمبراطورية الرومانية الغربية ـ

وكذلك التاريخ المحدد لهذا السقوط. لم يكن هناك حشد للهمج الشماليين على الحدود يتقدمون جنوبًا، والرومان يتراجعون أمامهم، ويتخندقون حول روما. لم يكن الأمر على هذا النحو أبدًا. لقد كان هذا بشكل غير معتاد للغزو، فيمكنك أن تتابع حركة القبائل الجرمانية على الخارطة.

لم تكن الحدود الشمالية أبدًا مانعًا حاميًا. وجدت دائمًا نقاطًا محددة ومتعارفًا عليها، يشرف عليها الجنود الرومان، وتنتقل من خلالها السلع والبضائع. في أحيان كانت روما تدفع هذه النقاط الحدودية فيما يتجاوز ما كان متعارفًا عليه، ففي القرن الأول عبرت القوات الرومانية نهر الراين، وتقدمت فيما يعرف اليوم بألمانيا. ولكن هذا لم يدم طويلًا، فبتدمير الجرمانيين لفيالق الرومان تجاوزوا الحواجز وعلموا أمورًا أكثر عن روما.

وفي القرن الثالث توالت الغزوات الجرمانية، بما دمر الإمبراطورية. كان هناك عصر للتوترات الكبرى في حكم روما، أتى عدد كبير من الأباطرة لروما بشكل سريع ثم اختفوا، ولم تكن هناك مقاومة تذكر للغزاة. صمدت الإمبراطورية، ولكن الجرمانيين استوطنوا مواقع متعددة. أتى الإمبراطور «كونستانتين»، الذي أعطى دعمًا رسميًّا للمسيحية في عام ٣١٣، بعد عصر من الفوضى، وحاول جهده لإعادة تنظيم وتدعيم الإمبراطورية.

جند الجيش الروماني جرمانيين ممن استقروا بحدود الإمبراطورية، فأصبحت المعارك التي وقعت في القرن الخامس الميلادي، يتحارب فيها جرمانيون على الجبهتين. ربما كان

نصف الجنود الرومان، أو أكثر، من الجرمانيين، وكان منهم جنرالات. ويبدو أنها إشارة ذات دلالة على ضعف الرومان، أن يأتوا بجرمانيين يحاربون لهم. وفي أوائل القرن العشرين، عندما كان الفكر العنصري قويًّا، كانت هناك إجابة واضحة عن السؤال بشأن سقوط روما؛ وهو أن الرومان وقعوا في خطأ عندما جعلوا مصيرهم لبشر أدنى منهم. وهذه الفكرة، بشكلها القبيح، غير مقبولة الآن، لكن أن تستعين أي إمبراطورية بقادمين جدد لحمايتها، فهي إمبراطورية في هيئة تعيسة.

لم تكن لدى الجرمانيين الرغبة لاحتلال الإمبراطورية، لم يكونوا غزاة بنية الاحتلال. كانت أهدافهم منحصرة في الحصول على حصة من السلب، والاستقرار على الأرض، والعيش بشكل جيد. كانوا راضين بالاعتراف بحكم الإمبراطور.

لم يرغب أباطرة الرومان، بالطبع، أن يجتاح الجرمانيون حدودهم، فأرسلوا الجنود لهزيمتهم وطردهم، ووفقوا في هذا أحيانًا. وفي المعتاد، استقر الجرمانيون في جيوب تتمتع بنوع ما من الاستقلال، وبعد ذلك صار القليل من الأرض تحت سيطرة الإمبراطور. اعتقد الجرمانيون، على أي حال، في ضرورة وجود إمبراطور. ولزمن طويل، دعم الجرمانيون رومانيا كإمبراطور. وفي نهاية الأمر دُعي أحد الجنرالات الجرمانيين لوضع نهاية لهذا الهزل. وبدلًا من تدعيم دمية، قرر الجنرال أن يحكم بنفسه. وهذا ما حدث في عام ٤٧٦. لم تكن معركة كبيرة نهائيًّا. سيطر «أوداسر»، أحد الزعماء الجرمانيين، على الوضع، ولكنه لم يسم نفسه إمبراطورًا بل ملكًا لإيطاليا. وأرسل التاج

والسفارات والرموز الإمبراطورية ـ كالتاج ورداء الإمبراطور ـ إلى القسطنطينية حيث كان هناك إمبراطور، واعترف بسيادته. وفُتن الجرمانيون بمجد فتح البلاد، وإن حدث هذا بغتة.

وبدلًا من وجود إمبراطورية في الغرب، أسست هناك سلسلة من الممالك الصغيرة، أنشأتها قبائل جرمانية مختلفة. وصعدت هذه الممالك، وسقطت سريعًا، فلم يكونوا قادرين على الإمساك بزمام الإدارة الرومانية، وتوقف جمع الضرائب. كانوا من الضحالة، ودون خبرة في إدارة أي شكل من أشكال الدولة المستقرة. بحثوا عن مساعدة، ووجدوا ضالتهم في طبقة مُلاك الأراضي والأساقفة. كان المزج بين القديم والجديد حادثًا عند القمة، ولكن إلى أي مدى وصل هذا إلى القاعدة؟

من الصعب التعرف بالتفاصيل على ما حدث، فهناك القليل مما كتب في هذه الفترة. كان الجرمانيون أميين؛ وكانت فترة من الاضطراب والفوضى، وبقيت بعض السجلات المحدودة. ولكن من الواضح أنه لم يكن اجتياحًا شاملًا للإمبراطورية، ولم يقم الجرمانيون بطرد الأهالي منها. كما لم يكن الأمر هجومًا من محاربين من الرجال، فقد جاء الجرمانيون بنسائهم وأطفالهم معهم، وانتووا الاستيطان. ففي بعض الأماكن كونوا مستوطنات كثيفة، وفي أماكن أخرى انتشروا دون كثافة. ولتحديد من استوطن في أي مكان، استعان المؤرخون بحجج أثرية. دفن الجرمانيون موتاهم بشكل مختلف عن الرومان، فإذا كانت كثرة من الموتى قد دفنوا على الطريقة الجرمانية، فإن المستوطنة

الجرمانية يفترض أن تكون أكثر كثافة. علماء اللغة يمكنهم أيضًا العون. فإذا كان اسم القرية قد تغير، في هذه الفترة، لشيء ما جرماني، فإنه من المفترض أن تكون المستوطنة كثيفة التواجد الجرماني. ولكن قد لا تكون الحجة قوية بما يكفي؛ فربما تطلب الأمر أن يأمر أحد أشاوس الحروب من الجرمانيين، بتغيير الاسم فيتغير. ولكن إذا تغيرت أسماء الحقول، فإن هذا دليل أكبر. فقد كان الجرمانيون هم الذين يقومون بالعمل في هذا الجانب من العالم.

طبق القانون الروماني والقانون الجرماني معًا لفترة جنبًا إلى جنب. فأنت تحاكم وفقًا لأصلك ومنبتك. احتوى القانون الروماني مبادئ واضحة للعدالة، طبقها القضاة في حالات محدودة. والقضاة الأقدم هم صناع القانون، من خلال أحكامهم، وجمعت هذه الأحكام في قوانين. وكان أهمها ما جمع في عهد الإمبراطور الشرقي «جوستينيان»، في القرن السادس الميلادي. أما القانون الألماني، من ناحية أخرى، فقد كان شكلًا منظمًا للقصاص تحت ولاية القضاء. فمن وقع عليه الضرر وأهله يطالبون بتعويض ممن أوقع الضرر بهم ومن أهله. حتى في حالات القتل، فإن الأمر يتم تسويته بتعويض لأهل القتيل ـ وحجم التعويض يعتمد على منزلة الضحية، فالأرستقراطي يعادل ثلاثة أمثال الشخص العادي.

استند الرومان في أحكامهم بالإدانة أو البراءة، بفحص الأدلة، وشهادة الشهود؛ أما الجرمانيون فكانت محاكماتهم يستخدم فيها التعذيب بالنار، أو الماء، أو من خلال

معارك. على سبيل المثال، توضع ذراع المشتبه فيه في ماء مغلي، فإذا لم تلتئم الذراع بعد ثلاثة أيام، فإن المشتبه فيه مذنب. أو يُلقى بالمشتبه بهم في الماء، فإذا طافوا فهم مذنبون، وإذا غرقوا فيها فهم أبرياء. وإذا ما كان هناك خلاف بين اثنين على قطعة أرض، فإن خلافهما يحسم بمعركة بينهما، والفائز هو صاحب الحق.

وتدريجيًّا اندمج النظامان في واحد، ورجحت كفة القانون الروماني أكثر في إيطاليا وجنوب فرنسا، وكانت للقانون الجرماني الغلبة في شمال فرنسا. وفي كل مكان، كانت المحاكمة بإجراءات التعذيب تتم بحضور قساوسة، لضمان أن الرب سيُظهر الحق. وفي هذا الشأن فقد ذهبت الكنيسة الرومانية مذهب الجرمانيين حتى القرن الثاني عشر، وهو الزمن الذي تأثرت الكنيسة فيه بإعادة اكتشاف قانون الإمبراطور «جوستينيان»، وأمر القساوسة بألا يشاركوا في عمليات التعذيب التي تُجرى أثناء المحاكمات.

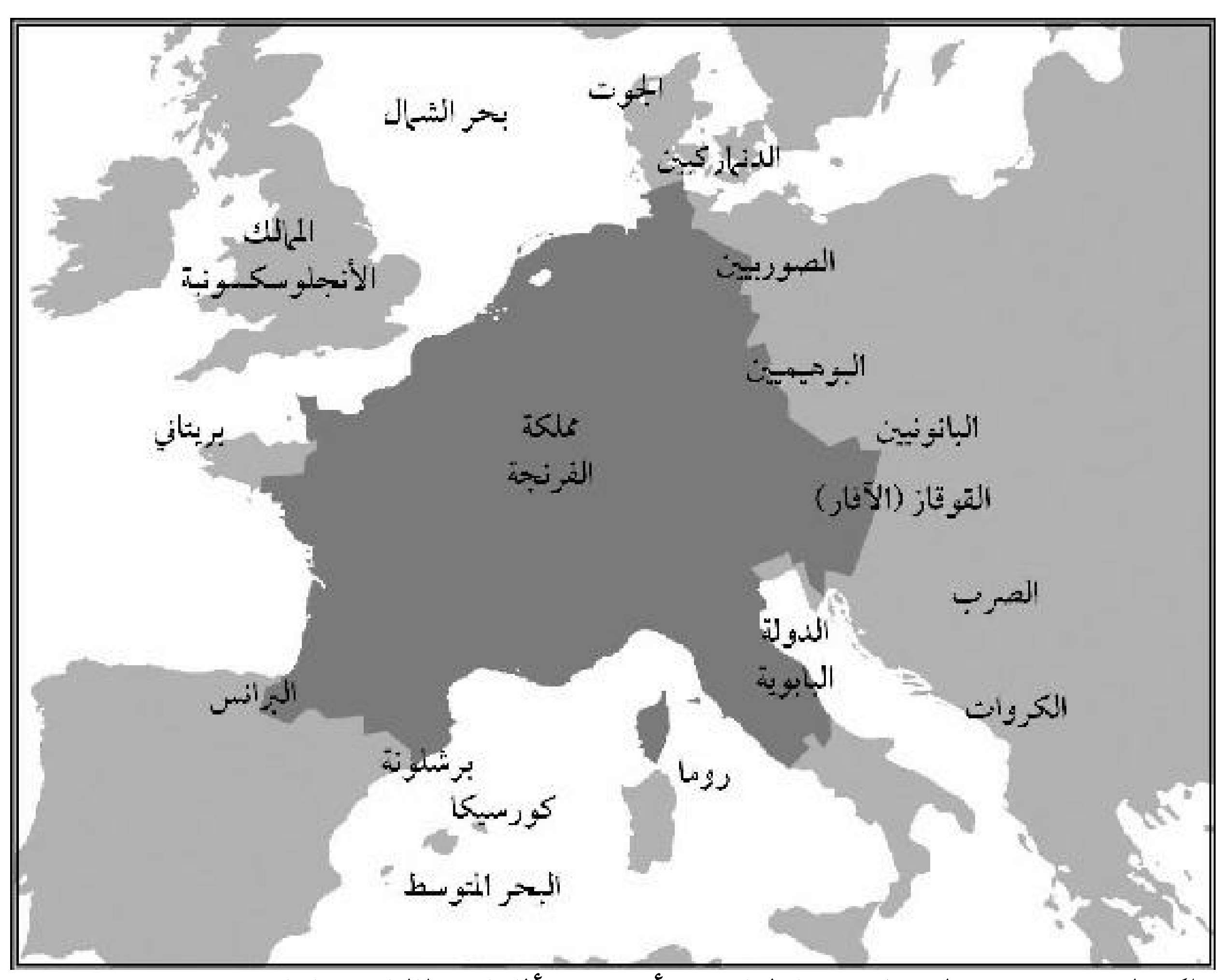
وبعد الغزو أمسى الجرمانيون مسيحيين وتركوا آلهتهم، وفي حالات أخرى تخلوا عن آريتهم، وهي طريقة من طرق المسيحية تغلب عليها الهرطقة كان قد اعتنقها بعض الجرمانيين قبل الغزو. فقد اعتقد الآريون أنه بما أن عيسى [عليه السلام] هو ابن الرب، فهو شخص أقل شأنًا، وليس على قدر المساواة مع الرب. ولفترة طويلة كانت هذه الهرطقة سائدة في الشرق، ونقلت إلى الجرمانيين من خلال المبشرين الذين نصروهم.

وبهذا، فإن مقولة «سقوط روما» مضللة، وهي أكثر تضليلًا فيما يتعلق بموضوع الدين: فقد صمد الدين الرسمي للإمبراطورية وكنيستها، وتم احتضانهما من قبل

الغزاة. وهذه هي نقطة التأسيس للحضارة الأوروبية. ولدينا بالفعل معادلتها المجسدة لها: المحاربون الجرمانيون يساندون الكنيسة الرومانية التي حافظت على المعرفة اليونانية والرومانية.

* * *

أفلحت قبيلة جرمانية وحيدة في أن تقيم في الغرب دولة استمرت لمدة طويلة، وهي مملكة الفرانكس أو الفرنجة، وقد نمت هذه الدولة، كما سترى في الخريطة، لتشمل فرنسا الحديثة، وأجزاء من ألمانيا المعاصرة، وكذلك من إسبانيا وإيطاليا.اسم فرنسا مشتق من الفرنجة، وهكذا فهي جرمانية الأصل. ووصلت مملكة الفرنجة لأعظم اتساعها تحت حكم «تشارلز الأكبر» أو «شارلمان»، وبعد موته تفتتت المملكة. وفرنسا المعاصرة ليست سليلة مباشرة لمملكة الفرنجة، فرنسا، كما نعرفها اليوم، تشكلت ببطء على عهود ملوكها المتأخرين.



مملكة الفرنجة اتسعت لتشمل فرنسا المعاصرة وأجزاء من ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا

أما الغزو الجرماني لبريطانيا فقد اتخذ شكلًا آخر. فمعظم أرض إنجلترا المعاصرة كانت تحت ولاية الإمبراطورية الرومانية، ولم تكن إسكتلندا جزءًا منها. دخل الرومان بريطانيا متأخرين ـ في القرن الأول الميلادي، ورحلوا منها مبكرين. فقد تركوها في عام ٤ لأن الإمبراطور أراد أن تستقر القوات الرومانية في إنجلترا، وأن تدافع عن روما ضد غزوات الجرمانيين. وعندما رحل الرومان، كان المجتمع الأصلي للبريطانيين ما زال متماسكًا، ولم تطمسه ٣٠٠ سنة من الاستعمار الروماني. فصمدت اللغة الكيلتية. وبعد

ذلك، في القرن الخامس والسادس، عبر القناة الإنجليزية حشود من الجرمانيين ـ الإنجلز، والساكسون، والقوط ـ فغزوا إنجلترا. هذا لم يكن مجرد غزو، بل احتلال كامل. فقد سحق البريطانيون، ولم تصمد لهم مجتمعات إلا في إسكتلندا، وويلز، وكورنوول.

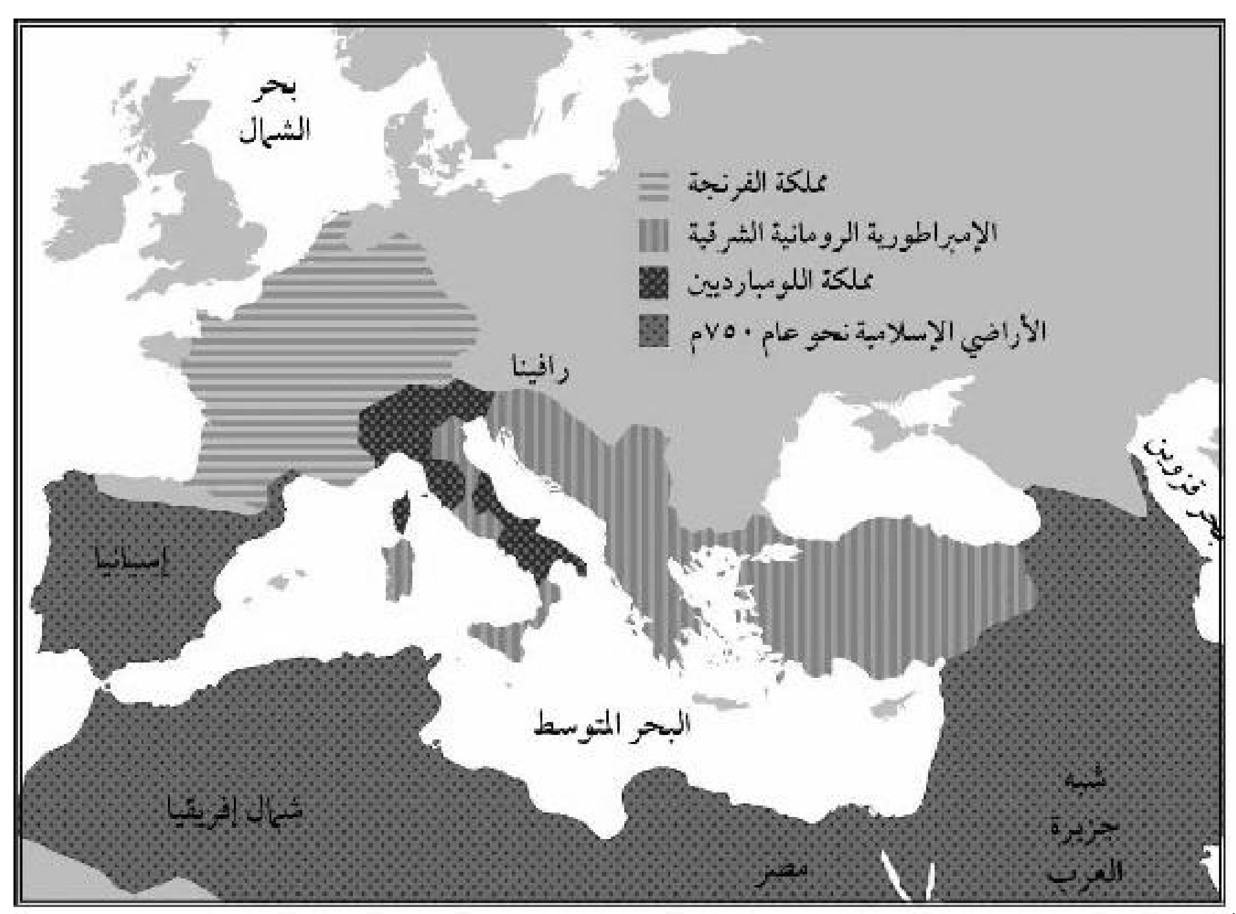
أسست إنجلترا مجتمعًا جرمانيًّا وبها عدد من الممالك الصغيرة ووثنيين. فلم يكن الإنجلز أو الساكسون أو القوط مسيحيين وفقًا لأي ملة. بعد ذلك تحركت البعثات التبشيرية من أيرلندا أو روما لإدخال القادمين الجدد إلى المسيحية. ولعل دور أيرلندا في تنصير إنجلترا واحدة من القصص المدهشة لصمود المسيحية. فقد بدأت المسيحية في أقصى الشرق من الإمبراطورية الرومانية، ومنها تحركت منتشرة في الإمبراطورية؛ بعد ذلك تخطت حدود الإمبراطورية لتصل أيرلندا. وفيها أصبحت مسيحية ذات نوع خاص؛ لأنها عاشت في مجتمع ليس رومانيًّا. وعندما تم غزو الإمبراطورية غربًا، كان الأيرلنديون في مأمن، وقاموا بإرسال البعثات التبشيرية لإنجلترا فنصرتها وأرسلوا أيضًا البعثات التبشيرية إلى أوروبا. لقد حط الإنجليز من قدر الأيرلنديين، وإن اعتبر الأيرلنديون أنفسهم حماة المسيحية.

وكان الغزو الأكبر التالي للإمبراطورية، إسلاميًّا. وحدث هذا في القرنين السابع والثامن، القرنين التاليين مباشرة للغزوات الجرمانية. مؤسس الدين الإسلامي هو محمد [ﷺ]، تاجر من الجزيرة العربية، تلقى الوحي من الله. والدين الذي استحدثه،

بفضل وحي إلهي، فرع من نبتة اليهودية والمسيحية. فالإسلام يقبل عيسى [عليه السلام] وأنبياء اليهود من قبله، كأنبياء حقًّا، ولكن يذهب إلى أن محمدًا [ﷺ] هو آخر الأنبياء، والطريق الحق إلى الله، الإله الواحد. والإسلام دين أبسط من المسيحية؛ إذ يفتقد تلك الإبداعات الإغريقية التي منحت المسيحية إلها من ثلاثة ـ الآب والابن والروح القدس ـ منفصلين لكنهم متساوون ـ منفصلين ولكنهم واحد. في الإسلام، الإله واحد وهو الله. كان المسلمون متسامحين للغاية مع المسيحيين واليهود. لكن المسيحيين، من ناحيتهم، اعتبروا المسلمين مخادعين، هدامين لعقيدتهم.

فاز محمد [ﷺ] بالجزيرة العربية لعقيدته، بغزوه للقبائل الوثنية وإخضاعهم للدين. وفي أثناء حياته كان شخصية أكثر تأثيرًا من المسيح. فقد أسس الدين وأقره في إقليم واسع، في حين أنه عندما مات المسيح، لم يكن هناك شيء يذكر من المسيحية. وبعد وفاة محمد [ﷺ]، استمر أتباعه في القيام بغزوات، وبقدر كبير من النجاح فيها. ففي فترة وجيزة من الزمن، لم يهزموا قبائل فقط، ولكنهم غزوا دولًا مستقرة: إمبراطورية الفرس، وجانبًا كبيرًا من الإمبراطورية الرومانية الشرقية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. واستكملوا فتوحاتهم غربًا عبر شمال إفريقيا، وانطلقوا غازين دولًا أسسها الجرمانيون، وبعدها عبروا إلى إسبانيا. وقد كانت إسبانيا إقليمًا رومانيًّا، ثم غزاها القوطيون الغربيون الذين تحولوا للمسيحية، وبعد غزو العرب أصبحت إسلامية. وهنا توقفت الفتوحات. فقد توغل جيش المسلمين في فرنسا، ولكن هزم في «تور» من

قِبل جيش «شارل مارتل»، قائد الفرنجة وجد الملك «شارلمان». وبهذا حفظ الفرنجة أوروبا مسيحية.



تقدَّم المسلمون، من الإمبراطورية الرومانية الشرقية فلم يصمد غير البلقان وما يعرف بتركيا الآن. الإمبراطورية الشرقية كانت مستحوذة على أقاليم في إيطاليا والتي كانت جزءًا من الإمبراطورية الغربية. إيطاليا غزاها الجرمانيون، لكن الإمبراطور في القسطنطينية اعتقد أن عليه التزامًا لإعادة هذه الأراضي واستطاع أن يستعيد مساحات صغيرة بتكلفة باهظة. فقد كانت هناك فوضى أكبر وسفك دماء في محاولات إعادة الاحتلال أكثر من الغزوات الجرمانية. رافنا، في شمال إيطاليا، كانت واحدة من هذه الجيوب، وهو ما يفسر لماذا تحوي هذه المدينة آثار موزاييك بيزنطية جميلة.

كان المسلمون غزاة عتاة للمسيحيين، لكنهم كانوا حكامًا متسامحين. فقد سمحوا للمسيحيين بممارسة شعائرهم، لكن باعتبارهم غير مسلمين كان عليهم دفع ضريبة

[الجزية]؛ في حين لم يدفع المسلمون ضرائب. وكان ذلك حافزًا للتحول إلى الإسلام. رحب مسيحيو الإمبراطورية الرومانية الشرقية بعض الترحيب بالمسلمين، لانزعاجهم من الصبغة المسيحية التي كانت تفرضها القسطنطينية عليهم. وبخضوعهم للمسلمين كانت لهم حرية ممارسة ما يرغبون، لكن ماتت المسيحية بالتدرج في هذه الأرض. وبعدما تحول الكثيرون إلى الإسلام، تغير النظام الضريبي، وبدأ الناس يدفعون الضرائب المستحقة على الأرض بالشكل المعتاد لذلك.

أما إسبانيا فأصبحت تحت حكم المسلمين في العصور الوسطى أكثر الأماكن تحضرًا في أوروبا. ففي رحلاتهم للغزو، تعلم العرب القبليون الأميون ممن غزوهم: من الفرس ذوي الحضارة عميقة الجذور، ومن اليونانيين في الإمبراطورية البيزنطية. وحمل العرب المعارف اليونانية معهم إلى إسبانيا موثقة، وبتعليقات عليها، وسمحوا لطلبة العلم من شمال أوروبا للقدوم إليهم، ونسخ ما لديهم. وكان اليهود، الذين كانوا في مناصب عليا في إسبانيا المسلمة، هم المترجمين. يقرأ شخص الوثيقة المكتوبة باللغة العربية (التي ترجم إليها النص اليوناني)، فيترجم الوثيقة شفاهة باللغة الإسبانية، ويستمع لها شخص ثان بالإسبانية، فيكتب النص باللاتينية. وفي نسختها الجديدة اللاتينية، حملت المعارف اليونانية للجامعات المسيحية للدراسة، بعدما مرت بثلاث ترجمات. وبدأت هذه الجامعات في العمل اعتبارًا من القرن الثاني عشر. وبهذا اطلعت أوروبا الغربية على أعمال «أرسطو» في المنطق وأعمال الإغريق الذين برعوا فيها من

علوم الطب والفلك والرياضيات.

وإذا حاولنا تلخيص نتائج الغزوات الثلاث نجد أولًا، في غرب أوروبا انصهارًا بين الجرمانيين والرومان القدامى والمسيحيين. ونجد ثانيًا، في إنجلترا استحواذًا كاملًا عليها من قِبل الجرمانيين وبعد ذلك إعادة التحول إلى المسيحية. ثم ثالثًا، نجد اضمحلالًا للمسيحية في العالم الإسلامي في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا وإسبانيا، لكن المعارف اليونانية تم الحفاظ عليها ونقلت إلى أوروبا المسيحية.

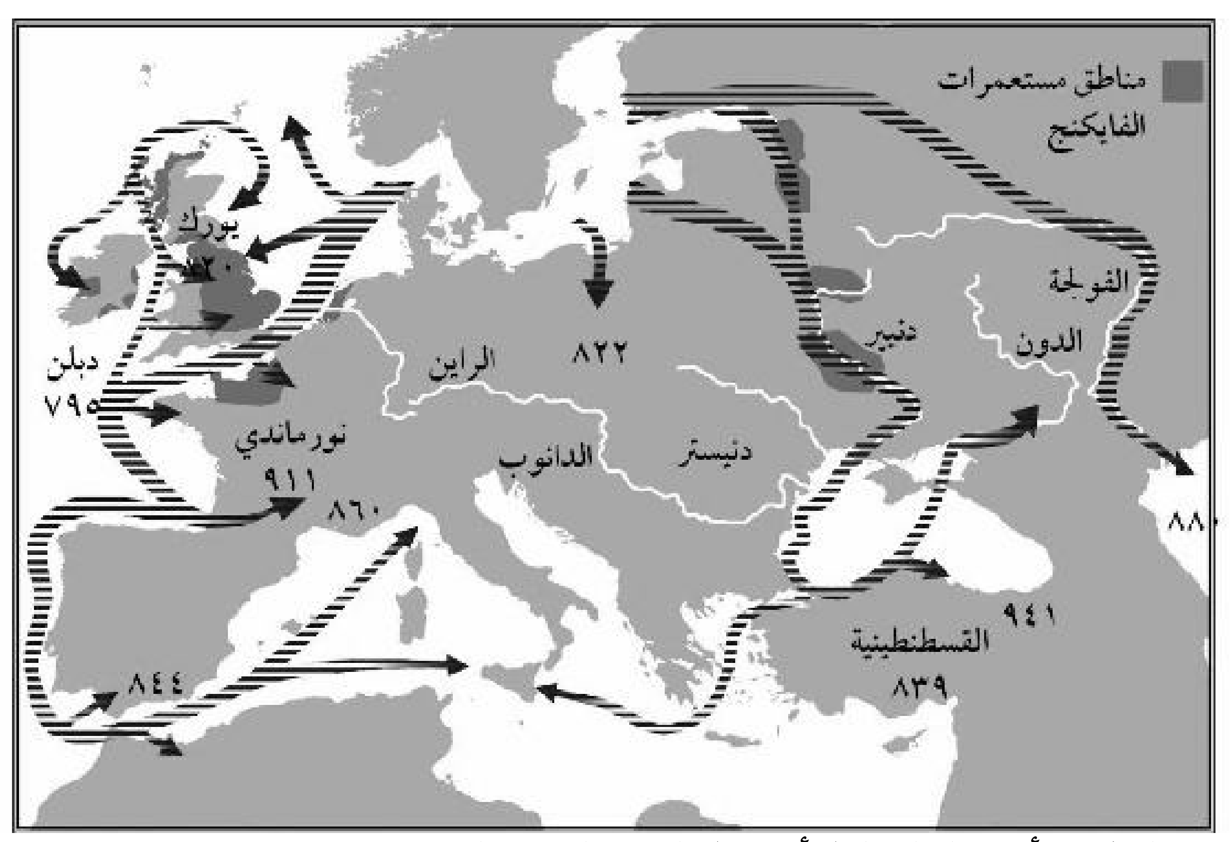
❋❋❋

كان الفايكينج أو رجال الشمال آخر الغزاة. أغاروا على أوروبا في القرن التاسع والقرن العاشر، أي القرنين التاليين مباشرة لتقدم المسلمين نحو أوروبا. كانت منازلهم في الشمال ـ حيث السويد والنرويج والدنمارك ـ وأتوا بحرًا. وكانت سفنهم طويلة الحجم مفزعة المظهر ـ وهي سفن بغاطس محدود العمق ـ كانت تحتاج لماء بعمق متر واحد فقط تحتها لتنطلق في البحار ثم الأنهار. وإذا انحسر الماء في الأنهار، فإنهم يتحولون إلى قوارب أصغر، كانوا يحملونها معهم، ويستمرون في التحرك. وإذا قابلهم عائق، حملوا قواربهم عبر العوائق ثم استمروا في التقدم. وتوغل الفايكينج بعمق في الأراضي، وفي روسيا تحركوا من حدود البلقان إلى البحر الأسود.



أحد مراكب الفايكينج: عمق غاطسها الخفيف سمح لهم باقتحام أراضي أعدائهم من خلال الأنهار

كانت مراكب الفايكينج الأكبر حجمًا تبحر في المحيط في فصول الصيف. في البداية كانوا يأتون صيفًا ويعودون أدراجهم. وكان غرضهم الاستيلاء على الغالي والنفيس يحملونه معهم إلى ديارهم. ولكن في مهمة بحثهم عما يستولون عليه، اغتصبوا أموالًا وأشياء تعينهم على الحياة، فسلبوا الأغذية، والخيل، وسبوا النساء، وفعلوا ذلك بأكثر مما يحتاجون إليه. كانوا إرهابيين ذوي إصرار. لم يكونوا فقط يغيرون وينهبون، ولكن يستولون على الممتلكات بلا حدود، ويحرقون ويخربون ما لا يستطيعون حمله. كان هدفهم خلق حالة من الذعر. فهرب الناس من بيوتهم قبل اقتحام قراهم، إذ كانوا عديمي الرحمة. وفي واحدة من رواياتهم كان هناك محارب منهم لقبوه برجل الأطفال، لأنه رفض أن يقتلهم بسن رمحه.



توغل الفايكينج أو رجال الشمال في أوروبا في القرنين التاسع والعاشر

أتى الجرمانيون عبر البر. كانت أكثر الأماكن أمنًا للمتوغلين جزر الأنهار أو البحار. بنيت الأديرة في هذه الأماكن، ولكنها باتت عرضة للنهب والسلب من قِبل غزاة البحر. وهذه الأديرة كانت مغرية للغاية لما احتوته من نفائس صنعت من الذهب والفضة وما كان فيها من طعام مخزن، إذ كان هناك نشاط تجاري يأخذ في النمو لإطعام رهبان تتراوح أعدادهم بين المائة أو المائتين. وفي مصب نهر اللوار في فرنسا، كان هناك دير في جزيرة.

وفي كل صيف كان الرهبان يهربون إلى عمق البحر إلى أعالي الأنهار، ولكن لاحقهم الفايكينج في مراكبهم الطويلة. تحرك هذا الدير أربع أو خمس مرات عبر نهر اللوار،

حتى استقر في بنائه الأخير عند سويسرا الآن، وحمل إليه الرهبان صلبانهم الذهبية، وما حازوه من قطعة من الصليب الأصلي، وجزء من رجل المسيح.

تقدم الفايكينج لأمدية بعيدة دون مقاومة، لضعف الحكومات التي لم يكن لها نظام معتمد للضرائب، وقد حاولت هذه الحكومات تجميع جيوش للمقاومة، لم يأتِ الغزاة برًّا. لم يكن لأي من هذه الممالك الصغيرة أسطول. لم يكن للملك «شارلمان» أسطول، وكانت إمبراطوريته قد زالت على أي حال. كان للإمبراطورية الرومانية أساطيل سيطرت بها على البحر المتوسط ـ ولكن في هذا الوقت كان الجانب الأكبر من هذا البحر في أيدي المسلمين. وبين الدول الأوروبية كانت قلة من تجارتهم تتداول بحرًا، وفقدت أوروبا فن الإبحار؛ توجهت أوروبا نحو الداخل، وبهذا كانت معرضة بانكشاف لهذه القوات سريعة الحركة عبر المياه.

وبعد حين أتى رجال الشمال من الفايكينج بزوجاتهم وأبنائهم واستقروا بشكل نهائي. وتظهر الخارطة مستوطناتهم في روسيا وشمال فرنسا وإنجلترا وأيرلندا. كانت «دبلن» في الأساس تتبعهم. وأخذت إنجلترا جرعة مكثفة من الغزوات. في البداية الإنجلز والساكسون والقوط، وبعدهم الفايكينج في الجانب الشرقي. وتحدثت المجموعتان لغات جرمانية، ومنها اشتقت اللغة الإنجليزية. والمستوطنة الواقعة في شمال فرنسا أخذت اسمها «نورماندي» من شاغليها من الشماليين. فسمح لهم ملك فرنسا بالاستقرار شريطة أن يتوقفوا عن غاراتهم.

وبعد مائة عام من استيطان النورمان في شمال فرنسا، قام الدوق النورماني «ويليام»، ومعه عدد من أتباعه، بغزو إنجلترا في عام ١٠٦٦. كان هذا سيطرة من أعلى، فقد نصب الدوق «ويليام» نفسه هو وأتباعه كطبقة حاكمة جديدة في إنجلترا. تحدث النورمان بصيغتهم التي تعارفوا عليها من اللغة الفرنسية، والتي شكلت جانبًا من هذا الخليط الذي كون اللغة الإنجليزية. كانت إنجلترا مجتمعًا من الغزاة، ولكن بعد عام ١٠٦٦ لم تغز إنجلترا أبدًا.

توقف التوغل في أوروبا بعد القرن العاشر. اقتنع رجال الشمال بالاستقرار، وتوجهت البعثات التبشيرية إلى النرويج والسويد، وحولوا أهلها إلى المسيحية. انتعشت التجارة، وتوسعت المدن. استقرت المجتمعات الأوروبية، وأصبحت من القوة بمكان أن بدأت في إرسال حملاتها.

وأول مهمة لهذا المجتمع المسيحي هي طرد المسلمين. فكانت الحملات الأوروبية لإعادة إسبانيا، والاستحواذ على الأرض المقدسة في فلسطين. بدأت حملة استعادة إسبانيا في القرن الحادي عشر، واستغرقت أكثر من أربعمائة عام لتكتمل. كانت الحملة على مراحل من الشمال، وأخذ المسيحيون في السيطرة على أقاليم تتسع لتعيد تأسيس المجتمع المسيحي، ثم دفعت الجيوش جنوبًا حتى أخرج آخر المسلمين من جنوب إسبانيا في العام ١٤٩٢؛ نفس العام الذي قام فيه كولومبس، برعاية من ملوك إسبانيا، في الإبحار غربًا.

أما الحملات الصليبية على الأراضي المقدسة فقد بدأت في عام ١٠٩٥ واستمرت لقرنين. تخيل ماذا كان يعني للمسيحيين أن يعرفوا أن الأرض التي مات عليها المسيح، والبلد التي أرسى فيها تعاليمه كانت في أيدي من اعتبروهم كفارًا وأعداءً نشطين ضد دينهم. يريد الرب منهم حتمًا أن يزيلوا هذا العدوان على الدين. شجع البابا الصليبيين وساندهم. لكن الحملات الأولى، فقط، هي التي حققت قدرًا من النجاح. فقد عادت القدس، لبعض الوقت، للمسيحيين، واستقر بعض الصليبيين فيها. وبعدها طردهم المسلمون وفشلت كل الحملات الصليبية التالية.

كانت الحملات الصليبية تتم بجهود مشتركة. وفي المقابل كان المد عبر التجارة إلى أمريكا وآسيا، بداية من القرن الخامس عشر، تنافسيًّا بين الدول الصاعدة، في البداية إسبانيا والبرتغال وبعدها بريطانيا وفرنسا وهولندا. الهدف الأول كان الحصول على التوابل والثروات من آسيا. كان هناك طريقان: عبر البحر حول جنوبي إفريقيا، أو غربًا عبر الأطلنطي. لما وصل كولومبس إلى أمريكا، كان يقصد الوصول إلى الصين. وكان تعويضًا مُجزيًا أن التاج الإسباني، الذي سانده، حصل على ما يهيئ له السيطرة على ذهب وفضة وسط وجنوب أمريكا. كان البرتغاليون أول من وصل إلى آسيا؛ وإن دفعوا جانبًا من قبل الفرنسيين والإنجليز الذين تنافسوا على الهند، ومن قبل الهولنديين الذين سيطروا على جزر الهند الشرقية فيما يعرف الآن بإندونيسيا.

كانت السلع الغالية تصل إلى أوروبا من آسيا، من خلال الشرق عبر العاصمة الكبرى

للإمبراطورية البيزنطية، القسطنطينية. ثم اتخذ الأوروبيون طريق المحيطات، لأن المسلك إلى الشرق وقع في أيدي المسلمين.

لقد كان هذا فعلًا سقوطًا. فقد صمدت الإمبراطورية الرومانية الشرقية، لأن الجرمانيين ركزوا في هجماتهم على الغرب. وكان للإمبراطورية الشرقية اقتصاد وإدارة أقوى لكنها بدأت في فقد أراضيها. جانب كبير من هذه الأراضي وقع تحت سيطرة المسلمين الغزاة القادمين من الجزيرة العربية في القرنين السابع والثامن. بعدها في القرن التاسع، أتى الترك من التلال الآسيوية؛ وتحولوا إلى الإسلام في طريقهم نحو الجنوب والغرب، ومكنوا لحكمهم عبر الشرق الأوسط، واستولوا على تركيا الحالية من البيزنطيين. وعبروا إلى أوروبا وبعدها سيطروا على الأقاليم المحيطة بالقسطنطينية. واستولوا على المدينة نفسها في عام ١٤٥٣. وقتل آخر إمبراطور بيزنطي وهو يحارب مع جنوده.

وبهذا اختزلت الإمبراطورية الرومانية لإقليم محدود، وباتت هذه هي النهاية لليونان والرومان. وتحولت الكاتدرائية الكبرى «آيا صوفيا» (الحكمة المقدسة) والتي بناها الإمبراطور «جوستنيان» في القرن السادس إلى جامع. وأصبح للترك إمبراطورية، هي الإمبراطورية العثمانية. وعندما جاءت نهايتها بعد الحرب العالمية الأولى، أسست تركيا، كما نعرفها اليوم، كدولة علمانية، رغم أن معظم أهلها من المسلمين. والجامع الكبير، الذي كان في الأصل كنيسة، تحول إلى متحف.



«آيا صوفيا»، كاتدرائية بناها الإمبراطور «جوستنيان» في القرن السادس، تحولت إلى جامع، وهي الآن متحف

وبسقوط القسطنطينية، قام أرباب العلم المسيحيون، الذين حفظوا ودرسوا تعاليم اليونانيين الكلاسيكيين، بالرحيل ومعهم مخطوطاتهم إلى إيطاليا. وأحسن استقبالهم، لأن مفكري عصر النهضة كانوا يبحثون عن المخطوطات القديمة. حتى فيما قبل ١٤، اتصل علماء عصر النهضة في إيطاليا بنظرائهم في القسطنطينية ليحصلوا على المعرفة اليونانية وآدابها. فالتعاليم والآداب اللاتينية حفظت دائمًا في غرب أوروبا. بعض المعرفة اليونانية حفظت باللاتينية، وبالرغم من أن الآداب اللاتينية تأثرت كثيرًا باليونانيين، إلا أن الأصول اليونانية وصلت لأوروبا بعد فترة طويلة من أقصى أوروبا الغربي في إسبانيا في العصور الوسطى، ومن القسطنطينية في أقصى أوروبا الشرقي في القرن الخامس عشر.

الفصل الرابع: أشكال الحكومة (١)

اخترع الإغريق الدولة الديمقراطية، كما اخترعوا السياسة، واشتقوا لها اسمًا من كلمة «بوليس»، بمعنى مدينة. كانت هناك حكومات قبل الإغريق بأنواع مختلفة، ولكن ما اخترعه الإغريق هو شكل للحكم، يتم بالحوار بين كل المواطنين، ويحسم بأغلبية التصويت. كانت حكومتهم ديمقراطية مباشرة، حيث يجتمع كل المواطنين في مكان واحد للنقاش، وتحديد السياسة المتبعة. لم تكن كل مدن الإغريق ديمقراطية، وكان الديمقراطي منها مضطربًا. ومن كل هذه الديمقراطيات اليونانية، نحن نعلم أكثر عن أثينا التي صمدت فيها الديمقراطية، وإن عطلت لحوالي ١٧٠ عامًا. وفي الديمقراطية الإغريقية كان لكل الرجال المولودين في أثينا الحق في المشاركة في الحكومة، ولم يكن هذا الحق مكفولًا للنساء أو العبيد.

نطلق على نظامنا ديمقراطيًّا، ولكنه مختلف تمامًا عن ديمقراطية أثينا؛ فديمقراطيتنا نيابية. فنحن لا نتدخل بانتظام في عملية الحكم. نقوم بالتصويت مرة كل ثلاثة أو أربعة أعوام، ولدينا الفرصة للاحتجاج، ونقوم بالمظاهرات، ونقدم عرائض باحتجاجاتنا، لكننا لا نقوم بالتصويت مباشرة على كل موضوع يقدم للبرلمان.

إذا تدخل الناس مباشرة في ديمقراطيتنا، نعلم بأنها ستكون شديدة الاختلاف عما نعرفه الآن. بطبيعة الحال لن يجتمع الناس كلهم في مكان واحد، ولكننا نستطيع إعادة النظام الإغريقي، إذا ما عرض كل أمر للاستفتاء على الإنترنت. وفقًا لهذا النظام، نعلم، من خلال استطلاعات الرأي، أن أستراليا لن يكون لديها أبدًا سياسة لاستقدام المهاجرين من الخارج إلا من بريطانيا؛ ولن يكون هناك أبدًا مهاجرون من آسيا؛ وستقوم حتمًا بشنق المجرمين وتقوم بجلدهم أيضًا؛ ودعمنا للخارج لم يكن ليوجد؛ وستعاني الأمهات المعيلات من أجل الاحتفاظ بمعاشاتهن؛ وسيلاقي الطلاب صعابًا في الحصول على إعاناتهم. ولذلك لعلك تفكر مليًّا في أن جهل الناس لا بد أن يكبح وتحيزاتهم لا يجب أن يطلق لها العنان.

***

وإذا توصلت لهذا الرأي، فأنت الآن قريب من رأي «سقراط» و«أفلاطون» و«أرسطو»، فلاسفة أثينا الكبار، الذين ملأهم الشك عن ديمقراطية أثينا، وانتقاداتهم التي ساعدتنا في فهم كيفية عملها. فقد كانت شكواهم أن عموم الناس متقلبون لا يستقرون على رأي، وأنهم جهلاء من السهل السيطرة عليهم. فحكم الناس فن رفيع يتطلب حكمة وبصيرة، وهو ما لا يملكه كل المواطنين. هؤلاء الفلاسفة سيكونون أكثر سعادة بنظامنا القائم على الديمقراطية النيابية. بغض النظر عما نقوله عن ممثلينا في البرلمان، فهم في العادة أفضل تعليمًا ومعرفة عن الناس في مجموعهم. وسياسيونا

يرشدهم نظام الخدمة المدنية العامة، الذي يعمل فيه أناس متمكنون. فالناس لا يحكمون مباشرة، فهناك عون من أناس مدربين وذوي دراية عن كيفية عمل الحكومة. لكن «سقراط» و«أفلاطون» و«أرسطو» لن يعتبروا نظامنا هذا ديمقراطيًّا.

ترجع أصول الديمقراطية الإغريقية للجيش. فعندما نحلل الأشكال المختلفة للحكم، سنلاحظ ارتباطًا بين طبيعة السلطة العسكرية وطبيعة الدولة. لم يكن في أثينا جيش نظامي، أو جنود منتظمون، أو قوات مسلحة تقيم في الثكنات مستعدة للحرب في أي وقت. ففي أثينا كان الجنود هناك لبعض الوقت، لكنهم مدربون بكفاءة لخوض المعارك، مترجلون في تشكيلات منظمة. وعندما تعلن الحرب، يترك المواطنون أعمالهم، كأصحاب أشغال، في التجارة والمزارع، ليشكلوا الجيش. وظهر التشكيل الديمقراطي في الحياة، عندما اجتمع هؤلاء المواطنون ـ الجنود ليتلقوا أوامر تحركهم من قادتهم. وقرارات الحرب والسلام وتكتيكاتها تكون قد اتخذت بالفعل من مجلس من الكبار والنبلاء للقبيلة. ثم تعرض القرارات على جموع الجنود، بغرض تعريفهم بالأوضاع، وحثهم على المشاركة. تجمع الجنود هذا لم يكن مفوضًا لنقاش الأمر أو لاقتراح بديل، ولكن للصياح بالموافقة والتغني بأناشيد الحرب.

وتدريجيًّا حظيت حشود الجنود بقوة أكبر حتى حصلت على السيطرة التامة. لا نعلم تمامًا كيف حدث هذا، ولكن باستمرار اعتماد الدولة على مشاركة الجنود ـ المواطنين، وبما أصبحت عليه الحروب كأحداث متكررة، جعل هذا الجنود في موقف قوة. وبهذا

فإن الديمقراطية بدأت كنوع من التضامن بين الرجال المحاربين. لكنها اتصفت بالقبائلية. في البداية كانت هناك أربع قبائل في أثينا، اعتادوا للتجمع معًا للحرب كقبائل متفرقة. وانتخبت القبائل إدارات الحكومة، وحتى بعدما أصبحت أثينا ديمقراطية رسميًّا، وجمعت ناخبيها، فكان الشخص يبقى في تجمعه الانتخابي الأول، حتى لو انتقل للعيش في مكان آخر. وبهذا فإن الجغرافيا وحدها لم تشكل عنصرًا كافيًا للتوحد، فالشخص يرتبط بمن صوت معهم بداية لمدى الحياة.

❋❋❋

تطلبت الديمقراطية المباشرة التزامًا كبيرًا من الناس، وثقة كبيرة فيهم. وضع قواعد ديمقراطية أثينا زعيمها «بركليس» في خطبة ألقاها في جنازة لجنود قتلوا في معركة حربية ضد أسبرطة. وقد سجلت هذه الخطبة في كتاب عن «حرب بلونيزيا» للمؤلف الآثيني «ثوسيديس»، وهو أول مؤرخ حاول أن يكون موضوعيًّا وعادلًا في حكمه. وكتابه محفوظ في القسطنطينية. وبعد تأليفه بألف وثمانمائة عام، في عصر النهضة، وصلت إيطاليا كلماته مترجمة إلى اللاتينية، ثم بعدها إلى اللغات الأوروبية الحديثة. وبعد كلمة الرئيس لينكولن في جيتيسبرج، فهذه الخطبة هي الأكثر شهرة لسياسي في فناء المقابر. كانت خطبة «بركليس» أطول من خطبة لينكولن. وهذه بعض مقتطفات منها:

> دستورنا يطلق عليه أنه ديمقراطي، لأن السلطة ليست في يد الأقلية، ولكن مع جموع الناس. وعندما تكون القضية تتعلق بمنازعات بين أفراد، فكل الأشخاص سواء أمام القانون. وعندما

يتعلق الأمر بتفضيل شخص على آخر في مراكز المسئولية العامة، فالذي يهم ليس انتماؤه إلى طبقة معينة، لكن قدراته الفعلية التي يتمتع بها.

عندما ينتهي عملنا، سنكون في موقف يسمح لنا بالتمتع بكافة سبل تجديد أرواحنا. هناك أنواع مختلفة من المشقة والتضحيات بذلت على مدار العام؛ لكننا نجد الجمال في بيوتنا وما هو طيب يسعدنا ويذهب عنا المتاعب.

هنا لا يهتم الشخص فقط بشئونه الخاصة، لكن بشئون الدولة أيضًا. حتى هؤلاء المشغولون بأعمالهم الخاصة، على معرفة تامة بالسياسة ـ وهذه خصيصة لنا: لا نقول بأن الشخص غير المعني بالسياسة هو شخص معني فقط بشئونه، ولكن نقول إنه ليس لديه أي شأن هنا على الإطلاق.

مجتمع منفتح، ناضج يعيش فيه مواطنون ملتزمون، ومتواصلون، هو المثل اليوم لأي شخص معني بالديمقراطية، حتى إن كنا نعلم أن من متع أثينا وجمالها ما اعتمد على الرق، وأنه في أحيان كثيرة كان المواطنون يساقون إلى أماكن التجمع للتصويت. على أي حال، فإن التأثير الإيجابي لخطبة «بركليس» تأخر كثيرًا ولقرون طويلة. فلم تكن فقط مصالح النخبة في أوروبا، بل تعليمهم أيضًا محذرًا لهم من الديمقراطية، ذلك لأن الكتاب الكلاسيكيين الذين قرءوا لهم، كانوا معادين لها. واستمر الأمر كذلك حتى بداية القرن التاسع عشر، إذ كتب مؤلف إنجليزي، راديكالي، يدعى «جورج جروت»، دراسة عن اليونان ذهب فيها إلى أن الديمقراطية والثقافة العالية فيها كانتا مرتبطتين، وأنه لا يمكن لعن واحدة والقبول بأخرى. وقد كان ذلك إسهامًا منه في قضية الديمقراطية في إنجلترا.

حتى بالنسبة لنا اليوم، هناك أبعاد للديمقراطية الإغريقية تتناقض مع مُثلنا. لقد كانت مشاعية، وبها نوع من القسرية، وباعتبارات محدودة للحريات الشخصية. امتياز المواطن الآثيني هو أن ينتمي إلى أثينا ـ وكما قال «بركليس»، إذا لم تكن مهتمًّا بالسياسة،

فلا شأن لك هنا. اهتمامنا نحن بالحريات الخاصة له أصول أخرى.

فقدت أثينا وكل الدويلات اليونانية استقلالها عندما سيطر عليها «الإسكندر الأكبر»، حاكم مقدونيا الواقعة شمال اليونان في القرن الرابع قبل الميلاد. ضاعت الديمقراطية وإن ظلت الثقافة اليونانية التي ازدهرت في أثينا. لقد انتشرت مع إمبراطورية الإسكندر التي امتدت عبر مشرق البحر المتوسط والشرق الأوسط. وما فعله «الإسكندر الأكبر» بالعالم اليوناني ظل كذلك حتى بعد احتلالها من قبل روما، وأصبحت النصف الشرقي المتحدث باليونانية من الإمبراطورية الرومانية.

عندما بدأت روما توسعها، كانت جمهورية ولم تكن ديمقراطية. كانت هناك هذه التجمعات الشعبية التي بدأت كسابقاتها في الدويلات اليونانية، كمجموعات من الرجال المسلحين. كان على كل مواطن في روما أن يحارب، وأن يأتي بعدته وسلاحه. كان عليك الإسهام وفقًا لثروتك. إذا كنت غنيًّا، تأتي بفرسك لتنضم لسلاح الفرسان، الذي كان صغيرًا في الجيش الروماني. كل الآخرين كانوا مشاة مترجلين، ولكن برتب مختلفة: الأول يأتي بسيفه وعدته ودرعه، والثاني يأتي بأسلحة أقل، والثالث يأتي بحربة أو رمح، والرتبة الأخيرة من المشاة ـ الجنود الأفقر ـ يأتون فقط بمقلاع ـ قطعة من قماش أو جلد، يرشقون بها الحجارة.

في السنوات الأولى كان المجلس كجيش في ساحة العرض. رجال مجتمعون وفقًا لرتبهم المختلفة: فرسان، مشاة من المرتبة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة، ثم ينتهون بأفراد

بمقاليعهم ونبالهم. وكان التصويت يتم بمجموعات. فيقرر الفرسان رأيهم فيما بينهم وهكذا. وتقوم كل مجموعة بالتعبير عن رأيها، ولكن قوتها التصويتية لم تكن متساوية مع الآخرين. لقد كان هناك ١٩٣ صوتًا للكافة، وقد كانت موزعة للمجموعات وفقًا لأوضاعها. فالفرسان ومشاة الدرجة الأولى كان لهم ٩٨ صوتًا من إجمالي الأصوات، أي الأغلبية، رغم أن أغلب الجنود كانوا في المجموعات الأدنى رتبة. إذا ما اتفق الفرسان ومشاة المرتبة الأولى، لم تكن هناك حاجة فعليًّا لسؤال الباقين عن آرائهم، فقد حسم الأمر. كان لكل الرجال مساهمة محتملة، ولكن كانت للأغنياء الغلبة.

هذا المجلس أو التجمع كان ينتخب بدوره قنصلَي روما، وهما بمثابة رئيس الحكومة للجمهورية الرومانية، كان يتم الانتخاب لاثنين ويعتبر أمرهما نافذًا في حالة اتفاقهما. سيطر القنصلان على بعضهما البعض، وكانت سلطة كل منهما مقيدة أكثر بجعل مدتيهما لسنة واحدة. وحدد الرومان السنين بأسماء الأشخاص الذين تولوا هذا المنصب.

وتدريجيًّا حصل عموم الناس على سلطات أكبر على حساب الأثرياء والنبلاء. ونعرف كيف حدث هذا ـ حيث استخدم الجنود من العامة قوتهم العسكرية للحصول عليها. فيتم إعلان الحرب فيرفض جنود الرتب الأدنى المشاركة فيها. ويقولون لن نحارب إلا إذا أعطيتمونا قوة أكبر في الدولة. واستخدموا هذا التهديد ليحصلوا على مجلس جديد، فيه موظفون معينون كمدافعين عن الحقوق العامة، وكانت لديهم سلطة للتدخل في أي من مراحل اتخاذ القرار الحكومي، إذا لم يحصل أحد عموم الناس على

حقه. وبعد ممانعة أخرى ضد المشاركة في الحرب من قِبل الجنود، أعطي هذا المجلس دورًا أكبر في التشريع.

في بعض الأحيان أطلق على هذه الأفعال إضرابات، وهي كلمة لا تمثل المعنى الحقيقي للفعل. فالإضرابات تشير إلى أن هذا الفعل قد حدث في نطاق علاقة عمل، وأن العمال قاموا بتشكيل نقابة لهم في روما، وأنهم ينادون بإضراب ضد أرباب العمل. لم يكن الأمر كذلك على الإطلاق، إذ قام عموم الناس بعصيان ضد السلطة. وهذه الفرصة لم تسنح لهم في إطار علاقات العمل، لكن في إطار العلاقات الدولية.

كما حدث في أثينا، تمكن الجنود ـ المواطنون من زيادة قوتهم، إلا أنه في روما لم تنتصر الديمقراطية أبدًا. المؤسسة الأقوى في روما كانت في مجلس الأعيان، الذي تكوَّن من أعضاء من عائلات النبلاء، وبعد ذلك من الأسر الغنية. «المجالس الشعبية» حظيت بزيادة في قوتها، مما وضع حدودًا لمجلس الأعيان، لكن ليس لدرجة تزعجه، أو تحل محله. تغير الدستور الروماني بوجود مؤسسات جديدة وتبدلت موازين القوى، بدون ثورة أو بداية جديدة. واستمر على هذا النحو الدستور البريطاني، الذي لم يكتب حتى يومنا هذا في وثيقة واحدة. وباهتمامه في جعل السلطة موزعة ومراقبة، فإن الدستور الروماني كان نموذجًا هامًّا للولايات المتحدة الأمريكية.

***

حُكم الرومان في البداية من قِبل الملوك. وأسست الجمهورية في حدود العام ٥٠٠

قبل الميلاد، عندما أسقط الرومان الملك المستبد «تاركين». قدم المؤرخ الروماني «ليفي» سجلًا لهذه الثورة. حُفظ جانب من أعماله في أوروبا الغربية بعد سقوط روما، وإن فُقد جانب منه، وبقيت نسخة واحدة من قسم واحد من هذا السجل، ولم يتم اكتشافها حتى القرن السادس عشر، لذا لم يعرفها مفكرو عصر النهضة. لكن الجزء المتعلق بتأسيس الجمهورية كان معروفًا. واستعان به «شكسبير» في قصيدته «اغتصاب لوكريس».

ما أشعل الثورة من أجل الجمهورية كانت جريمة اغتصاب. ولم يكن المغتصب «تاركين» نفسه، بل كان ابنه «سكتس تاركينوس». وكانت ضحيته «لوكريس» زوجة «كولاتينوس». وقائد هذه الثورة التي طردت الملك كان «بروتوس» ابن شقيق الملك. وبعد أربعمائة سنة قاد سميه «بروتوس» فخ اغتيال قيصر روما الشهير «يوليوس». و«بروتوس» الأول هذا شاهد أبناء من أسرته يقتلون على يد «تاركين». ولينجي نفسه، تظاهر «بروتوس» بالغباء، وإلا قتله «تاركين» كالآخرين. ما فعله «بروتوس» هو أنه تمثل بمعنى اسمه الذي يعني باللاتينية «البليد». لم يجأر بالشكوى عندما استولى «تاركين» على ممتلكاته. وأخذ يتحين الفرصة مع مرور الزمن حتى جاءته مع اغتصاب لوكريس. هذه هي القصة كما تحكيها «لوكريس». وتبدأ عندما كان أبناء الملك يحاربون في منطقة آردي. وكان «كولاتينوس» زوجها يسكر معهم في خيمة عندما كانوا يتحدثون عن زوجاتهم، ويستعرضون أي زوجة هي الأفضل. واقترح «كولاتينوس»

أن يحسموا الأمر بعودتهم إلى روما ليتعرفوا على ما تفعله نساؤهن. فوجدوا زوجات الأمراء في حفلاتهن، لكن «لوكريس» كانت تعمل بجد في غزلها. وفاز كولاتينوس في الجدل حول أفضلية الزوجات. وبعد أيام قليلة قام «سكتس»، بدون علم «كولاتينوس»، بزيارة «لوكريس».

أحسنت ضيافته في منزل «لوكريس»، وبعد العشاء تم اصطحابه، كأي ضيف كريم، إلى غرفة الضيوف. وهناك انتظر حتى نام من في المنزل، وبعدها، في سكون المكان، أخذ سيفه منطلقًا إلى غرفة «لوكريس» عازمًا على اغتصابها. كانت نائمة. وضع يده اليسرى على صدرها، هامسًا «لوكريس»، لا تنطقي بكلمة، أنا «سكتس تاركينوس». أنا مسلح، إذا تكلمت فسأقتلك. فتحت «لوكريس» عينيها في رعب، فالموت وشيك، ولا معين. صرح «سكتس» لها بحبه، متوسلًا لها أن تستجيب، رجاها، وهددها، واستخدم كل سلاح يمكن أن يغزو قلب امرأة. بلا جدوى؛ ولا حتى خشية الموت أثنت من عزيمتها. «إذا الموت لم يحركك، فإن فضيحتك ستفعل. سأقتلك، ثم سأذبح عبدًا، وسألقي بجثته العارية بجوارك. وعندها سيعتقد الناس أنك ضُبطت وأنت تزنين مع خادم، ودفعت الثمن». لم تكن لأكثر الشريفات أن تصمد أمام هذا التهديد البشع. استسلمت «لوكريس» واستمتع بها «سكتس»، وانطلق مزهوًّا بنصره.

كتبت المرأة الحزينة لأبيها في روما، ولزوجها في آردي تستعجلهما في القدوم إليها بصحبة صديق موثوق به، وذلك لسبب أمر بشع قد حدث. أتى أبوها مع صديقه «فاليريوس»، وأتى زوجها مع «بروتوس»، الذي كان عائدًا معه لروما، عندما التقى بالرسول حامل خطاب زوجته. وجدوا «لوكريس» جالسة في غرفتها في حالة انهيار شديدة. وانسابت العبرات من مقلتيها عند رؤيتهم، وعند سؤال زوجها: هل أنت بخير؟ أجابت: لا، ما هو الخير لامرأة فقدت شرفها؟ في سريرك هذا يا «كولاتينوس» أثرٌ لرجل آخر انتهك جسدي فقط، ولكن قلبي بريء، والموت شاهد على ما أقول. أعدني وعدًا خالصًا بأن الزاني سيعاقب. إنه «سكتس تاركينوس». هذا الذي أتى مساء الأمس عدوًّا متخفيًا في صورة ضيف، وتمتع بجسدي. هذه المتعة ستكون موتي ـ وموته أيضًا ـ إذا كنتم رجالًا حقًّا.

أعطوها وعودهم. وقال كل واحد منهم لها تلو الآخر إنها كانت بلا حيلة، ولذلك فهي بريئة، وإنه وحده المذنب. إنها الجوارح التي تزني، لا الجسد؛ هكذا قالوا لها، وبدون التعمد، ليس هناك ذنب عليها.

«ما يستحقه هو عليكم أن تقرروه أنتم، أما بالنسبة لي فأنا بريئة، لكني سأتحمل عقوبتي. لن تحمل «لوكريس» سابقة إفلات من تم انتهاك عرضها مما تستحق». ومع هذه الكلمات سحبت

سكينًا من ملابسها، وطعنت به قلبها، وسقطت جثة هامدة. فوجئ أبوها وزوجها من هول الصدمة، وبينما هما واقفان ينتحبان بلا حول ولا قوة، أخذ «بروتوس» السكين وعليه دماء لوكريس من جسدها، وحمله صائحًا: أقسم بدم هذه السيدة، لا شرف لنا اليوم إلا بعد سقوط الطاغية الذي اغتصبها ـ وبحق الآلهة سيكون ذلك بالسيف والنار وبكل ما يعضد عزمي. سألاحق «لوسيوس تاركينوس» وزوجه الشريرة وكل أولاده، ولن أجعل منهم، أو من أي أحد بعدهم، ملكًا على روما.

وكان «بروتوس» صادقًا في كلمته. وانطلقت الجمهورية بسبب جريمة شنعاء ارتكبها أمير؛ ولأن امرأة، رومانية صالحة اعتبرت أن شرفها أغلى من حياتها؛ ولأن شخصًا واحدًا عقد العزم للثأر لها. لكن لم تكن هذه رغبة كل شخص في روما في أن يزيح الملك «تاركين» عن العرش، وكانت هناك مؤامرة لإعادته. وعندما اكتشفت هذه المؤامرة، كان «بروتوس» أحد القنصلَين الحاكمَين لروما اللذَين حلا محل الملك. وكان «بروتوس» في مجلس الحكم في مقعد القضاء، عندما قدمت إليه أسماء المتآمرين. ووجد في القائمة اسمين كانا لابنين من أبنائه. وكانت مسئوليته أن يحدد العقوبة. وطالبه جمع من الناس أنهم لا يريدون لأسرته أن يلحقها العار، وأنه يمكنه أن يصدر عفوًا عن ولديه. لكن «بروتوس» لم يستمع لهم، فالحكم يجب أن يصيب ولديه كما أصاب غيرهما. وعلى مرأى من «بروتوس» خلعت أردية ولديه وجلدا عرايا، ثم ضُربت عنقاهما. لم يتراجع «بروتوس». وكان هذا الإخلاص للجمهورية.

مجد الرومانيون، بالطبع، ما فعله «بروتوس»؛ فهذا هو جوهر الإخلاص للجمهورية: أن تضع كل روابطك الشخصية جانبًا، لتخدم المصلحة العامة. وهذا ما أطلق عليه الرومان «الفضيلة». «فضيلة جمهورية»، وهو ما يعتبر أساسيًّا لبقاء الجمهورية، في

غياب قيود الولاء للملك.

ربما اعتقدت أن «بروتوس» لم يكن إنسانًا في فعلته هذه، كيف له أن يجلس هكذا، ويرى ما يحدث لأبنائه؟ لقد خلقت هذه «الفضيلة الجمهورية» وحوشًا.

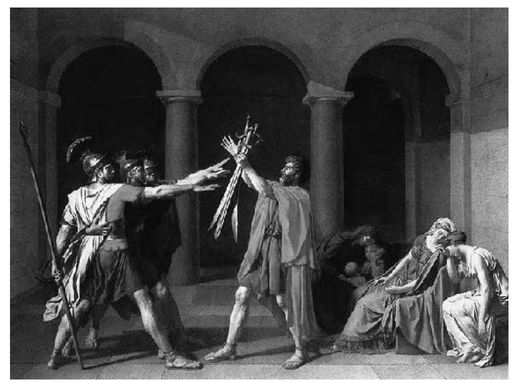


لوحة «جاك ـ لوي ديفيد»: الجلادون يحملون لـ«بروتوس» جثماني ولديه، ١٧٨٩

للغرابة، وقبيل الثورة في فرنسا، كانت هناك موجة من الإعجاب بالجمهورية في روما لم تقتصر فقط على هؤلاء الذين أرادوا إصلاح الملكية. فرسام البلاط الملكي لـ«لويس» (السادس عشر) «جاك ـ لويس ديفيد»، أخذ موضوعين لأعماله من أهم أحداث رواية «ليفي». في الأول صور جثتي ابني «بروتوس» محمولين له في منزله، وليس في مجلس الحكم. وصور «ديفيد» التناقض بين صورة الأب الساكن غير المتأثر، محملقًا بعينه للأمام، في حين ظهر ضعف نساء بيته؛ الأم وأخوات الهالكَين تنتحبن لما حدث. أما العمل الثاني لـ«ديفيد» والمتعلق بالجمهورية، كان الرسم المعروف بـ«قسم هوراتي».

أما الهوراتيون فكانوا الأبناء الثلاثة لـ«هوراتيوس» الذين اختيروا كأبطال لروما، عندما اتفقت مع أحد أعدائها ألا تتحارب في معركة وتحسم خلافها بأن يتعارك ثلاثة فقط من كل جانب حتى الموت. ورسم «ديفيد» الأب وهو يقوم بأداء القسم معلنًا

ولاءه لروما. وأبناءه يضعون أيديهم على سيوفهم، رافعين أذرعهم بالتحية الرومانية وهي تشبه التحية النازية. فيما تنتحب الأم وبناتها مظهرات ضعف المرأة مع فراق الأبناء الشباب. وواحدة من الأخوات أكثر حزنًا، لأنها مخطوبة لأحد أبطال الأعداء الذين سيصارعهم إخوتها.



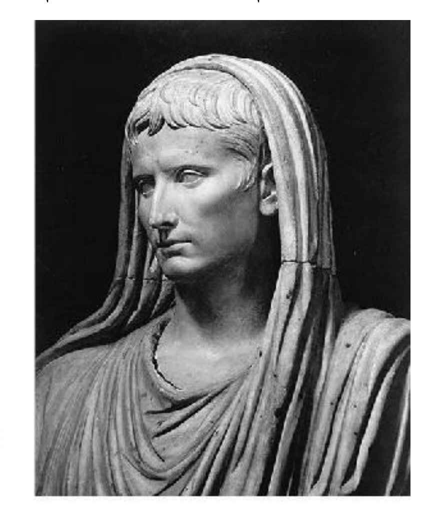
لوحة «جاك ـ لويس ديفيد»: قسم هوراتي، ١٧٨٤

كانت معركة دامية ومرعبة، معركة حتى الموت، وصفها ليفي بإبداع. رجل واحد هو الذي فاز بحياته، أحد أبناء «هوراتيوس»، وبهذا انتصرت روما في المعركة. ولما عاد المنتصر إلى بيته، وجد أخته تبكي لموت خطيبها على يد أخيها. فما كان من الأخ إلا أن استل سيفه، ويطعن أخته به جزاء لنحيبها، في حين أن المتوقع منها أن تبتهج لانتصار روما. مرة أخرى، رسالة مفادها أن العائلة يجب أن يضحى بها في سبيل الدولة. حوكم الأخ القاتل، ولكن سرعان ما بُرئ. يظهر الأب في المحاكمة لائمًا ابنته، ومساعدًا على تبرئة ابنه.

***

استمرت الجمهورية الرومانية لمائتي عام، ثم بدأ يصيبها الوهن والتفكك. توسعت

روما، ودخل قادة جيوشها الكبار، الذين قاموا بالغزوات، في صراعات وحاربوا بعضهم البعض. أما جنودهم فكان ولاؤهم



أصبح «أغسطس» أول إمبراطور لروما في سنة ٢٧ قبل الميلاد

للقادة لا للجمهورية. بزغ قائد منهم، وهزم الآخرين جميعًا، وهو «يوليوس قيصر». وقام «بروتوس» الثاني بتنظيم مؤامرة لاغتيال «يوليوس قيصر» حتى يحمي روما من حكم الرجل الواحد، ولكن هذا الفعل أدى إلى جولة أخرى من الحرب الأهلية بين «بروتوس» والمتآمرين معه في جانب، وأصدقاء «يوليوس قيصر» في الجانب الآخر. شخص واحد هو الذي خرج منتصرًا: حفيد شقيق «قيصر» وابنه بالتبني، والذي جعل من نفسه في عام ٢٧ قبل الميلاد، أول إمبراطور لروما تحت اسم «أغسطس».

كان «أغسطس» حاكمًا صادقًا. حافظ على المؤسسات الجمهورية، واستمرت المجالس في الانعقاد، وداوم الناس على اختيار القناصل. أطلق على نفسه لقب المواطن الأول وليس إمبراطور. رأى أن دوره كمنسق، أو أظهر أنه منسق، ييسر من عمل آليات حكم البلاد. لم يكن هناك بذخ، لم يكن لديه مواكب. سار في شوارع روما كشخص عادي

دون حماية، ذهب إلى مجلس الأعيان، واستمع إلى النقاش، وكان من السهل الوصول إليه كشخص. استمرت طريقة التحية وإظهار الولاء برفع الذراع على الطريقة القديمة. عندما تأتي إلى مجلس «أغسطس»، فليس عليك الانحناء أو إظهار أي اختلاف في المرتبة؛ أنت والإمبراطور تتبادلان التحية.

حاول «أغسطس» إحياء القيم الرومانية القديمة. اعتقد أن روما أحط من شأنها الرفاه والتفسخ؛ أراد أن يعيد، كما نقول اليوم، قيم الأسرة. قام «أغسطس» بنفي الشاعر «أوفيد» لكتابته عن أن النساء ذوات الأطفال يفقدن جمالهن. وكان غير معجب بالمؤرخ «ليفي»، الذي كتب أشياء لم يقبلها عن الخلافات في روما، ولكنه سانده فيما كتبه عن القيم الرومانية: السلوك النبيل، والإخلاص للدولة. ولكنه لم يستطع إحياء واحدة من ممارسات روما. فروما أصبح لها إمبراطورية، حقق لها «أغسطس» الاستقرار، وحكمها جيدًا، ولكن بمساعدة جيش محترف نظامي برواتب، وليس بنظام المواطنين ـ الجنود المؤقتين.

حظيت الإمبراطورية بالسلام لقرنين من الزمان. وشمل مساحتها الكبيرة العمل بالقانون الروماني والنظام الروماني. من ناحية الشكل ظلت الإمبراطورية جمهورية: لم يصبح الأباطرة ملوكًا يورثون العرش لأولياء عهودهم. اختار الأباطرة من يخلفهم على العرش، ربما يكون أو لا يكون قريبًا للإمبراطور، وكان لمجلس الأعيان حق الموافقة على الاختيار. ولقرنين من الزمان أحسن الأباطرة اختيار من يخلفونهم على العرش،

وتمت الموافقة على اختياراتهم.

وبعد ذلك، مع بداية القرن الثالث بعد ميلاد المسيح، أتت الموجة الأولى من الغزوات الجرمانية، والتي أوشكت على أن تسقط الإمبراطورية. وبعد مرور فترة الغزوات، أعيدت هيكلة الإمبراطورية بخطوط جديدة من قِبل اثنين من الأباطرة: «ديوكليسيان» و«قسطنطين». ولكي يحموا الإمبراطورية زادوا من حجم الجيش، وأعادوا تنظيمه، وضموا أعدادًا من الجرمانيين الذين استقروا داخل حدود الإمبراطورية. ولكي يقوموا بتمويل نفقات جيش أكبر، كان على الأباطرة رفع الضرائب. ولكي يطمئنوا على التزام الناس بدفع الضرائب، قاموا بإعداد سجلات أكثر دقة للسكان. وبهذا زادت البيروقراطية، وأصبح البيروقراطيون الحكام الفعليين للإمبراطورية. في الأزمنة السابقة، كان يسمح للأقاليم أن تحكم نفسها طالما حافظت على السلام ودفعت الضرائب.

حاول الإمبراطور «ديوكليسيان» السيطرة على التضخم، بأن جعل الإعدام عقوبة رفع الأسعار. ارتفعت الضرائب لتواجه نفقات الجيش، لكن لم يسمح لأصحاب الأعمال أن يرفعوا أسعارهم لمواجهة زيادة الضريبة، بما جعل أرباب الأعمال يتركونها لعدم جدواها. كان للإمبراطور «ديوكليسيان» إجابة لهذه المشكلة: عليك أن تبقى في العمل وابنك من بعدك.

أصبح الأباطرة في وضع بائس؛ لم يكونوا يحكمون، بل يمارسون الاضطهاد. ومجتمع

يحكم بهذا الشكل، لم تعد لديه القدرة على المثابرة، أو الروح المعنوية لمقاومة الموجة الثانية من الغزو.

كانت مساندة الإمبراطور «قسطنطين» للمسيحية في عام ٣١٣، محاولة منه لتدعيم الإمبراطورية. لم تكن فكرته في هذا التدعيم قائمة على الكنيسة كمؤسسة؛ فالمسيحية قد نمت حقًّا، لكنها كانت ديانة الأقلية. ولكن «قسطنطين»، مثل كثير من رعاياه، أمسى يفقد الثقة في آلهة الرومان القديمة، وأصبح يعتقد أن رب المسيحية أقدر على حمايته والإمبراطورية. في البداية كانت لديه فكرة غامضة عما تتطلبه المسيحية، ولكن اعتقد في أنه إذا ما ساند المسيحيين، فإن ربهم سيساعده.

بدأ «ديوكليسيان» و«قسطنطين» والأباطرة اللاحقون في الابتعاد عن الرعية. فقد تشبهوا بالأباطرة من الفرس، وقدموا أنفسهم كأشباه آلهة. استقروا في قصورهم، ولم يرهم أحد يجولون في طرقات المدينة كما كان الحال مع «أغسطس». قبل زيارتك لهم كان يتم تفتيشك بدقة، ويتم اقتيادك، معصوب العينين، من خلال طرقات ومتاهات، فلا تعلم طريقك مرة أخرى إلى مقر الإمبراطور، إذا حدثتك نفسك باغتياله. وعندما تأتي لحظة لقائك بالإمبراطور، فعليك أن تنكب على وجهك، وأن يلامس جسدك الأرض مسطحًا إياه.

وباتباع روما لطرق ضيقت على الناس، بدءوا بالتفكير في الهرب. وأصحاب الأراضي الذين رفضوا دفع الضرائب الباهظة، أصبحوا في جزر منعزلة، تقاوم الحكم، وتحمي

أيضًا من يعمل لديهم. في بداية عهد الإمبراطورية كان هؤلاء العمال عبيدًا. ولما قل المعروض من العبيد ـ لتوقف الفتوحات الرومانية ـ قام أصحاب الأراضي بإعطاء هؤلاء العبيد ـ ومن تم تحريرهم منهم وأحرار لجئوا إليهم ـ أجزاء من أراضيهم. ورغم أن ملاك الأراضي قاوموا وتجنبوا دفع الضرائب للأباطرة، إلا أنهم ساندوا قوانين الأباطرة التي تعرض على الناس البقاء حيث هم وأن من يحاول الرحيل فيجب تقييده. أصبح مستأجرو الأراضي وشاغلوها من ذوي الأوضاع الجديدة بعد هذه القوانين بعد ما عرفوا لزمن طويل في العصور الوسطى على أنهم أقنان الأرض. لم يكونوا كالعبيد الممتلكين، فكانت لديهم قطعة من الأرض وعائلة، لكن لم تكن لهم حرية الانتقال، وكان عليهم العمل لمساندة مالك الأرض.

كان هذا المجتمع الممثل للعصور الوسطى آخذًا في اكتمال شكله قبل عام ٤٧٦ من ميلاد المسيح، وهي السنة التي تُعرف بها سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب. كان هناك مُلاك أراضٍ كبار يعيشون في منازلهم المحصنة، كأسياد وحماة للعاملين في أراضيهم. كان للمجتمعات التي حلت محل الإمبراطورية، بعد سقوطها، أساليبها في البقاء بالولاء للأشخاص وليس للدولة، سواء كانت جمهورية أو إمبراطورية. ولكن حكم الرومان استمر، بعد فنائه، في ذاكرة أوروبا.

التنظيم العسكري	السياق السياسي	شكل التحية
مواطنون ـ جنود	العام ٥٠٠ ق. م ديمقراطية إغريقية	التحية الجمهورية

كلاسيكيون	جنود مشاة برواتب	العام ٢٧ ق. م «أغسطس» إمبراطور روماني	التحية الجمهورية
	جنود مشاة أجانب برواتب	«ديوكليسيان»، «قسطنطين» الإمبراطورية الأخيرة العام ٤٧٦ سقوط روما	الانبطاح أرضًا

الفصل الخامس: أشكال الحكومة (٢)

حلت دول بدائية للغاية محل الإمبراطورية الرومانية في الغرب. كانت قواعد الدولة بسيطة، الملك، الذي كان عادة أحد قادة الحروب، يعطي قطعة من الأرض إلى عدد من أتباعه، وفي المقابل يقوم هؤلاء الأتباع بتقديم الدعم العسكري له. وبهذا يحصل الملك على جيش دون ضرائب أو أي آلية معقدة للحكم. والأرض التي تمت حيازتها بهذه الطريقة أطلق عليها الإقطاعية، ومنها اشتقت الكلمات اللاتينية والإنجليزية الدالة على الإقطاع.

كان الملوك الإقطاعيون، الذين اعتمدوا بشدة على ما سيمنحه لهم رعاياهم من ملاك الأراضي، ملوكًا ضعافًا بالضرورة. من الناحية النظرية أبقوا السيطرة على الأراضي التي وزعوها، ولكن الأرض أمست ملكية خاصة لمن حازها، وانتقلت ملكيتها من الأب إلى الابن. كان على ملاك الأراضي الكبار أن يدينوا بالولاء للملك، وفي ذات الوقت كانوا في موقف يسمح لهم بأن يتحدوه أو يتجاهلوه. حازوا على قوة مسلحة، يمكن أن يستدعيها الملك، ولكن هذه القوة كان يمكن استخدامها ضد الملك أيضًا، أو يضيقون على الملك في استخدامها. كانوا يعيشون في قلاع بما مكنهم من الدفاع عن أنفسهم ضد أعدائهم، أو حتى ضد الملك.

وفي هذا الوقت كان هناك تغير في طبيعة الجيش. في العالم القديم لليونان وروما، كان الجند المشاة عماد الجيوش؛ فأصبح الفرسان هم أصحاب القوة المركزية. الفرسان ذوو السرج، هذا الاختراع القادم من الشرق إلى أوروبا، جعل الفارس الممتطي جوادًا أشد بأسًا. فالفارس على السرج أكثر ثباتًا وتمكنًا، ومن الصعب أن يسقطه جند المشاة. ويستطيع الفارس أن يدعم قوته ووزنه بقوة ووزن فرسه، فيحاربا كوحدة واحدة. رجل على صهوة جواد مسرج ينطلق بعدو سريع كان آلة حرب قوية للغاية. كان هؤلاء الرجال يلقبون بالفرسان، وعند تدريبهم يلقبون بحاملي الدرع. وكان على ملاك الأراضي ـ اللوردات ـ تقديم أكثر عدد ممكن من الفرسان للملك.

قسم شخصي بالولاء يجعل اللورد مرتبطًا بالولاء للملك. وكان اللورد يتعهد بولائه بجلوسه على إحدى ركبتيه، ويرفع يديه مقبوضتين متشابكتين في بعضهما البعض؛ فيضع الملك يديه حولهما، فيقوم اللورد بإلقاء كلمة الوعد بأن يكون رجل الملك، وأن يخدمه. وبعد قسم الولاء هذا، يقوم اللورد فيتعانق هو والملك. كان هذا واحدًا من المراسم الدالة على الخضوع والمساواة في آن واحد، بما يعبر عن طبيعة العلاقة: كان اللورد يعد بالولاء طالما حماه الملك. وفي بداية الملكية في غرب أوروبا كان هناك عقد ضمني بين الحاكم والمحكوم، كفكرة لم تمت بالكامل.



قسم الولاء للملك، من مخطوطة «درسدن زاخنشبيجل» تم رسمها بين عامَي ١٢٢٠ و١٢٣٥

عندما تعقد الكفان معًا فهو وضع نعرفه عند الصلاة، ولكن المسيحيين كانوا يصلون في البداية وهم وقوف، مع فتح الذراعين على اتساعهما متوجهين ناحية الشرق، حيث سيرجع المسيح في مجد. وضع صلاة المسيحيين اليوم يحاكي طقوس التعهد بالولاء من شخص إلى أحد سادة الأرض من اللوردات. هناك جدل حول أصول هذه الطقوس والعلاقة التي ترمز إليها: هل هي جرمانية أم رومانية؟ في المجتمع الروماني، حتى في أيام عزته، كان الشاب وهو يعد لانطلاقة يحتاج إلى راعٍ، ولما بدأت الإمبراطورية في الضعف، ازدادت حاجة الناس لمن يحمونهم. ولكن هذه الطقوس المتمثلة في عقد الأيدي والتقبيل ترجع إلى الجرمانيين ـ هذا الميثاق الذي عقد بين المحاربين وقادتهم.

مفهوم الدولة، بعيدًا عن الأشخاص الذين يحكمونها، تجده قد اختفى. عندما يموت الملك، كان على كبار المجتمع أن يقسموا بالولاء للملك الجديد. وعندها يكون للإقليم حكومة جديدة. ولما كانت الحكومة تقوم على تعهدات أشخاص، فكان للملك القدرة على تقسيم إقليمه الذي يحكمه بين أبنائه، كما فعل الملك «لير» في مسرحية «شكسبير»،

وكما فعل الملك «شارلمان» في الواقع، رغمًا عن كل محاولاته لكي يجمع إمبراطوريته في كيان واحد. وتخلق الحكومات الجديدة بعدها بمجموعة من التعهدات الجديدة بالولاء. والاستمرارية تستمد من سلامة الدم لا من أرض المملكة. لم يكن في مقدور إمبراطور روماني أن يوزع إمبراطوريته أجزاء بين أبنائه. فواجبه أن يحافظ على الإمبراطورية كيانًا واحدًا. وعندما قسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية، كان ذلك لتحسين إدارتها والدفاع عنها.

ولما كان الملوك الإقطاعيون ضعفاء، فقد كان عليهم أن يطلبوا المشورة من أصحاب النفوذ في بلدانهم. فلم يكن لديهم جيش تحت إمرتهم بالكامل، أو نظام للضرائب أو جهاز إداري. لذا كان عليهم قبل اتخاذ أي قرار، أن يجمعوا الرجال المهمين ليستمعوا إلى نصحهم، ويحصلوا على موافقتهم. وهذا النظام المعني بالاستماع إلى النصح أخذ شكلًا رسميًّا عندما تقابلت المجموعات الثلاث المتمثلة في رجال الدين والنبلاء والعموم معًا في البرلمان.

هذه المجتمعات الإقطاعية فكرت في تكوينها ثلاث مجموعات: رجال الدين وواجبهم الصلاة، والنبلاء وواجبهم القتال، والعموم وهم كل الآخرين في المجتمع الذين يقومون بالعمل، الذين يصنعون المال ويشتغلون. هذه المجموعات تختلف عن الطبقات، فالطبقات لها علاقة بالاقتصاد، ولكن هذه المجموعات ـ رجال الدين والنبلاء والعموم ـ كانوا يعرفون بالوظائف: الصلاة، والقتال، والعمل. وكان هناك

فارق كبير بينهم وفقًا لثرواتهم والأنشطة التي يقومون بها في الاقتصاد. كان من رجال الدين من تمتع بالثراء، من المطارنة والأساقفة، أما القساوسة المحليون فكانوا فقراء. أما النبلاء فكان منهم كبار ملاك الأراضي، كما كان منهم من الذين أفقرهم الزمن. أما عموم الناس فكان منهم التجار الكبار والممولون والأثرياء لدرجة أكبر من النبلاء، وكان بعضهم من المُشغلين لآخرين. لقد كان الأثرياء وملاك الأراضي من العموم هم من أرسلوا نوابًا للبرلمان، وليس العمال والأجراء الذين كانوا أنصاف عبيد.

في فرنسا كانت هناك ثلاث غرف للبرلمان. فكان هناك ممثلو رجال الدين في مجلس، والنبلاء في مجلس ثان، وممثلو العموم في ثالث. في إنجلترا، اجتمع رجال الكنيسة ممثلين بالأساقفة والمطارنة مع النبلاء في مجلس اللوردات، أما العموم فكان لهم مجلس العموم. ومازالت هذه التسميات معمولًا بها، والتي صمدت مع النظام الملكي منذ العصور الوسطى. بريطانيا الآن ديمقراطية، ولكنها أصبحت كذلك بسماحها لكل شخص أن يصوت لمجلس العموم، وتحجيم دور أساقفة مجلس اللوردات وحولت الملكية إلى رمز. ليست ديمقراطية يمكن التعرف عليها بالمعايير الإغريقية في العصر الكلاسيكي.

لم تكن برلمانات العصور الوسطى مكونًا منظمًا في الحكم؛ بل كان يتم استدعاؤهم عندما يكون الملك في حاجة خاصة إليهم. لم يكن تمرير القوانين شغلهم الرئيسي، يُجمعون فقط عندما يحتاج الملك إيرادات إضافية. وببداية متواضعة عمل الملوك تدريجيًّا على بناء قوتهم. تدفقت الإيرادات من أراضيهم، وأصبحت لديهم القدرة أيضًا على

جمع الضرائب، ولكن عندما زادت النفقات بسبب الحروب، احتاجوا إلى إيرادات إضافية من ضرائب جديدة، ولذا احتاجوا إلى استدعاء البرلمانات للموافقة عليها. سمح هذا للبرلمانات أن تعرض بعض المظالم، وكذلك تمرير بعض القوانين بمبادرة من وزراء الملك أو من أعضاء البرلمان.

ولما كبر حجم المدن في العصور الوسطى، تطور معها شكل مختلف من التنظيم السياسي. حكم المدن أعضاء مجلس منتخب، وبدورهم ينتخبون عمدة لهم. كان ملوك العصور الوسطى ضعافًا، فلما نمت المدن، لم يسعوا لحكمها مباشرة، فسمحوا للمدن أن تحكم نفسها مقابل ولائها ودفع الضرائب والرسوم. كان مجلس المدينة تجمعًا لمتساوين، وكان تعهدهم قائمًا لبعضهم البعض. هذا عالم مختلف تمامًا عن عالم اللوردات والرعايا الذي كان سائدًا في أماكن أخرى: العمدة والمجلس أعضاء منتخبون، يحكمون مدينتهم في إطار الملكية، شكل للحكم من اختراع أوروبي. الملوك الأقوياء لا يسمحون لمراكز قوى مناهضة لتنمو؛ ولكن يضعون رجالهم في مناصب المسئولية. في أوروبا، عندما زادت ثروات التجار والممولين والصناع زادت معها قوتهم لما تمتعوا به من استقلال نسبي. وفي معاركهم للسيطرة على لوردات الأقاليم اعتمد الملوك على أصحاب الثروة هؤلاء، سواء بالضرائب أو الاقتراض. وهذا أيضًا كان تطورًا غير عادي.

التنظيم العسكري	الإطار السياسي	شكل التحية
	العام ٥٠٠ ق. م ديمقراطية إغريقية ـ	التحية

كلاسيكيون	مواطنون ـ جنود	الجمهورية الرومانية	الجمهورية
	جنود مشاة برواتب	العام ٢٧ ق. م «أغسطس» أول إمبراطور روماني	التحية الجمهورية
	جنود مشاة أجانب برواتب	العام ٣١٣ «ديوكليسيان»، «قسطنطين» الإمبراطورية الأخيرة العام ٤٧٦ سقوط روما	الانبطاح أرضًا
العصور الوسطى	فرسان (لبعض الوقت)	ملوك إقطاعيون مدن تحكمها مجالس محلية بأعضاء متساوين في القوة	ركوع تقبيل قسم وعهد متبادل

اختلف الملوك الضعفاء مع النبلاء واصطدموا مع البرلمانات؛ في العصور الحديثة، منذ عام ١٤٠٠، بدأ الملوك في السيطرة. الملوك الإقطاعيون تحولوا إلى ملوك مطلقي السيادة؛ ولم يعودوا بحاجة إلى الاعتماد على البرلمانات. لم يقم هؤلاء الملوك بإلغاء البرلمانات، لكنهم لم يدعوهم للانعقاد. وجد الملوك سبلًا جديدة لجمع الأموال المطلوبة. باع الملوك الفرنسيون مكاتب المصالح العمومية؛ إذا أردت أن تكون محصل جمارك فما عليك إلا أن تدفع للملك مبلغًا كبيرًا من المال مقدمًا، ثم تقوم بجمعه، وما يزيد عليه، برسوم تفرضها وتحصلها من التجار. أما الملوك الإسبان فقد تدفق عليهم المال من أرباح الذهب القادم من العالم الجديد ـ المكسيك وبيرو.

ربما يكون مصطلح «المطلق» مضللًا. فهو لا يعني أن ملوك أوروبا كان لهم مطلق الحرية في عمل ما يشاءون. لم يكونوا طغاة؛ كان عليهم احترام القانون بشكل منتظم، وأن يروا تحقيق العدل لرعاياهم. يستثنى من ذلك أنهم إذا رأوا أمن البلاد محل خطر،

فكانوا يعقدون محاكمات مصغرة تتعامل مع المجرمين المزعجين. لقد روجوا فكرة أن الملوك نواب الإله على الأرض وطاعتهم واجبة، وهي فكرة أكثر اتساعًا مما روجه الملوك السابقون عليهم، ولكنهم كانوا مقيدين بهذه المعادلة لاعتقادهم بأنهم سيحاسبون أمام الإله على كيفية حكمهم. كان هؤلاء الملوك أعظم وأبعد عن رعاياهم مقارنة بسابقيهم. وهذه الطقوس المتضمنة تقبيلًا متبادلًا بين الملك ورعيته لم يعد معمولًا بها، فأحل محلها الركوع أمام الملك الذي ربما يمد يده للسماح بتقبيلها.

استخدم الملوك مواردهم ليشتروا لأنفسهم جيوشًا، جيوشًا من الجنود المشاة. في أواخر العصور الوسطى استحدثت أسلحة تسقط الفرسان من على صهوة جيادهم؛ كانت أسلحة ممثلة في أقواس ورماح طويلة. طورت إنجلترا هذه الأقواس وكانت أكثر قوة من النبال التي كانت تستعمل قبلها، وبها كان الرماة يستهدفون الفرسان ويسقطونهم من جيادهم. رفض الفرنسيون، في البداية، استخدام هذا السلاح لأنه لا يليق بشرف المواجهة المباشرة. وكما فعلت القوات في الحرب العالمية الأولى، بتوجيه المدافع وتصويبها للقتل، واجه الرماة فرسان الجيش الفرنسي وأسقطوهم أرضًا. لم يمكث الفرنسيون طويلًا حتى أتوا بالرماة لضمهم إلى الجيش. طور السويسريون الرماح الطويلة، والتي كانت أكثر طولًا ووزنًا من سابقاتها، كان الجنود يحملونها فوق أكتافهم في المعركة، لتقوم مجموعة من الرماة بتصويب رماحهم الطويلة تجاه الفرسان وجيادهم، فتصيبهم.

عندما أصبح للجنود جيوشهم، أمكنهم استخدامها ضد رعاياهم - ضد اللوردات الذين أخلوا بعهودهم، أو الفلاحين الذين امتنعوا عن سداد الضرائب. وعندما وصل البارود إلى أوروبا، في أواخر القرون الوسطى، أعان ذلك الملوك في السيطرة على رعاياهم وممالكهم. أصبح للجيش قدرة على توجيه مدافعهم إلى القلاع وتدميرها.

عادت أوروبا لطبيعتها؛ كانت الحكومات بالفعل متحكمة في شئون البلاد، لكن بدايتها الغربية بخضوع الحكام للمحكومين مازالت مؤثرة. وفيما يتعلق بإنجلترا، صمد البرلمان واشتدت قوته واضطرت الملكية الفرنسية للخضوع للضغط لإعادة إحياء البرلمان بعد انقطاع لمدة ١٧٥ عامًا.

وفي عمق أوروبا، لما كان الملوك في حروب مستمرة ضد بعضهم البعض، ازدادت دوافعهم لتطوير جيوشهم. لكن بالنسبة لإنجلترا، احتاج الملوك أساطيل للدفاع عن جزيرتهم، ولم يمكن استخدام هذه الأساطيل، بالطبع، ضد الرعية المنتشرين في أراضي المملكة. اعتبر الإنجليز رغبة الملوك في الاحتفاظ بجيوش، تهديدًا لحرياتهم. مما منع الملوك من الاحتفاظ بقوة مسلحة التي يمكن استخدامها، إذا ما كان هناك احتياج، ضد رغبتهم. ومع ذلك حاول ملوك إنجلترا في القرن السابع عشر، أن يحذوا حذو ملوك أوروبا، كملوك مطلقي السلطة.

***

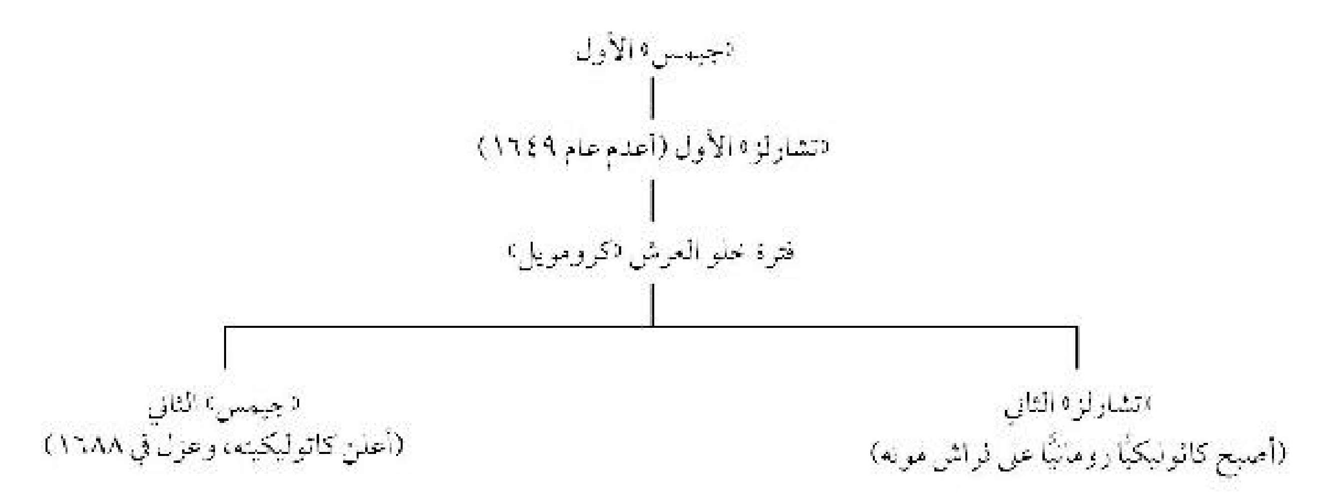
قام بهذه المحاولة ملوك انحدروا من نسل «ستيوارت» الذي قدم من إسكتلندا.

عندما ماتت الملكة «إليزابيث»، الملكة العذراء، في عام ١٦٠٣، انتقل التاج إلى الملك «جيمس» السادس ـ ملك إسكتلندا ـ الذي أصبح في ذات الوقت الملك «جيمس» الأول ـ ملك إنجلترا. وكل من جاء بعده من نسل «ستيوارت»، حكم المملكتين.

اختلف الملك «جيمس» الأول اختلافًا حادًّا مع برلمانه، وكذلك فعل ابنه «تشارلز» الأول، وأحفاده «تشارلز» الثاني و«جيمس» الثاني. لم تسقطهم هذه البرلمانات، ولكن واجهوا مشكلات عميقة معهم. احتاج هؤلاء الملوك موارد جديدة، وعندما كانوا يطالبون بضرائب جديدة، يرد البرلمان في المقابل بمطالب أكبر للسيطرة على سياسة الملك. بطبيعة الحال، رفض الملوك المتعاقبون مثل هذا التدخل الذي اعتبروه شأنهم في الحكم، وحاولوا إيجاد طرق أخرى لتدبير الأموال حتى لا يلجئوا إلى البرلمان ومطالبه. وجعل ذلك البرلمان أكثر قلقًا من سياسات القصر، وأن الملك الحاكم ربما يفعل فعل ملوك أوروبا، بتفادي البرلمان جملة وتفصيلًا. لكن ما أجج هذه الصراعات، إلى درجة الاستعداد للمخاطرة بالحياة ذاتها مساندة للبرلمان، كان عامل الدين. كان الملوك من نسل «ستيوارت» إما كاثوليك متزوجين من كاثوليكيات مثلهم، وإما لم يكونوا بروتستانت بالدرجة الكافية في نظر رعاياهم المعتنقين للبروتستانتية.

أصبحت إنجلترا بروتستانتية أثناء حركة الإصلاح، وإن لم يكن هذا على الطريقة الألمانية، حيث بدأت حركة الإصلاح. فلم يكن هناك من «لوثر» في إنجلترا. قامت إنجلترا بأولى خطواتها نحو البروتستانتية بفعل الملك «هنري» الثامن. هذا الملك

مشهور بأنه تزوج ست مرات. كانت زوجته الأولى كاثوليكية، لكنها لم تستطع أن تفعل أكثر شيء مطلوب منها، وهو إنجاب ولي عهد ذكر. الحل المعتاد لهذا الأمر هو أن يقوم بابا روما بإيجاد سبب لإلغاء الزواج، ولكن البابا لم يرد فعل ذلك، حتى لا يغضب عائلة الملكة؛ حكام إسبانيا. فقام «هنري» الثامن، في عام ١٥٣٤، بإعلان نفسه، وليس البابا، رأسًا للكنيسة الكاثوليكية في إنجلترا. وعين مطرانًا أكبر للكنيسة، الذي أمكنه أن يلغي زواجه من الملكة «كاثرين»، وزوجه «آن بولين». ومن بعده أصبحت الكنيسة الإنجليزية أكثر بروتستانتية، لكنها أبقت على بعض الطقوس الكاثوليكية، واحتفظت بأساقفة ومطارنة. وقد أغضب هذا المتشددين البروتستانت ـ المعروفين بالبيوريتانيين ـ الذين طالبوا بإصلاح شامل للكنيسة.



قاوم «جيمس» الأول مطالب البيوريتانيين، لكنه قام بخدمة هامة بموافقته على ترجمة الإنجيل ترجمة جديدة. نسخة الملك «جيمس» من الإنجيل متأنقة وحيوية في نصها، كانت النسخة المعتمدة لثلاثة قرون. فضل ابنه الملك «تشارلز» الأول علم اللاهوت

والطقوس، فيما يعرف الآن بالتعاليم الإنجليكانية العليا، التي يعتبرها أكثر البروتستانت، وليس فقط البيوريتانيون ، أقرب بشدة لروما. وتسبب «تشارلز» في إساءة كبيرة بفرضه لرأيه على الكنيسة الإنجليزية. لم يكن كاثوليكيًّا ولكن هكذا كانت زوجته، بترتيبات خاصة لها وقسيس يعقد الصلوات في بلاط القصر.

وصل «تشارلز» إلى طريق مسدود مع البرلمان لمدة طالت لأحد عشر عامًا حكم فيها دون برلمان، وهو ما كان متاحًا له، إذ لا ينعقد البرلمان إلا بأمر الملك. وبقدر من الحرص وجد هذا الملك طرقًا يتفادى بها دعوة البرلمان للانعقاد، لكنه بغباء حاول أن يفرض على الناس طريقته في العبادة على مملكته الثانية إسكتلندا التي كانت أكثر بروتستانتية، وأكثر استعدادًا للتمرد والحرب. فقام الإسكتلنديون بإعداد جيش لمواجهة إنجلترا، وإجبار «تشارلز» للتنازل عن العرش. وحتى يستطيع محاربتهم، اضطر «تشارلز» لدعوة البرلمان لإصدار قانون بضرائب جديدة لتمويل الجيش. استغل البرلمان هذه الفرصة التي سنحت، فقيد سلطات الملك لصالحه. كما أعدم البرلمان رئيس حكومة الملك وكذلك مطرانه الأكبر في كانتربري. في البداية كان «تشارلز» تحت رحمة البرلمان، ولكنه نجح في جمع أنصار له، والذين دخلوا في حرب ضد أنصار البرلمان. انتصر البرلمان في هذه الحرب، وقام قائد جيشه «أوليفر كرومويل» بإجراء محاكمات، وتم إعدام الملك في عام ١٦٤٩ . وحكم «كرومويل» مكان الملك؛ استدعى البرلمانات للقيام بعملها ثم اختلف مع أعضائها، وأثناء حياته أصبحت إنجلترا دكتاتورية

عسكرية. ولما مات، قام أحد لواءات جيشه باستدعاء البرلمان، الذي كان قائمًا في عهد «تشارلز»، والذي استدعى بدوره «جيمس» ابن «تشارلز»، ونصبوه ملكًا بعدما كان في المنفى.

بدأ الملك «تشارلز» الثاني عهده دون تغيير يذكر في سلطات الملك والبرلمان، إذ كان إعدام والده سببًا لكي لا يدفع بمطالبه بعيدًا. كان متعاطفًا مع الكاثوليكية وتحول إليها وهو على فراش الموت. لم يكن لديه أطفال من زوجته الملكة، لكن كان له كثير من الأولاد من عشيقاته. انتقل المُلك إلى أخيه «جيمس» الذي كان صريحًا في إعلان كاثوليكيته. حاول البرلمان إصدار قوانين لتسقطه من الحكم، فرد عليهم بحل البرلمان. لكن دون برلمان لم يستطع فرض ضرائب، وتغلب على ذلك بحصوله على تمويل سخي من ملك فرنسا «لويس» الرابع عشر، الذي كان السبب في تحويل فرنسا إلى الكاثوليكية، وسحب ما كان ممنوحًا للبروتستانت من قواعد للتسامح فهرب الآلاف من الفرنسيين البروتستانت إلى دول أخرى. وفي الوقت الذي كانت فيه البروتستانتية تهاجم في فرنسا، في عام ١٦٨٥، كانت إنجلترا البروتستانتية تُحكم بالملك الكاثوليكي «جيمس» الثاني.

رغم معرفته أنه غير مرغوب فيه، لم يستمر «جيمس» في حكمه بحرص. شجع الكاثوليكية بشكل صريح، التي اعتبرها العقيدة الحق. وبعد كل مشاكل الحروب الأهلية والدكتاتورية العسكرية التي أعقبتها، كان أكثرية البرلمانيين على استعداد

لتحمل الملك «جيمس»، لكن زوجته الثانية، الكاثوليكية أيضًا، أنجبت ذكرًا وليًّا للعهد. وظهر أن إنجلترا على طريق سلسلة من الملوك الكاثوليك. ومع مولد ولي العهد، عقد البرلمانيون العزم على التخلص من الملك. ودعا قادة البرلمان، سرًّا، حاكمًا بروتستانتيًّا ليأتي إلى إنجلترا، مع جيش، ليستولي على العرش. كان هذا الشخص هولنديًّا، وكان متزوجًا من «ماري»، ابنة «جيمس» من زوجته الأولى البروتستانتية، وكان اسمه «وليام» الذي كان زعيمًا للبروتستانتيين في أوروبا، وحارب معارك كثيرة لحماية بلده من «لويس» الرابع عشر.

مرت خيانة البرلمان بيسر. استغل «وليام» مساندة الرياح وعبر بسفينته القناة الإنجليزية. بمجرد رسو سفينته، تمردت جنود «جيمس» عليه وانضمت لجيش عدوه الهولندي. هرب «جيمس» إلى أيرلندا، وهو ما كان مناسبًا لكل الأطراف بما في ذلك البرلمان، الذي لم يعد مضطرًّا لقطع رأسه، كما فعل من قبل مع أبيه. أعلن البرلمان خلو العرش وتنصيب «وليام» وزوجته «ماري»، ابنة «جيمس»، ملكَين على عرش إنجلترا.

أعيد تعريف سلطات الملك والبرلمان، ووفقًا لما حدده البرلمان تم منح العرش لـ«وليام» و«ماري». والوثيقة التي أعادت كتابة الدستور، عرفت بميثاق الحقوق. وهي مزيج من حقوق البرلمان وحقوق الأفراد.

حقوق الأفراد

كل فرد له حق التظلم من الملك (عاقب «جيمس» رجال الكنيسة الذين تظلموا من سياسته الدينية).

لا كفالات مبالغًا فيها ستطلب، ولا غرامات مبالغًا فيها ستفرض.
لا عقوبات وحشية أو غير معتادة ستوقع.
البروتستانت لهم حق حمل السلاح.
والمحلفون لن يتم اختيارهم من قِبل القصر.

وفقًا للمعايير المعاصرة، هذه قائمة محدودة لحقوق الأفراد، لكنها كانت الوثيقة المؤسسة لكل المواثيق اللاحقة للحريات. وثيقة الحقوق الأمريكية تتضمن ذات التعبيرات «عقوبات وحشية وغير معتادة».

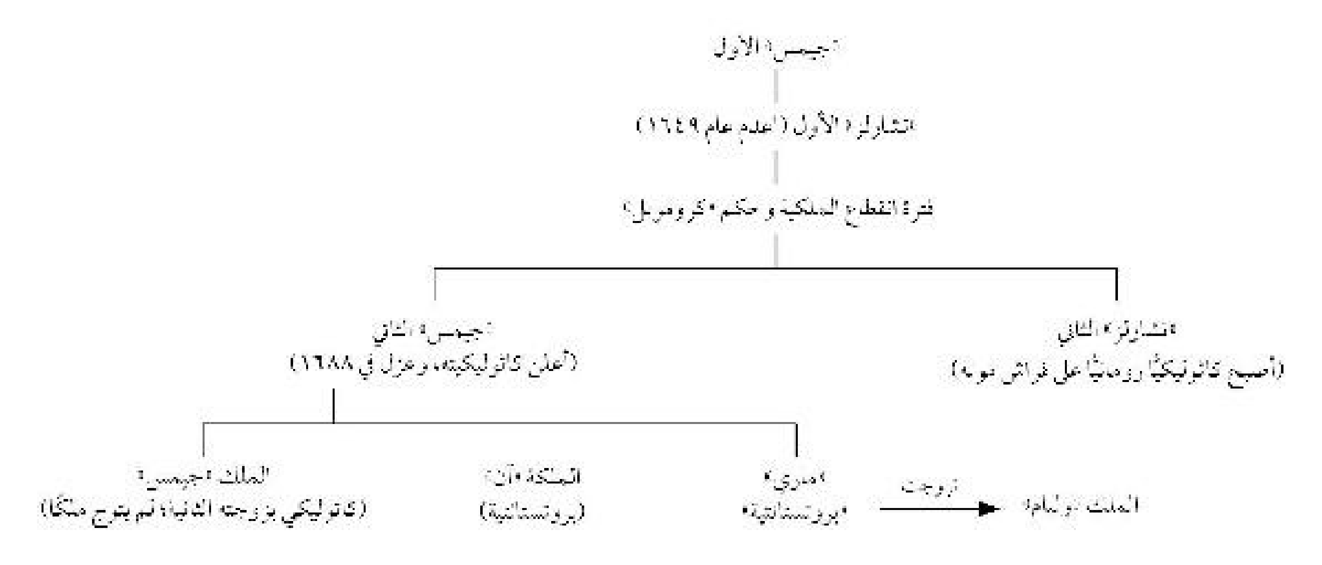
حقوق البرلمان

يجب أن يُستدعى البرلمان للانعقاد بانتظام.
لا يمكن للملك أن يُوقف العمل بالقوانين أو يمتنع عن تطبيقها (فعل «جيمس» الأمرَين فيما يتعلق بالقوانين المضادة للكاثوليكية).
للبرلمان فقط حق فرض الضرائب (قام «جيمس»، كسابقيه، بفرض ضرائب اعتمادًا على سلطاته الملكية).
لا يجب الاحتفاظ بجيش في وقت السلم دون موافقة البرلمان (أنشأ «جيمس» جيشًا).
لا يمكن للملك أن يشكل محاكم (قام «جيمس» بتشكيل محاكم للسيطرة على الكنيسة).
يمنع الملك ووزراؤه من التدخل في ترشيح أعضاء البرلمان (حاول «جيمس» تنظيم انتخاب برلمان متعاطف مع آرائه).
يحق لأعضاء البرلمان الحديث بحرية في قاعة البرلمان دون تهديد باتخاذ إجراءات قانونية ضدهم (ما يعرف الآن بالامتيازات البرلمانية).

جعل البرلمان من نفسه جزءًا دائمًا من الدستور. وتم هذا دون إسالة الدماء. هذا الانقلاب الذي قام به البرلمان حصل على لقب «الثورة المجيدة». بقي للعرش سلطات هامة: اختيار الوزراء، توجيه السياسة، عقد المعاهدات، إعلان الحرب، لكن باعتبار أن الملوك لا يستطيعون الحصول على موارد مالية دون موافقة البرلمان، كان عليهم اختيار وزراء ممن يساندهم البرلمان. هذا القيد هو ما أدى إلى النظام المعمول به اليوم في إنجلترا، وفي كل البلدان التي اتبعت طريقة «وستمنستر» للحكم: الملك، أو من يمثله،

هو المسئول رسميًّا، لكن في كل الشئون عليهم اتباع رأي الوزراء المسئولين أمام البرلمان.

لم ينجب «وليام» و«ماري»، حكمت بعدهما «آن»، شقيقة «ماري» وابنة الملك «جيمس»، ولم يعش لها أطفال. كان على البرلمان اختيار من يليها في الحكم. تجاهل البرلمان كل الذرية الكاثوليكية من نسل «ستيوارت»، واختار البرلمان «صوفيا»، حفيدة «جيمس» الأول، وهي من بيت «هانوفر» في ألمانيا، وكانت بروتستانتية. وأصبحت هي ومن بعدها الخط الملكي الجديد. قام البرلمان بتنظيم الأمر لمن يريدونهم في العرش. في الزمن الذي ماتت فيه «آن»، كانت «صوفيا» أيضًا في عداد الموتى، فانتقل العرش إلى ابنها «جورج»، الذي لم يكن يتحدث الإنجليزية، وأمضى معظم حياته، قبل تولي منصبه، بهانوفر في ألمانيا.



وبوضع هذه الترتيبات، فقد حدد البرلمان قاعدتين هامتين، مازالتا مكونتين للدستور الإنجليزي:

ـ الملك يجب أن يكون من البروتستانت، وعضوًا في كنيسة إنجلترا، وألا يكون متزوجًا من كاثوليكية.

ـ يعين الملك القضاة، ولكن لا يمكن عزلهم إلا بتصويت من غرفتَي البرلمان.

أكدت وثيقة الحقوق أن البرلمان، كمجلس تشريعي، مستقل وقوي وكيان دائم في نظام الحكم. وجعل القضاة مستقلين ومحصنين من الحكومة التنفيذية الممثلة في الملك ووزرائه الذين عينوهم. تم تثبيت مذهب الدولة ـ البروتستانتية ـ والذي نظر إليها كضمان لحرياتها. فالبروتستانتية في بدايتها كانت كضمان للحريات الفردية، لأنها كانت تواجه سلطة الباباوات ورجال الكنيسة، وترفع من قدر ضمير الفرد وخبرته. وفي إنجلترا كانت شديدة الاتصال بالحرية ـ لأن أعداء إنجلترا من ملوك ذوي سلطة مطلقة في فرنسا وإسبانيا كانوا من الكاثوليك ـ والملوك الذين حاولوا تجاوز سلطة البرلمان كانوا إما كاثوليك أو نُظر إليهم باعتبارهم متساهلين مع الكاثوليكية. حماية البرلمان والحفاظ على البروتستانتية أصبحا هدفًا واحدًا.

بهذه الطرق تعاونت الأرستقراطية الإنجليزية مع أصحاب الأراضي الذين شكلوا برلمانها في اتخاذ الترتيبات المؤسسية لدولة ليبرالية. لم تكن ليبرالية بالكامل لأنها أُسست على عداوة الكاثوليك. ولم يتم التوصل لها بتبني مبادئ ليبرالية. أعلنت البرلمانات المتعاقبة في إنجلترا أنها تحاول المحافظة على حقوقها القديمة والحريات. لقد كان على مدار معارك طويلة مع الملوك ما طوره البرلمان من ضرورة العمل على القضاء على أي

مَلِك تحدثه نفسه أن يتقمص دور الملوك ذوي السلطة المطلقة في أوروبا، فعليه أن يدعو البرلمان للانعقاد، ولا يستطيع فرض ضرائب بدونه، ولا يمكنه السيطرة على المحاكم. أما المبادئ العامة للحريات فقد ظهرت بعدما فاز البرلمان بالنصر.

كان الفيلسوف الذي أعد المبادئ الليبرالية لمساندة الانقلاب البرلماني هو «جون لوك». كتابه «أطروحتان عن الحكومة» تم نشره في عام ١٦٩٠، بعد الثورة مباشرة. ذهب «لوك»، اعتمادًا على الفكرة الرومانية عن القانون الطبيعي، أن الإنسان له حقوق طبيعية في الحياة والحرية والملكية، وأن المواطنين عندما يشكلون حكومة، فإنهم يعقدون عقدًا؛ بمقتضاه يمنحون السلطة للحكومة بما يحمي حرياتهم. أما إذا لم تُحم هذه الحريات، فإن للناس حق التخلص من هذه الحكومة وتشكيل غيرها.

هؤلاء الملوك المتشبهون بالآلهة، وإلزام الناس بالطاعة، تم إحلال نموذجهم بحكومة تقوم بعمل مشابه لتعاقدات الأعمال. لكن الفيلسوف لم يكن الأول الذي جعل الحكم علاقة تعاقدية. لقد كان هذا موجودًا بشكل ضمني بين الملوك في النظام الإقطاعي ورعاياهم، وبينما استمرت البرلمانات، حتى ولو كانت بشكل نظري. فكرة المشاركة بالحكم مع الرعايا وليس ضدهم كتب لها البقاء. في إنجلترا فسر كتاب «لوك» ما حدث في الماضي ولم يعد ثوريًّا، لكنه بالنسبة للأمريكيين والفرنسيين قدم مبررًا للمتمردين على الحكم في ثورتهم، وقدم لهم أيضًا لغة الحقوق التي حددت معالم نظامهم الجديد.

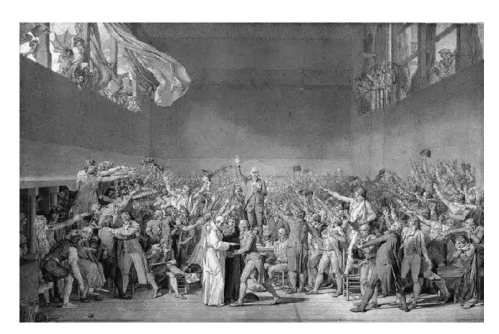
***

عمدت الثورة الفرنسية في أيامها الأولى إلى إيجاد نظام ملكي دستوري مثل إنجلترا. كانت للإصلاحيين فرصة لأن الملكية في ثمانينيات القرن الثامن عشر كانت على وشك الإفلاس. عين الملك «لويس» السادس عشر وزراء مالية خططوا لإصلاح النظام الضريبي المخرب، وجعله موحدًا وأكثر عدلًا وكفاءة. وكان أهم تعديل هو فرض الضرائب على طبقة النبلاء مثلهم كأي مواطن. لقد كانوا يدفعون أقل في الماضي، باعتبار أنهم كانوا يقدمون للدولة عونًا بمالهم وأنفسهم ورجالهم للدفاع عنها. لم يعد هذا العون مطلوبًا في ظل نظام الجيش الجديد، لكن النبلاء اعترضوا، بالطبع، على نظام الضرائب الجديد. لقد همش الملوك، ذوو السلطة المطلقة، طبقة النبلاء ليخلقوا الدولة التي يودون السيطرة عليها بالكامل. حافظ النبلاء على مكانتهم وتولوا مناصب هامة في النظام القضائي (التي كانت تسجل القرارات والمراسيم الملكية)، كما شغلوا مواقع هامة في البلاط الملكي والجيش. حرك النبلاء عاصفة من الهجوم لأنهم طولبوا بدفع ضرائب كباقي الناس، وللغرابة، فقد حظوا بمساندة شعبية لهجومهم هذا واعتبروها صورة لاعتداء مستبد على حق تاريخي ـ بما يظهر كيف كانت حدود السلطة «المطلقة» للملكية. أي نظام ملكي أكثر عزمًا وقوة من «لويس» كان سيدفع قدمًا لهذا التغيير في النظام الضريبي؛ لكنه استمع إلى النصح بأن نظامًا ضريبيًّا جديدًا يجب أن يتم اعتماده بسلطة برلمانية. ولهذا بعد عطلة استمرت لمائة وخمسة وسبعين عامًا، تم استدعاء البرلمان.

وعلى الفور اشتعل خلاف حول كيفية اجتماع هذا البرلمان ذي الغرف الثلاث: واحدة لرجال الكنيسة، وثانية للنبلاء، وثالثة للعموم (أو الغرفة الثالثة كما تعرف في فرنسا). وقبل اعتماد أي إجراء كان من اللازم موافقة كل غرفة من الغرف الثلاث. رأى أعضاء المجلس الثالث، وخصوصًا المحامين منهم، بأنهم إذا جعلوا الغرفتين الأخريين تقومان بالموافقة متفردتين، سيفقدون فرصتهم في منح فرنسا دستورًا جديدًا، وأن عليهم أن يجمعوا الغرف الثلاث معًا في برلمان واحد. طالبوا أيضًا بالاعتراف بعدد وثروة وانتماءات الغرفة الثالثة لصناعات متعددة، مما يلزم إعطاءه ضعف عدد الأعضاء. رفض الملك في البداية أي تغيير في نظام عمل البرلمان، وبعدها وافق جزئيًّا، وبعدها كعهده طور الأمر إلى ما هو أسوأ. وافق على زيادة عدد أعضاء الغرفة الثالثة، على أن تجتمع الغرف منفردة. وعندما فعلوا ذلك، فإن هذا لم يحقق اختلافًا على أي عدد سيكون عليه أعضاء الغرفة الثالثة؛ وأي شيء اقترحوه كان من الممكن تعطيله بـ«حق الفيتو» من غرفتَي النبلاء ورجال الكنيسة.

استمر الجدل عندما اجتمع البرلمان في عام ١٧٨٩. أعلنت الغرفة الثالثة أنها الممثل الحق للشعب، ودعت أعضاء الغرفتين الأخريين للانضمام إليها. وعندما ذهبوا يومًا للاجتماع في مكانهم المخصص في قصر «فرساي»، وجدوا الأبواب مغلقة. كانت الأبواب مغلقة بحجة أن القاعة سيتم طلاؤها، لكن النواب انفعلوا واعتقدوا أن الملك سيحل البرلمان، وذهبوا إلى مكان مجاور حيث ملعب مغطى للتنس، وتعهدوا قسمًا

بأنهم لن يفضوا اجتماعهم حتى يمنحوا فرنسا دستورًا جديدًا. هناك لوحة فنية رسمها فنان البلاط الملكي لهذه اللحظة، وهي حالة شهيرة بأن تقتفي الحياة أثر الفن. خمس سنوات سابقة على هذا الحدث، رسم «ديفيد» «قسم هوراتي»، والتي أظهرت هوراتي وأبناءه رافعين لأيديهم بالتحية الجمهورية. ذات التحية التي قام بها الثوريون من أعضاء الغرفة الثالثة عندما تعهدوا بأن يمنحوا فرنسا دستورًا.



رسم لـ«جاك» ـ «لويس ديفيد»، قسم ملعب التنس، ١٧٩١

كثير من رجال الكنيسة وعدد من النبلاء شاركوا في «الجمعية الوطنية». أشار الملك أنه سيمنح البرلمان موقعًا مستمرًّا في الدستور، لكنه لا يوافق على اجتماع الغرف الثلاث معًا. وأعلن الملك أنه سيستخدم القوة المسلحة ضد الحملة الوطنية، إذا لم ترجع إلى وضعها السابق، وتجتمع في ثلاث غرف. ولكن عندما اعترض عليه النواب، لم يستخدم هذه القوة. تراجع الملك، وبشكل مستضعف طلب الغرفتين الأخريين بالالتحاق بالغرفة الثالثة.

كان قادة البرلمان رجال تنوير؛ كان لديهم مبادئ واضحة للحرية والعدالة. كان شعارهم الحرية والمساواة والإخاة. أصدرت الجمعية الوطنية مانيفستو تحت عنوان

«إعلان حقوق الإنسان والمواطن»؛ لم تكن حقوقًا للفرنسيين فقط، ولكن للجنس البشري. هذا تلخيص لأهم مواده:

يولد الناس ويظلون أحرارًا ومتساوين في الحقوق.
هذه الحقوق هي الحرية والتملك والأمن ومقاومة القمع.
السيادة للوطن.
الحرية تتمثل في كل ما يمكن فعله دون ضرر بالآخرين.
لكل مواطن الحق في المشاركة شخصيًّا، أو من خلال ممثلين عنه، في صنع القانون.
لا يمكن اتهام شخص، أو القبض عليه، أو حبسه إلا من خلال القانون، والذي يحدد العقوبات المفروضة بالضرورة.
لا يمكن التعرض لأي شخص وفقًا لآرائه، بما في ذلك رأيه في الدين.
كل شخص له الحق في الحديث والكتابة، والطباعة بحرية، لكنه سيكون مسئولًا عن سوء استخدام هذا الحق وفقًا للقانون.
دستور دون الفصل بين السلطات ليس دستورًا على الإطلاق.

إنها وثيقة عظيمة، الوثيقة المؤسسة للديمقراطية الحديثة، لكنها كانت مجبولة على أن تحدث ثورة بلا أي عظمة. الرجال الذين اعتمدوا هذه المبادئ، أرادوا ملكية دستورية مثل إنجلترا، ولكن أي ضمانة ستكون للملك عندما تكون السيادة للوطن، وأن كل الناس أُعلن أنهم جميعًا متساوون؟ من أعدوا هذه الوثيقة أرادوا أن يحكموا، وقرروا عندما جاء وقت التصويت، أن الفرنسيين من حائزي الأملاك العقارية، هم وحدهم لهم حق التصويت. لكن كيف لك أن تستبعد عموم الناس عندما أعلنت أن الناس جميعًا متساوون؟ لقد كانت قوة فعل عموم الناس هي التي جعلت «لويس» يقبل الإعلان؛ اقتحموا الباستيل، وأجبروا الملك على أن يترك قصر «فرساي» وأن يعيش بين الناس في باريس. عموم الناس ساعدوا في صناعة الثورة، ولم يكونوا ليرحلوا.

هناك الكثير الذي تم الوعد به، كما تم التهديد به حتى تقوم فرنسا بإعداد دستور كما حدث في إنجلترا أو بثورة غير دموية، كما كان في ١٦٨٨ . هذه الثورة لم تعمل لإيجاد مبادئ جديدة، وفجأة أصبح هناك فيض من المبادئ الجديدة. أوضح الملك أنه لا يقبل المبادئ الجديدة، وأنه سيغير أي مخالفة لقواعد حكمه إذا أمكنه ذلك. أعطى هذا فرصة للراديكاليين، فقد أصروا على التضامن مع عموم الناس للسيطرة على الملك أو عزله حتى يؤمنوا التغييرات. أحدث هذا رد فعل لهؤلاء الذين أرادوا التغيير، لكن ليس تغييرًا ديمقراطيًّا لهؤلاء الذين تصدروا المشهد.

سرعان ما تصارع أبناء الثورة مع بعضهم البعض. أحد أسباب عدم تحويل «ديفيد» رسمه لقسم ملعب التنس إلى لوحة كاملة هو أن عددًا من الأشخاص الذين كانوا في الرسم تم إعدامهم باعتبارهم أعداء للثورة. تبنى الراديكاليون اسم اليعقوبيين أو اليعاقبة، نسبة إلى مكان اجتمعوا فيه؛ وكان قائدهم هذا الشخص ذا البرود والصلابة «ماكسميليان روبسبيير». حول اليعقوبيون أنفسهم إلى دكتاتورية ثورية. أعدموا الملك، وطردوا معارضيهم وأغلقوا صحفهم، وشكلوا محاكم خاصة لمن اعتبروهم خونة الثورة. لقد كان لديهم هذا العذر للدكتاتورية: فرنسا في حالة خطر مدمر لها، لأن الثورة قد أعلنت حربًا على ممالك أوروبا حتى يجبروهم على تبني مبادئ «حقوق الإنسان». والجيش الذي خلقوه لهذه المهمة كان من نوع جديد، تجنيد رجال الوطن جميعًا ـ الشعب المسلح.

التنظيم العسكري	الإطار السياسي	شكل التحية

	مواطنون ـ جنود	العام ٥٠٠ ق. م ديمقراطية يونانية ـ الجمهورية الرومانية	التحية الجمهورية
كلاسيكيون	جنود مشاة برواتب	العام ٢٧ ق. م «أغسطس» أول إمبراطور روماني	التحية الجمهورية
	جنود مشاة أجانب برواتب	«ديوكليسيان»، «قسطنطين» الإمبراطورية الأخيرة العام ٤٧٦ سقوط روما	الانبطاح أرضًا
العصور الوسطى	فرسان (لبعض الوقت)	ملوك إقطاعيون مدن تحكمها مجالس محلية بأعضاء متساوين في القوة	ركوع تقبيل قسم وعهد متبادل
الحديث	جنود مشاة من ذوي الراتب (إنجلترا: الأسطول) مواطنون جنود (نظام تجنيد إجباري)	ملوك بسلطات مطلقة (إنجلترا: حكومة برلمانية) ١٧٨٩ الثورة الفرنسية	تقبيل اليد التحية الجمهورية

لقد قرأ الثوريون ما كتبه «ليفي» عن الراعي الأعلى للاستبداد الثوري «بروتوس»، مؤسس الجمهورية الرومانية الذي وافق على إعدام أبنائه. لقد كان هناك تمثال نصفي لـ«بروتوس» في الجمعية الوطنية جوار المنصة. أطلق اسم «بروتوس» على الشوارع؛ وسمى الآباء أبناءهم باسمه «بروتوس». وعندما قام اليعقوبيون بإنشاء الجمهورية، لم يعد في إمكانهم أن يلعبوا الورق بصور ملوك عليها، أو ملكات. استبدلوها، وأحلوا محلها صور محاربين ورموز الثورة. «بروتوس» كان من هذه الرموز. وأشاروا إلى الملك باسم «تاركين»، كما كان آخر اسم لملك قبل الجمهورية في روما، كانت جريمة أن تدعو لإعادة الملكية. هذه القيمة الجمهورية المتشددة ـ والاعتقاد أن كل شيء يجب التضحية

به من أجل الدولة ـ الاستعداد لرؤية أنهار من الدم والاعتقاد بأنها مطهرة: لقد كان هذا هو الإسهام الروماني لأول دولة مستبدة في العصر الحديث.



رسم يظهر فيه «ميرابو»، قائد الثورة الفرنسية في أول عهدها. وبجانبه يظهر تمثال لـ«بروتوس» وفي الخلفية على الحائط رسم لـ«ديفيد» الذي يظهر «بروتوس» عند إحضار جثث أبنائه إلى منزله

الفصل السادس: أباطرة وباباوات

يبدأ تاريخ أوروبا بإمبراطورية عظيمة ثم بانهيارها بعد ذلك. لقد أخذت أوروبا الكثير عن الإمبراطورية الرومانية، وتشكلت معالمها بقوة إثر سقوطها. هذا العنوان لكتاب هام لـ«إدوارد جيبون» «تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية» مسطور في وجدان الأوروبيين. ماذا كان شعور الناس بعد هذا الحدث العظيم؟ بعدما علموا أنه كانت هناك هذه الحضارة العظيمة ثم اختفت؟ لكنك إذا سألت أحد لوردات أو علماء العصور الوسطى، كيف كان الأمر في حياتك وقد سقطت الإمبراطورية الرومانية، لتعجبوا من السؤال. في أعينهم أن الإمبراطورية الرومانية قد استمرت. في الواقع، كان هناك كيان يسمى الإمبراطورية الرومانية حتى القرن التاسع عشر. فآخر إمبراطور روماني حدد أصوله ومنبته ليرجع به إلى «أغسطس». كيف كان ذلك؟

بدأ عهد «أغسطس» في العام ٢٧ قبل الميلاد، وفي الغرب استمرت الإمبراطورية التي شكلها لمدة ٥٠٠ عام. وفي حدود العام ٤٠٠ بعد الميلاد انقسمت الإمبراطورية إلى شرق وغرب، واستمرت الإمبراطورية الشرقية ألف عام آخر حتى سقطت في عام . فالبرابرة الذين غزوا الإمبراطورية الرومانية الغربية، اعترفوا بإمبراطور الإمبراطورية الشرقية. «كلوفيس»، أول ملك للفرنجة، تبوأ منصب القنصل بمباركة من الإمبراطور

في الشرق. والبابا الذي استمر في منصبه في روما، اعترف أيضًا بهذا الإمبراطور. فبالرغم من كل الغزوات البربرية وسقوط الإمبراطورية الغربية، فإن المكونات الرئيسية للنظام القديم كانت تعمل بشكل ما. لقد كان هناك البابا في روما، وكان هناك إمبراطور، إمبراطور روماني مسيحي، أقام في القسطنطينية. هاتان السلطتان، البابا والإمبراطور، اشتركتا في السيطرة على العالم المسيحي. لكن عندما احتاج البابا مساعدة الإمبراطور، لم يقدم له نفعًا.

أتى الخطر الذي هدد البابا من اللومبارديين، الذين شكلوا الموجة الثانية من الغزاة الجرمانيين في القرن الثامن. كانوا ينتوون السيطرة الكاملة على إيطاليا، بما في ذلك روما، وكل الأراضي حولها. وقد شكل هذا تهديدًا شديدًا للبابا. حتى يومنا هذا، فإن البابا مازالت له حيازة قطعة أرض، مدينة الفاتيكان. صغيرة الحجم، ولكنها دولته، وليست جزءًا من إيطاليا. خشي الباباوات على استقلالهم إذا لم تعد لهم سيادة على قطعة أرض. تخيل لو كان الفاتيكان جزءًا من إيطاليا. ربما أصدرت إيطاليا قانونًا يوجب تكافؤ الفرص في كل مجالات الحياة، بما في ذلك الكنيسة. وبهذا قد تخضع الكنيسة لتحقيق بشأن عدم تعيينها أساقفة من الإناث، ناهيك عن البابا نفسه. وقد تخضع أموال الكنيسة أيضا لضرائب تفرضها الدولة الإيطالية. وربما تصدر إيطاليا أيضًا قانونًا يفرض وجود عوازل طبية في كل الحمامات العامة.

لم يرغب البابا في القرن الثامن أن يكون خاضعًا لسلطة اللومبارديين. استغاث

بالإمبراطور الشرقي، لكنه كان في شأن آخر يحاول صد غزوات المسلمين. فتوجه البابا شمالًا، عبر جبال الألب، حيث الفرنجة أو «الفرانكس»، وهم من أصول جرمانية وشكلوا أقوى دولة في الغرب، فيما يعرف الآن بفرنسا. توجه الملك «بيبان»، الذي يدين بالمسيحية، جنوبًا حيث إيطاليا، وأخضع اللومبارديين. وترك البابا في روما في مأمن من خلال حزام أمني حوله، ويخضع له. وبكثير من التغيير في الحدود، صمد هذا الإقليم حتى القرن التاسع عشر، وحتى هذا الوقت الذي شهد تشكيل إيطاليا الموحدة، ثم تقلص ملك البابا حتى صار إلى ما هو عليه الآن كمساحة منديل الجيب.

ابن الملك «بيبان» هو «تشارلز» الأكبر أو «شارلمان»، والذي توسع في ملك الفرنجة. وامتدت أراضيه عبر جبال البرانس حتى وصلت إلى إسبانيا، وإلى منتصف الطريق إلى إيطاليا، بما في ذلك الأرض التي خصصها أبوه للبابا، وشرقًا حتى النمسا، وجانب من ألمانيا المعاصرة. ومنذ سقوط روما، لم تصل دولة في أوروبا إلى هذه المساحة الشاسعة، باستثناء الإمبراطوريات قصيرة العمر التي أقامها «هتلر» و«نابليون». في ألمانيا، تعامل «شارلمان» مع السكسونيين، الذين لم يتجاوزوا الحدود إلى الإمبراطورية الرومانية. كانوا وثنيين، فأعطاهم خيار أن يكونوا مسيحيين، أو عبيدًا يساقون إلى قلب إمبراطوريته.

في عام ٨٠٠ زار «شارلمان» روما وحضر قداس عيد الميلاد في الكاتدرائية. ودون سابق علم منه، وضع البابا، بعد القداس، تاجًا على رأس «شارلمان» وأعلنه إمبراطورًا

رومانيًّا. لقد صنع البابا إمبراطورًا بنفسه، حتى يحصل على القوة التي تمكنه من حماية نفسه. ولكن باعتبار أنه أدار بهذا ظهره للإمبراطور الشرقي، أراد ان يجعل لما يفعل ذريعة. ما الذي يمكن أن يكون أسهل! تولت عرش القسطنطينية امرأة، أعمت ابنها، والذي كان إمبراطورًا، وتخلصت منه، ووضعت نفسها على العرش. وبقرار من البابا، لم تعد إمبراطورة على الغرب.



امتدت مملكة الفرنجة لتشمل فرنسا المعاصرة وأجزاء من ألمانيا وإسبانيا وإيطاليا

فيما بعد حدثت خلافات بين عدة باباوات وأباطرة، حول ما حدث فعلًا في الكاتدرائية في يوم عيد الميلاد لعام ٨٠٠. أكد الباباوات، أن البابا في ذلك اليوم هو

الذي وضع التاج على رأس «شارلمان»، بما يشير إلى أن البابا أعلى سلطة من الإمبراطور. لكن بعدما وضع البابا التاج على رأسه انحنى له. وبهذا اعتبر الأباطرة أن البابا أقر بسلطة الإمبراطور العليا. وأباطرة قالوا بقدر من التعقل أن البابا قد فعل ذلك لكي يختار حاميًا له، لأن «شارلمان» جعل من نفسه شخصًا قويًّا في حد ذاته، وأن قوته لم تكن لتعتمد على مساعدة البابا في شيء.

كانت إمبراطورية «شارلمان» مختلفة عن الإمبراطورية الرومانية، وكان «شارلمان» حاكمًا مختلفًا عن الإمبراطور الروماني. لقد كان بالأساس ملكًا بربريًّا. علم نفسه؛ تعلم القراءة، واستطاع قراءة اللاتينية ـ لكنه وجد صعوبة في الكتابة. وحتى مماته، أبقى «شارلمان» بجانب فراشه قطعة صغيرة من الشمع، حتى يتدرب على الكتابة لكنه لم يستطع أبدًا إجادتها لكنه تمتع بفهم واضح للإمبراطورية لتمدين القوة، وهذا مما تعلمه من النموذج الروماني. عاش أجداد «شارلمان»، من الجرمانيين، من أجل سلب الإمبراطورية ونهبها، ولهذا غزوها. شكلت حكومات لتكون نظامًا للنهب، ولتفيد من في السلطة وأصدقاءهم. لقد ظهرت حكومات كثيرة، قديمًا وحديثًا، على هذا النحو. القديس «أوجستين»، الذي عاش في أواخر أيام الإمبراطورية في جانبها الغربي. في كتاب «مدينة الرب» لـ«أوجستين»: «إذا لم تكن هناك عدالة، فلن تكون الممالك إلا أماكن للسلب الكبير». علم «شارلمان» بهذا العمل، وكان القديس «أوجستين» من أفضل كتابه. كان «شارلمان» قاسيًا في الخصومة مع السكسونيين الوثنيين في الشرق

حتى تحولوا إلى المسيحية. لكن بعدما أصبحوا مسيحيين تحت ولايته، أخذ على نفسه أن يحكمهم بالعدل.

ورغم أن «شارلمان» كان فقير التعليم، إلا أنه شجع التعليم وأصبح راعيًا لأهل العلم، الذين أمرهم باستكشاف ونسخ الأعمال القديمة. أغلب الأعمال المكتوبة باللغة اللاتينية، التي بقيت إلى يومنا هذا، تم نسخها في زمن «شارلمان». بدونهم لأصبح التراث الكلاسيكي في غاية التواضع.

واجه «شارلمان» معوقات كبرى. لم يكن لديه جهاز إداري: كان التواصل ضعيفًا وحجم التجارة محدودًا؛ والمدن صغيرة، وكانت هناك فوضى. وفي هذا كله كانت إمبراطوريته مختلفة عن الإمبراطورية الرومانية. كانت طريقته في الحكم أن يعين في المقاطعات دوقًا أو كونتًا، حتى يسيطر على اللوردات المحليين، ويضمن ولاءهم لـ«شارلمان»، لم تكن هناك قاعدة مؤسسية لإمبراطوريته، لقد اعتمدت الحكومة على قوة شخصية الحاكم.

بنى «شارلمان» قصره في مدينة «أخن»، القريبة من الحدود الحالية بين ألمانيا وبلجيكا، والقريبة في زمنه من موقع المركز لحكمه المتمادي الأطراف. واليوم لم يعد هناك أثر إلا للكنيسة التي بناها على الطريقة الرومانية، مشابهة لمعمار روما بهذه الأقواس المستديرة. والأعمدة الحاملة للأقواس كانت رومانية، حملها «شارلمان» نفسه من إيطاليا.

بعد بناء هذه الإمبراطورية الكبيرة بجهد عظيم، قرر «شارلمان»، كعادة الجرمانيين، أن

يقسم الإمبراطورية بين أبنائه. لكن ولدًا واحدًا من أبنائه هو الذي عاش بعد موته. مما أجل تقسيم الإمبراطورية لجيل لاحق لأحفاده. تقاتل الأحفاد فيما بينهم، وتقسمت الإمبراطورية إلى ثلاث: القسم الغربي أصبح ما يعرف اليوم بفرنسا، والقسم الشرقي يشكل قاعدة بناء ألمانيا المعاصرة. لكن بسبب الحروب بين الأحفاد، وبفعل فوضى سببتها غزوات الشماليين، اختفت طريقة «شارلمان» في السيطرة. قام الدوقات والنبلاء والكونتات بتثبيت سلطتهم كرجال أقوياء في مقاطعاتهم وبولاء ضعيف لمن تأتي به المقادير ملكًا. تراجعت أوروبا لما كانت عليه بعد سقوط روما، توزعت قوة الحكم، وقبل تأسيس ممالك قوية، كان على الملوك إخضاع الدوقات والكونتات لسيطرتهم.

وباختفاء «شارلمان» وإمبراطوريته، فقد بابا روما نصيرًا قويًّا يحميه. ولفترة رضي البابا بالتعاون مع أي أمير محلي يقابله، ونصبهم كأباطرة. وبعد ذلك في عام ٩٦٢، صعد نجم ملك قوي في القسم الألماني لإمبراطورية «شارلمان» القديمة، وهو الملك «أوتو» الأول. نصبه البابا إمبراطورًا رومانيًّا، ومن بعده أصبح أي ملك لألمانيا إمبراطورًا رومانيًّا، ثم إمبراطورًا صاحب قداسة.

كان ملوك ألمانيا هم الوحيدين في أوروبا الذين تم انتخابهم. كان العُرف عند الألمان قبل دخولهم في الإمبراطورية هو المزج بين الإرث والانتخاب. كانت هناك عائلة ملكية بعدد كاف من الرجال الذين يمكن ترشيحهم. وكان هذا بغرض أن يكون هناك محارب جيد يمكن اختياره كملك؛ لم يرغب رجال القبائل الجرمانية أن ينتهي أمر

حكمهم إلى ملك فاشل.

ما حدث هو أن فرنسا، ولفترة طويلة من الزمن، استطاعت أن تنتج أبناء قادرين على وراثة الحكم، لذا أصبحت الملكية بالميراث كوسيلة وحيدة لتحديد من سيكون ملك فرنسا. لكن الوضع كان مختلفًا في ألمانيا، فلم ينجب الملوك دائمًا أبناء قادرين على الحكم، لذا تم تبني نظام الانتخاب، واستمر بقوة بعدما أصبح ملوك ألمانيا أباطرة ذوي قداسة. كان للإمبراطور سلطة رعاية العالم المسيحي، وكانت آلية الانتخاب تمكن، نظريًّا، أي أمير مسيحي من أن يتم اختياره للمنصب الكبير. من الناحية العملية، كان الاختيار دائمًا لأمير ألماني. في البداية كان هناك عدد كبير من الناخبين، رجال محليون أقوياء كالدوقات والأساقفة والمطارنة، وفي النهاية انتهى العدد إلى سبعة فقط من الناخبين.

كان على الملك الألماني، أي الإمبراطور، أن يدخل في صراع كسائر الملوك في كافة الأماكن في أوروبا، حتى يمد سلطته إلى الرجال الأقوياء في المقاطعات المختلفة. بعضهم من «ناخبي» الملك. ولما كان على الملك أن يمد يد المجاملة إلى مجمع الناخبين، فكان الأمر ينتهي إلى منح مزيد من السلطة بدلًا من استردادها منهم. كان الوضع أكثر تعقيدًا، لأنه بالإضافة إلى الصراعات المحلية من أجل السيطرة، كان هناك صراع امتد لقرون من المعارك للأباطرة مع شخص تحداهم في القوة والمكانة: وهو شخص البابا.

تعاون البابا والإمبراطور في مساعدة أحدهما الآخر لبناء سلطتيهما. قدم الأباطرة

الحماية للباباوية، وبشكل رئيسي من خلال حماية أراضي الباباوية. وفي مناسبات عديدة تدخلوا حتى يكون في روما بابا ورعًا للكنيسة، وليس مغامرًا يتمكن من كرسي القديس بطرس. وفي المقابل ساعد الباباوات الأباطرة بتتويجهم ومنحهم لقب «الإمبراطور الروماني». لكن مع قدوم القرن الحادي عشر انفصل الخطان لأن الباباوات أرادوا أن تدار الكنيسة من روما، وألا يتدخل الملوك والأمراء في شئونها.

كانت الكنيسة الكاثوليكية «المؤسسة الدولية» الأهم في العصور الوسطى، لكنها كانت دائمًا مهددة بتقليص نفوذها من قبل الملوك وأصحاب النفوذ في المقاطعات ورغبتهم في السيطرة على الأساقفة المحليين. لم يكن هذا من أجل أن يكون لهؤلاء شأن في أعمال الكنيسة، لكن من أجل النفوذ إلى ما كان في حوزة الأساقفة من سلطة لتعيين أشخاص في وظائف القساوسة وغيرها، وما تحكموا فيه من أراض وأملاك تعود على الكنيسة بدخل كبير. في أحوال معينة كان للكنيسة ثلث مساحة الأراضي، وفي ألمانيا ملكت الكنيسة نصف الأراضي. أصحاب السلطة المدنية أرادوا التأثير على قدرة الأساقفة في استخدام نفوذهم.

عندما نقول إن الكنيسة كانت كيانًا دوليًّا، فكر فيه على هذا النحو، شركة تويوتا، والتي تدار من طوكيو، تعمل في نشاط صناعة السيارات. افترض أن المدير التنفيذي لفرعها في أستراليا قد عينه رئيس حكومة أستراليا، ومدير مصنعها عينه محافظ المدينة. من الناحية الرسمية، فإن مدير الفرع ومدير المصنع يدينان بالولاء لطوكيو، لكن من

الناحية العملية، فطالما كان تعيينهما من قبل رئيس الحكومة ومحافظ المدينة، سيراعيان ألا يكون هناك ما يزعجهما. ورئيس الحكومة ومحافظ المدينة اللذان لا علم لهما بصناعة السيارات، سيمنحان هذه الوظائف لأشخاص قد يريدون إسعادهم بتعيينهم. هكذا كانت الكنيسة في العصور الوسطى، قلل من شأنها، وأساء استغلالها ذوو الصلة بالنفوذ والملكيات الأوروبية.

أراد أحد باباوات روما، وهو «جورج» السابع، أن يعطل كل هذه الترتيبات، وأن يرجع السلطة إلى روما، وكان ذلك في عام ١٠٧٣. وقرر أنه السلطة المخولة بتعيين الأساقفة. الإمبراطور هنري الرابع قرر أنه هو الذي سيستمر في فعل هذا، وتمسك الإمبراطور برأيه فطرده البابا من الكنيسة. لم يعد بإمكان الإمبراطور أن يعقد قداسًا، أو يحصل على أي خدمة من خدمات الكنيسة. كان هذا سلاحًا بتارًا في يد الباباوات، فبقدرتهم على طرد ملك من الكنيسة، فهم يقولون لرعايا هذا الملك بأنه ليس عليهم أن يطيعوه. وفي هذه الحالة فإن دوقات ألمانيا وأمراءها الذين حاولوا التخلص من سلطة الإمبراطور حلت عليهم السعادة بأن الإمبراطور قد طرد من الكنيسة، وأنهم يمكنهم تجاهله.

تقدم «هنري» الرابع حتى اعتلى جبال الألب في الشتاء، ووجد البابا متحصنًا في قلعة في «كونوسا» في شمال إيطاليا. انتظر ليومين أو ثلاثة، مع سقوط الثلج، متوسلًا أن يلتقيه البابا. أبعد حاشيته، وأتى في ملابس متواضعة. في النهاية استجاب البابا

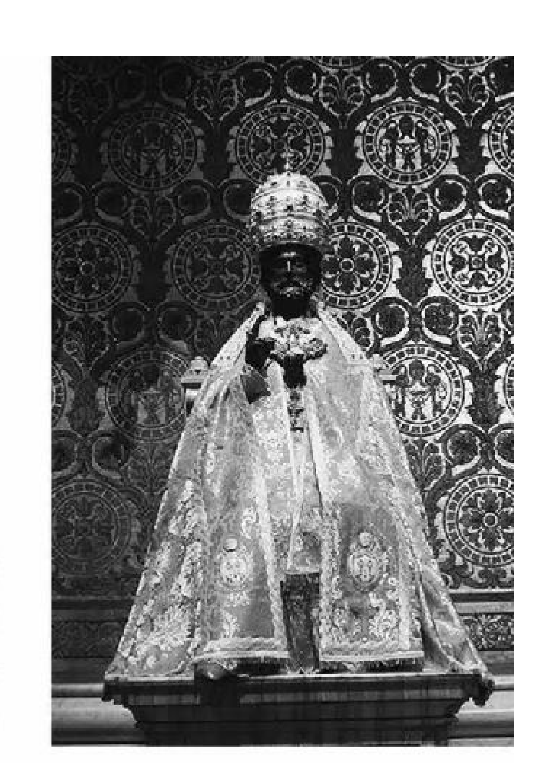
لتوسلات الإمبراطور، والذي ركع أمامه طالبًا الصفح. وقام البابا بإعادته للكنيسة، مما سبب إزعاجًا لأمراء ألمانيا. وكان ذلك محضًا على التواضع من ناحية «هنري» بالطبع، ولكنها كانت حيلة ذكية. لقد كان من الصعب على البابا أن يرفض منح الغفران، وإن لم يغير الإمبراطور موقفه بالكامل. استمر النزاع لسنوات طويلة، وفي النهاية تم الاتفاق على حل وسط. سمح للإمبراطور أن يكون له رأي في اختيار الأساقفة، لكن ظلت السلطة للبابا قائمة في منحهم معاونين لعملهم، وتقديم الرداء الرسمي لهم.

هذه المعارك استمرت بين الباباوات والأباطرة لزمن طويل. لقد كانت معارك بمعنى الكلمة. دخل باباوات في حرب ضد أباطرة. لعلك تسأل كيف يدخل البابا حربًا، البابا له سلطات ملكية؛ لديه مقاطعات وأقاليم يحصل منها الضرائب، ويدفع من إيراداتها لمن يجندهم للجيش. يقوم البابا بالبحث عن حلفاء كلما أمكنه ذلك. تحالف البابا في مرحلة مع الأمراء الألمان الذين اعترضوا على سلطة الإمبراطور. وفتحوا جبهة خلفية في خطوط الإمبراطور. مدن شمال إيطاليا، والتي أصبحت الأكثر ثراءً في أوروبا، ولم يرضوا بسلطة الإمبراطور الذي بلغ توسعه الأطراف الجنوبية أيضًا. في أحيان كثيرة تحالفت مدن الشمال مع البابا ضد حكم الإمبراطور. وفي أحيان أخرى غيرت المدن ولاءاتها وفقًا لمن كانت له الغلبة.

البابا كمحارب وصف بشكل بديع من قبل فنان عصر النهضة «سيلليني» في مذكراته. وكحال كثير من رجال عصر النهضة، كان «سيلليني» متعدد المواهب، صائغًا

متميزًا للمجوهرات، ومتمكنًا من التعامل مع السلاح. عندما تعرضت روما للهجوم، وقف «سيلليني» وراء البابا يعطي الأوامر لتصويب المدافع. وبين أعداء البابا، كان هناك مقاتل إسباني متقدم في السن، حارب في صف البابا ثم انقلب عليه. كان واقفًا على مبعدة من مرمى النيران ظانًّا أنه آمن، فكان وقوفه مسترخيًا، وسيفه معلقًا أمامه. أعطى سيلليني أمره للمدافع أن تطلق حميمها. كانت إحدى الطلقات قد أفلتت، اصطدمت القذيفة بسيف المقاتل فشطرت جسده نصفين. ابتأس سيلليني لهذا الحادث بأن قتل شخصًا دون أن يمهله وقتًا ليستعد، ركع سيلليني أمام البابا سائلًا الغفران. لكن البابا كان مغتبطًا لفعله. قال البابا: «نعم أمنحك الغفران؛ أغفر لك كل أعمال القتل التي ارتكبتها في خدمة الكنيسة».

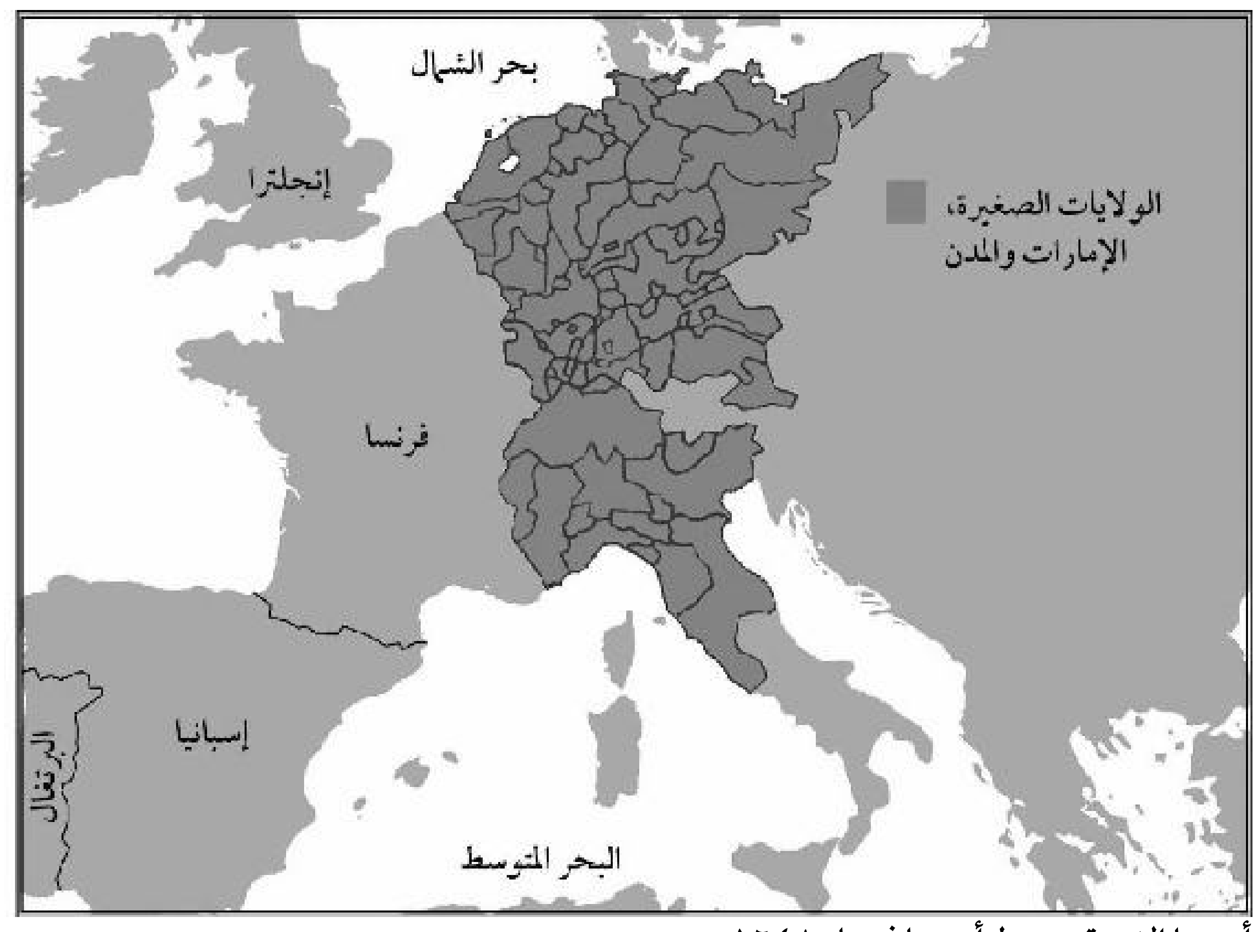
هذا تمثال للقديس «بيتر»، أول أساقفة روما، مرتديًا زي أحد باباوات العصور الوسطى، برداء فاخر وتاج عظيم. لم ينس أصوله المتواضعة كصياد: فكانت إحدى قدميه عارية. أغلب الناس في العصور الوسطى لم يتضرروا من هذا التفخيم. كان على البابا أن يكون أميرًا عظيمًا، وله أن يحظى بكل الزخارف والأبهة التي تحيط بأرباب القصور، لأنه رأس الكنيسة، وعليه أن يقابل الملوك والأمراء كند لهم.



تمثال من البرونز للقديس «بيتر» في حلته، في موقعه في كاتدرائية القديس «بيتر» في روما

حارب الأباطرة والباباوات بعضهم بعضهم دون التوصل إلى نتيجة حاسمة. لم يحصل أيهم على نصر كامل. كانت نزاعاتهم كتلك التي قد تنشب بين العمال وأصحاب العمل. إضرابات وتهديد بالفصل، وفي أحوال كثيرة كان النزاع عنيفًا ومؤلمًا، لكن في النهاية تكون هناك تسوية بشكل ما، وسيظل دائمًا هناك عمال وأصحاب عمل. أهمية هذا الصراع بين الباباوات والأباطرة، أنه لم يدَّعِ أي إمبراطور أنه محل البابا، ولم يدَّعِ أحد الباباوات أنه إمبراطور. اشتركوا في الاعتراف بضرورة وجود الطرف الآخر. هذا أمر فاصل وفارق بين خصائص أوروبا الغربية وتلك في الإمبراطورية البيزنطية في الشرق. كانت الممارسة في القسطنطينية أن الإمبراطور ليس فقط الحاكم للأمور المدنية للإمبراطورية، لكنه أيضًا رأس الكنيسة. كان هناك بطريرك، لكنه معين من قبل الإمبراطور وقت سيطرته. في الغرب انفصلت السلطتان الدينية والمدنية وكانت لهما

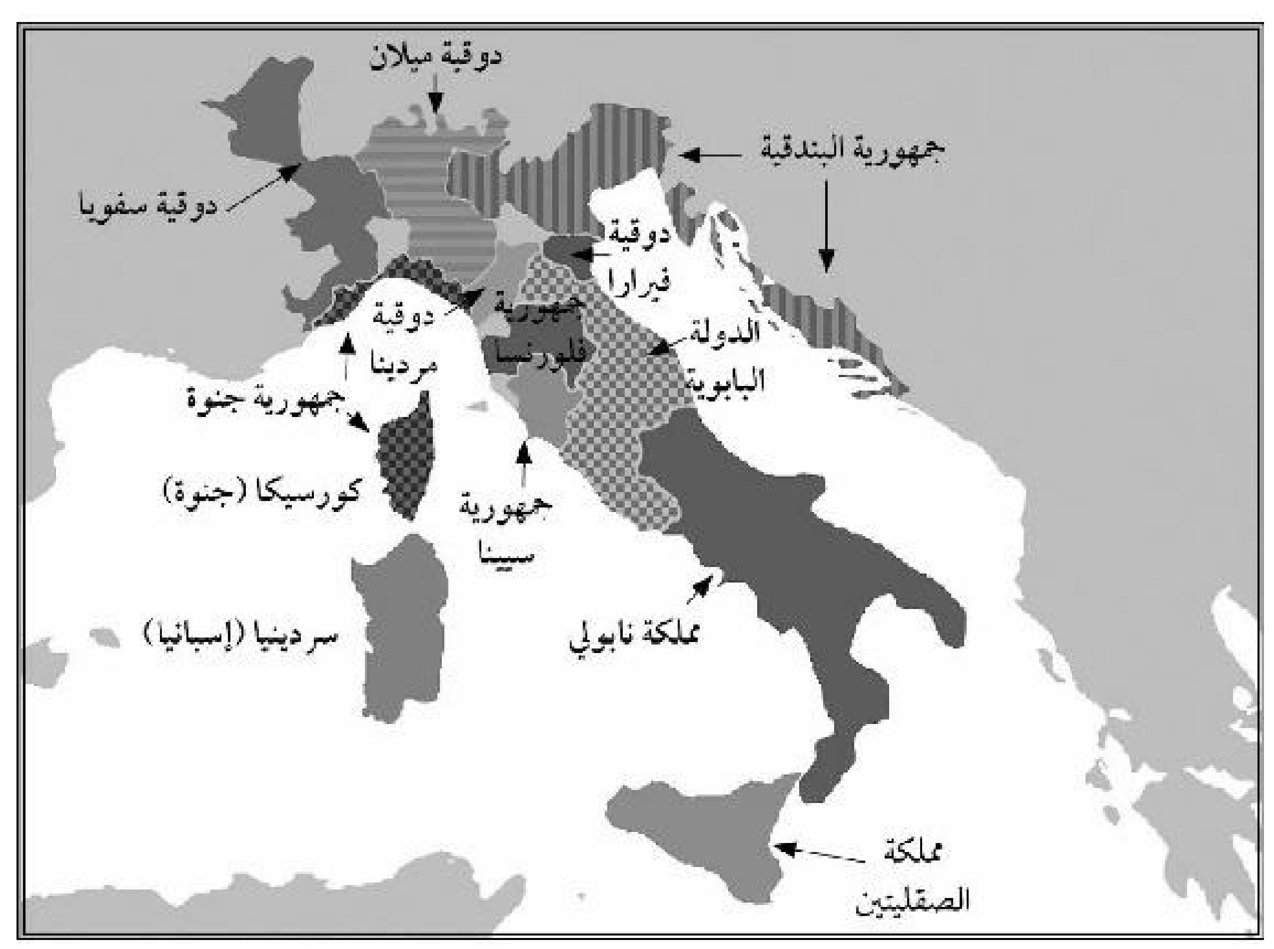
مؤسساتها. كان هذا حدًّا مانعًا للملوك إذا ما أرادوا تجاوز السلطة.



أوروبا الغربية ووسط أوروبا في عام ١٦٤٨

كانت النتيجة الرئيسية لهذا الصراع بين الأباطرة والباباوات أنهم أنهكوا بعضهم البعض. والأثر طويل المدى تمثل في تشكيل خريطة وسط أوروبا من ألمانيا شمالًا حتى إيطاليا جنوبًا. في هذا التعدد لدويلات ومقاطعات ومدن صغيرة. في الغرب، حيث إنجلترا وفرنسا وإسبانيا ظهروا كدول موحدة. وتمت السيطرة على النبلاء والإقطاعيين من اللوردات وغيرهم لصالح الملوك في هذه الدول الثلاث. وفي إنجلترا حسم هذا الأمر في عام ١٠٦٦ بإخضاع الدوق «ويليام» بالقوة لكل أجزاء البلاد، موجدًا مملكة

قوية مقارنة بما حدث في أوروبا. في وسط أوروبا كانت هناك قوتان كبيرتان. أهدر الإمبراطور والبابا في صراعاتهما سلطتهم وهيمنتهم المحلية على مقاطعاتهم حتى يتفرغوا ويتمكنوا من محاربة بعضهم البعض. كانت النتيجة في هذه الحالة أن الوحدات الأصغر حصلت على قوة أكبر. حدثت نقلتان كبيرتان في أوروبا بعد عام ١٤٠٠: النهضة وحركة الإصلاح الديني. لماذا حدثت هاتان النقلتان الكبريان؟ هذا سؤال تصعب الإجابة عليه، لكن لماذا حدثتا في هذا المكان؛ هذا سؤال أيسر في الإجابة عنه.



الدويلات الإيطالية إبان عصر النهضة (١٤٩٤)

كانت المدن الشمالية لإيطاليا حيث حدثت النهضة، مدن دويلات كتلك التي كانت

في اليونان القديمة. هذه المدن كانت متنافسة عسكريًّا وثقافيًّا، دخلوا في حروب ضد بعضهم البعض، كما أرادوا أن يتفوقوا على بعضهم البعض بروعة فنونهم. ولأنهم كانوا دولًا كما كانوا مدنًا، فقد ركزوا ووطنوا عددًا كبيرًا من الفنانين المهرة في مكان واحد. لم يعتبر النبلاء، على عكس أقرانهم في باقي أوروبا، أن المقاطعات هي محال سكنهم، فعاشوا في المدن أيضًا. تنوع وحيوية حياة المدن كانت من خصائص مجتمعات بأثرها. هذه هي الأماكن التي من الممكن أن تتبنى وتطور مشاريع لإعادة العالم القديم إلى الوجود.

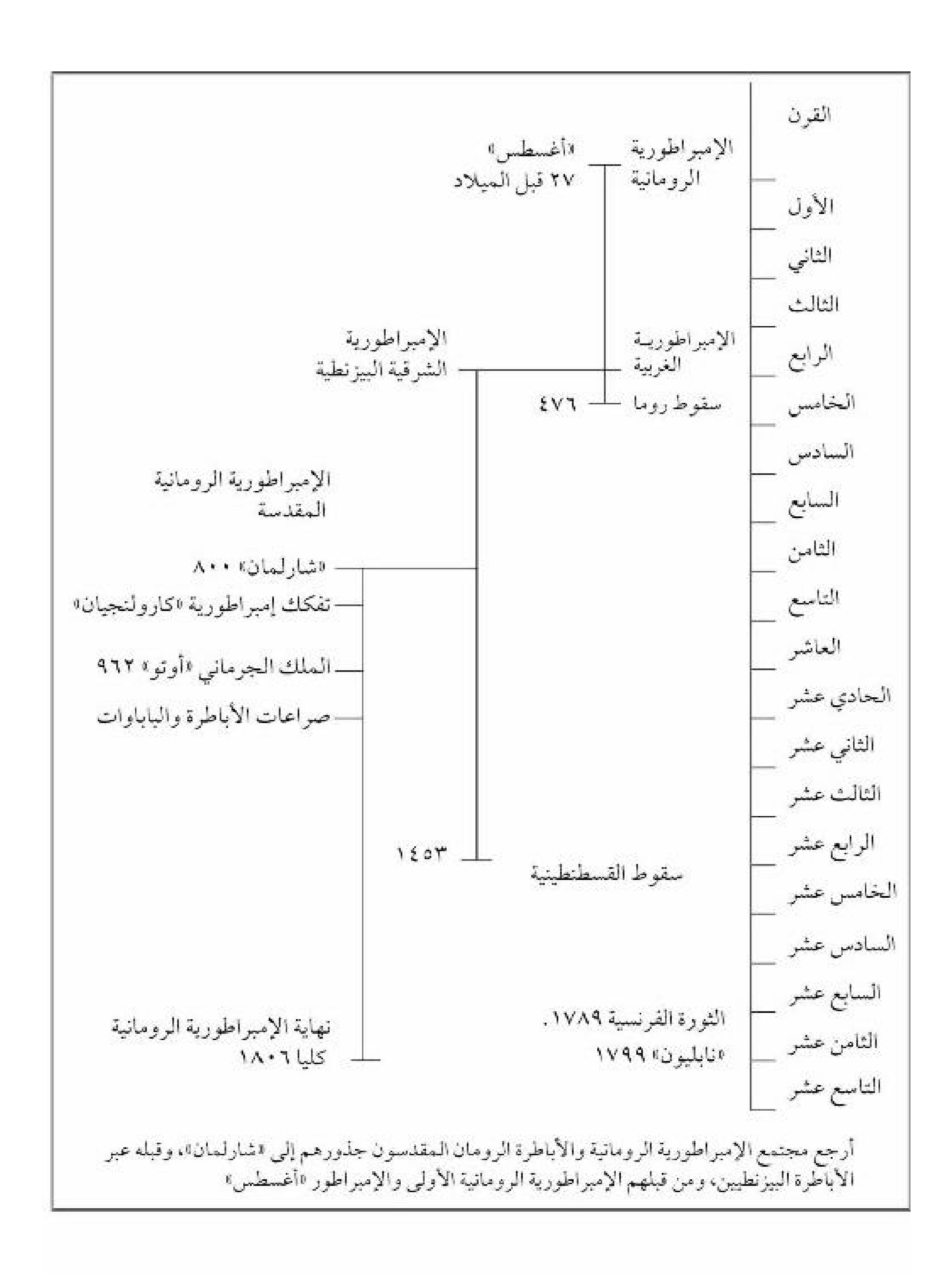
نبتت حركة الإصلاح الديني وتطورت في ألمانيا، لأن القوى العلمانية كانت متفرقة ومنتشرة فيها. كانت مهمة الإمبراطور أن يقضي على هرطقة «لوثر»، لكنه تأخر في تحقيق ذلك. منح «لوثر» الأمان في أن يمثل أمام الإمبراطور والأمراء ليختبروا آراءه. وعندما رفض المثول أمامهم، أعلن الإمبراطور هرطقته، وأنه لا يجب أن يسانده أحد، وأنه يجب القبض عليه. لكن أوامر الإمبراطور سرعان ما أجهضت من قبل «فريدريك»، حاكم مقاطعة سكسونيا، الذي حمى «لوثر» وأخذه إلى مخبأ آمن. وأثناء اختباء «لوثر» في قلعة آمنة، بدأ في ترجمة الإنجيل إلى الألمانية. رأى فريدريك وأمراء آخرون، ممن ساندوا «لوثر»، أن هناك نفعًا من السيطرة على الكنيسة والاستحواذ على أراضيها. لقد رفعوا بذلك ميزان قوتهم على حساب الإمبراطور والبابا ـ وبهذا بدأت الحركة اللوثرية.

ظلت ألمانيا وإيطاليا منقسمتين حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. قامت في البلدين حركات قومية توحد كلا منهما بجمع ما ضمتاه من مدن دويلات وانتفعتا بالحركة القومية التي أججتها الموجة الرومانسية. في القرن العشرين كانت هاتان الدولتان هما اللتين طبقتا مفاهيم القومية، في أشد أشكالها عنفًا ونبذًا للآخرين، تحت مسمى الفاشية.

ورغم أن وظيفة الإمبراطور كانت بسلطة محدودة، فإن الإمبراطورية الرومانية المقدسة صمدت. منذ أواخر العصور الوسطى، وقامت أسرة بعينها بتقديم شخص يتم اختياره انتخابًا، كإمبراطور روماني مقدس. كانت هي أسرة «هابسبرج»، واحدة من أعظم الأسر التي حكمت في أوروبا. قدموا ملوكًا لإسبانيا والنمسا وأجزاء من إيطاليا وهولندا. وكان لهم الاعتبار الأسمى باحتفاظهم بمن يحمل اسم إمبراطور؛ جاءت قوتهم من ممالكهم. انتقد «فولتير»، أحد رواد حركة التنوير، الإمبراطورية الرومانية المقدسة بأنها ليست بالإمبراطورية، ولا بالرومانية، ولا بالمقدسة حقًّا، وهو ما كان يمثل الحقيقة، لكن صمودها كان عملا سحريًا، تحمل اسمًا وفكرة قديمة بشكل غريب. لقد تطلب الأمر إرادة زعيم لإمبراطورية جديدة ليتم التخلص من هذا البقاء العجيب لبقايا الإمبراطورية القديمة. لقد كان هذا الزعيم هو «نابليون بونابرت» الذي حكم فرنسا في عام ١٧٩٩، أي بعد عشر سنوات من بداية الثورة الفرنسية.

بدأت الثورة بالمناداة بالحرية والمساواة والإخاء؛ وفي خلال أربع سنوات كانت هناك

دكتاتورية تحكم بالمقصلة؛ وعندما بدا «روبسبير» وكأنه سيحكم بذات الطريقة، رغم زوال أزمة الحرب، تم التخلص منه وإعدامه. حاول الجمهوريون المعتدلون السيطرة على حريات الثورة حتى يبعدوا عموم الناس وأنصار الملكية من الرجوع إليها، خاصة مع تزايد أعدادهم. حاولت الحكومة استخدام القوة ضد هؤلاء جميعًا باتجاهاتهم المختلفة، لكنها فقدت كل مصداقيتها. هذا أعطى «بونابرت» فرصته. كان له اسم لامع بفضل الحروب التي دخلتها فرنسا بعد الثورة ضد القوى الملكية في أوروبا. كان ابنًا بارًّا لحركة التنوير، ومؤمنًا بمبادئ الثورة، باستثناء حق المواطنين في حكم أنفسهم.



أرجع مجتمع الإمبراطورية الرومانية والأباطرة الرومان المقدسون جذورهم إلى «شارلمان»، وقبله عبر الأباطرة البيزنطيين، ومن قبلهم الإمبراطورية الرومانية الأولى والإمبراطور «أغسطس»



قوس «قسطنطين» في روما، مخلدًا نصره على الإمبراطور المنافس في عام ٣١٢ بعد الميلاد

ولما فشل الفرنسيون في هذا منذ عام ١٧٨٩، كان منهج بونابرت متمتعًا بقبول لدى الناس. كان أكثر الدكتاتوريين قدرة على الإغواء. لقد أراد ألا يتمتع جمع من الفرنسيين بمزايا تخصهم، كل المواطنين سواء في المعاملة، كل الأطفال لهم الحق في تعليم توفره الدولة، كل الوظائف تفتح للناس كافة باعتبار القدرة على شغلها. جمع «نابليون» أناسًا بقدرات هائلة في حكومته، متجاهلًا أي دور قاموا به خلال الثورة، بغض النظر عن كونهم ملكيين أو جمهوريين، مساندين للحكم الدكتاتوري ومقاصله أو معارضيه. لقد كلفهم بمهمة بناء نظام حكم منظم ومتعقل لفرنسا.

أحد أسباب عدم اكتمال الحكم المطلق للملوك الفرنسيين، هو أنه رغم بناء قدرتهم، إلا أنهم حكموا من خلال ترتيبات متفرقة في المقاطعات وليس دولة موحدة. كانت هناك نظم قانونية مختلفة، وأشكال إدارية متباينة وحزمة متشابكة من الامتيازات الخاصة، والاستثناءات منحها الملك لكي يؤمن حكمه على مناطق جديدة وولاءات جديدة لشخصه وليس بالضرورة للدولة. أزاح الثوريون كل هذه الترتيبات جانبًا، كان هدفهم دولة قومية واحدة. لكن مع احتدام صراع الثوريين والفوضى التي أحدثوها، لم يفلحوا في تأسيس نظام جديد. وكان هذا هو الهدف الذي وضعه «نابليون» لنفسه

ولمجموعة الخبراء المحيطين به. كان أهم إنجازاتهم القانون المدني والذي أتى على غرار النظام القانوني للإمبراطور «جوستنيان»، وثيقة موحدة جمعت الأحكام القانونية لكافة الموضوعات.



قوس النصر في باريس، والذي أمر بتشييده «نابليون» في عنفوان سلطانه في عام ١٨٠٦

كان النموذج الروماني هامًّا لـ«نابليون». في البداية أطلق على نفسه اسم القنصل، لكن على غرار «أغسطس»، لم يكن غرضه إلغاء الوضع الجمهوري لفرنسا. وعلى غرار الرومان، خطط لبناء إمبراطورية ممتدة، تعتمد على مبادئ الجمهورية الفرنسية في إنشاء مجتمع عادل ومستقر. استمر في حروبه ضد القوى الكبرى في أوروبا، التي تصارع ضدها الثوريون، وأحرز انتصارات كبرى ضدهم. مد «نابليون» حدود فرنسا، وفيما تجاوزها، أعاد رسم حدود ممالك وإمارات، ووضع إخوته مسئولين عنها. وعبر القارة جميعًا أزال الحقوق والمزايا الممنوحة منذ العصور الوسطى، وأحلها بنظام جديد. وبعدما تمكنت القوى الأوروبية في التعاون بعد فترة لهزيمة «نابليون»، كان من الصعب

تبديل ما رسمه «نابليون» من تنظيم. ما أسعد «نابليون»، حتى بعد نفيه إلى جزيرة سانت هيلانة في جنوب الأطلسي، هو استمرار وصمود الكود النابليوني ـ والمستمر حتى اليوم في النظم القانونية لأوروبا. ما لم يستمر هو الإمبراطورية الرومانية المقدسة. أزالها «نابليون» في عام ١٨٠٦، عندما جمع عددًا من المدن الصغيرة في ألمانيا في كونفيدرالية الراين.

لم يكن «نابليون» مؤمنًا بالرب، كان مؤمنًا بالفرصة والقدر. لكنه أدرك إلى أي مدى يتعلق الناس بعقائدهم، ومدى فائدة الدين في الحفاظ على الأخلاق والنظام. لم يكن الثوريون، كتلاميذ لحركة التنوير، من الذين أعطوا اعتبارًا للدين. لم يقسم الفرنسيون ويبعدهم عن الثورة أكثر من الهجوم على الكنيسة الكاثوليكية. استحوذ الثوريون على ممتلكات الكنيسة، وأسسوا كنيسة قومية، رفض بابا روما الاعتراف بها. عزم «نابليون» على إنهاء حالة المرارة والانقسام في المجتمع الذي أحدثه هذا. توصل إلى اتفاق مع البابا بمقتضاه تم الاعتراف بأن الكاثوليكية هي عقيدة أغلبية الفرنسيين وليس كل الفرنسيين. ورفض «نابليون» طلب البابا إلغاء الحريات الدينية، والتي سمحت للبروتستانتيين وآخرين بممارسة شعائر كنائسهم. بالنسبة لتعيين الأساقفة أعاد هذا الاتفاق الممارسة القديمة: وهي أن الدولة ترشح الأساقفة ويعينهم البابا.

حضر البابا مراسم ترسيم «نابليون» إمبراطورًا في كاتدرائية نوتردام. ومنح البابا «نابليون» وزوجته الإمبراطورة «جوزفين» البركة، كما منحهما الشعار والرموز

الإمبراطورية. لكن «نابليون» هو الذي أخذ بالتاج ووضعه على رأسه. كان التاج نسخة طبق الأصل للتاج الذي وضعه البابا على الملك «شارلمان»، تاج خفيف الوزن مفتوح على شكل إكليل الغار، كالذي كان يضعه الرومان على رءوس المنتصرين من محاربيهم.

الفصل السابع: اللغات

شاعت لغتان وكانتا الأكثر انتشارًا في الإمبراطورية الرومانية: اللغة اللاتينية في الغرب، واللغة اليونانية في الشرق. اليونانية، وإن كانت بشكل مختلف نوعًا ما، ما زالت تستعمل في اليونان، ويستعملها يونانيون يعيشون في شرق البحر المتوسط، وفي مهاجرهم حول العالم. أما اللغة اللاتينية فلا توجد بقعة حول العالم تستخدمها. يشار إلى اللاتينية باعتبارها لغة ميتة؛ إذا كان الوصف كذلك، فإنها كجثمان حي.

تم الحديث باللاتينية في البداية من قِبل أهل روما، وفي بعض أماكن حولها. انتشرت اللغة مع توسع الإمبراطورية الرومانية، وبعد مئات من السنين، استعملت اللاتينية عبر الإمبراطورية الرومانية الغربية. الخط الفاصل بين اللغة اللاتينية في الغرب واللغة اليونانية في الشرق، هو ما يعرف الآن بدول صربيا. فاللاتينية كانت لغة لكثير من سكان البلقان، وكل إيطاليا، وفرنسا، وإسبانيا، ولكنها لم تستعمل في بريطانيا. فعلى الرغم من تواجد الرومانيين في بريطانيا فقد حافظوا على لغتهم الكيلتية. في سائر الأماكن الأخرى في الغرب اختفت اللغات المحلية تدريجيًّا، وحلت اللاتينية محلها.

روما نفسها لم يكن لديها سياسة للغة، وهي أكثر السياسات العامة التي بها عناصر

الفشل الذاتي. من الصعب للغاية أن تكبح لغة، لتحل لغة أخرى محلها. لم يكن لأحد في العالم القديم أن ينكر ذلك. كانت روما إمبراطورية مدمجة لمكوناتها، إذ سمحت لقيادات المجتمعات التي غزتها أن يظلوا قيادات، وأن يكونوا أعضاء في النخبة الرومانية، ليصبح بعض منهم جنرالات، وحتى أباطرة. في النهاية، في عام ٢١٢، كل الناس في الإمبراطورية أعلن أنهم مواطنون، وبذلك محميون بالقانون. وبهذا، فإنه يرجع الفضل للإمبراطورية الرومانية، أن اللغات المحلية اختفت. اللاتينية كانت لغة الإدارة، ولغة القانون، ولغة الجيش، ولغة التجارة، وفي النهاية حازت نصرًا هادئًا.

اللغة اللاتينية التي تحدث بها الناس في أطراف الإمبراطورية لم تكن اللغة اللاتينية الرسمية التي يتحدث بها العلماء والمحامون والسياسيون، أو تلك التي تتعلمها في المدارس والجامعات. كانت اللاتينية التي تم الحديث بها من قِبل الجنود ورجال الإدارة المحلية والتجار، وحتى قبل انقسامات الإمبراطورية، كانت هناك تنوعات إقليمية. اللاتينية التي تم الحديث بها في إيطاليا كانت مختلفة عن تلك في فرنسا. وعندما تفتت الإمبراطورية، تطورت اللاتينية إلى عدد من اللغات المعروفة باللغات «الرومانسية»، أي اللغات المنحدرة من أصول روما، على نفس النحو الذي ينتمي فيه المعمار الرومانسي للأشكال الرومانية للمعمار.

أهم اللغات الرومانسية، هي الفرنسية والإيطالية والإسبانية. انظر مثلًا إلى كلمة حصان في اللغات الثلاث: في الفرنسية «تشيفال»، وفي الإسبانية «تشابالو»، وفي

الإيطالية «تشافالو»، لا يوجد هنا إشارة للكلمة اللاتينية للحصان وهي «إيكوس». في الإنجليزية «هورس»، والتي تنحدر من الألمانية، ولكن في الإنجليزية هناك «إيكوستريان» بمعنى خيّال، أو أي شيء متعلق بالحصان، والتي تأتي من الأصل اللاتيني. الكلمات اللاتينية في اللغة الإنجليزية هي عادة كلمات أكثر رسمية. من كلمة حصان التي تنطق «هورس» لدينا كلمة تنطق «هورسي»، ولكنه من الأليق أن نقول «إيكوستريان» للفارس أو شخص مهتم بالفعاليات المتعلقة بالحصان. في اللاتينية كانت هناك كلمة عامية للحصان، «تسابالوس»، ومن هذا الشكل للكلمة أتت الكلمات «الرومانسية» لكلمة حصان: «تشيفال» (فرنسية)، «تشابالو» (إسبانية)، «تشافالو» (إيطالية). والإسبانية والإيطالية في هذه الحالة أقرب للأصل اللاتيني من الفرنسية.

يأخذ الفرنسيون لغتهم بجدية. الأكاديمية الفرنسية تناقش أي كلمة إنجليزية قبل أن يسمح بدخولها في لغتهم: هل كلمة «تي شيرت» أو «بلدوزر» مقبولة؟ وهل تكون «لا تي شيرت» أم «لو تي شيرت»؟ اعتمادًا إذا ما كان الـ«تي شيرت» مذكرًا أو مؤنثًا (وهو أمر لا يعيره الإنجليز اهتمامًا) ليس من الحكمة أن يذكر أحد الفرنسيين بأن اللغة التي يحاولون حمايتها، هي شكل ضعيف الشأن من أشكال اللغة اللاتينية.

اللغة اللاتينية، هي لغة شديدة التصرف؛ بمعنى أن معنى الكلمة في عبارة، يعتمد على نهاية الكلمة (أي إعرابها وصرفها). الكلمة اللاتينية لكلمة سنة هي «أنوس» (ومنها

نأتي بالكلمة الإنجليزية التي تنطق «أنوال» أي سنوي، وهي كلمة أكثر رسمية من كلمة «ييرلي»). الكلمة اللاتينية للرب هي «دومينوس». إذا أردت أن تقول باللاتينية «في سنة الرب»، فإن نهايتَي الكلمتين ستصبحان «أنو دوميني» بدلًا من «أنوس» و«دومينوس». «أنو» تعني في سنة، و«دوميني» تعني الرب، كمضاف إليه في هذه الحالة. ومن الحرفين الأوَّلين للكلمتين «أنو دوميني» (أ) و(د) AD باللاتينية، نجد النتيجة السنوية التي تحصر وتعد السنين الواحدة تلو الأخرى منذ ميلاد المسيح. ولأنها لغة متصرفة، فإنها لا تحتاج إلى حروف مثل «في» و«اللام». هناك كلمتان باللاتينية «أنو دوميني» تقابل ست كلمات بالإنجليزية «في الـ «سنة» الخاصة بالـ «رب». وهذا سبب من أسباب أن اللغة اللاتينية مناسبة للشعارات والرموز، لأنها لغة موجزة. لا تحتاج إلى كلمات إضافية بين الكلمات الرئيسية. ولا تحتاج اللاتينية إلى أداة التعريف أو أداة تنكير. أنوس تعني الـ«سنة» أو «سنة».

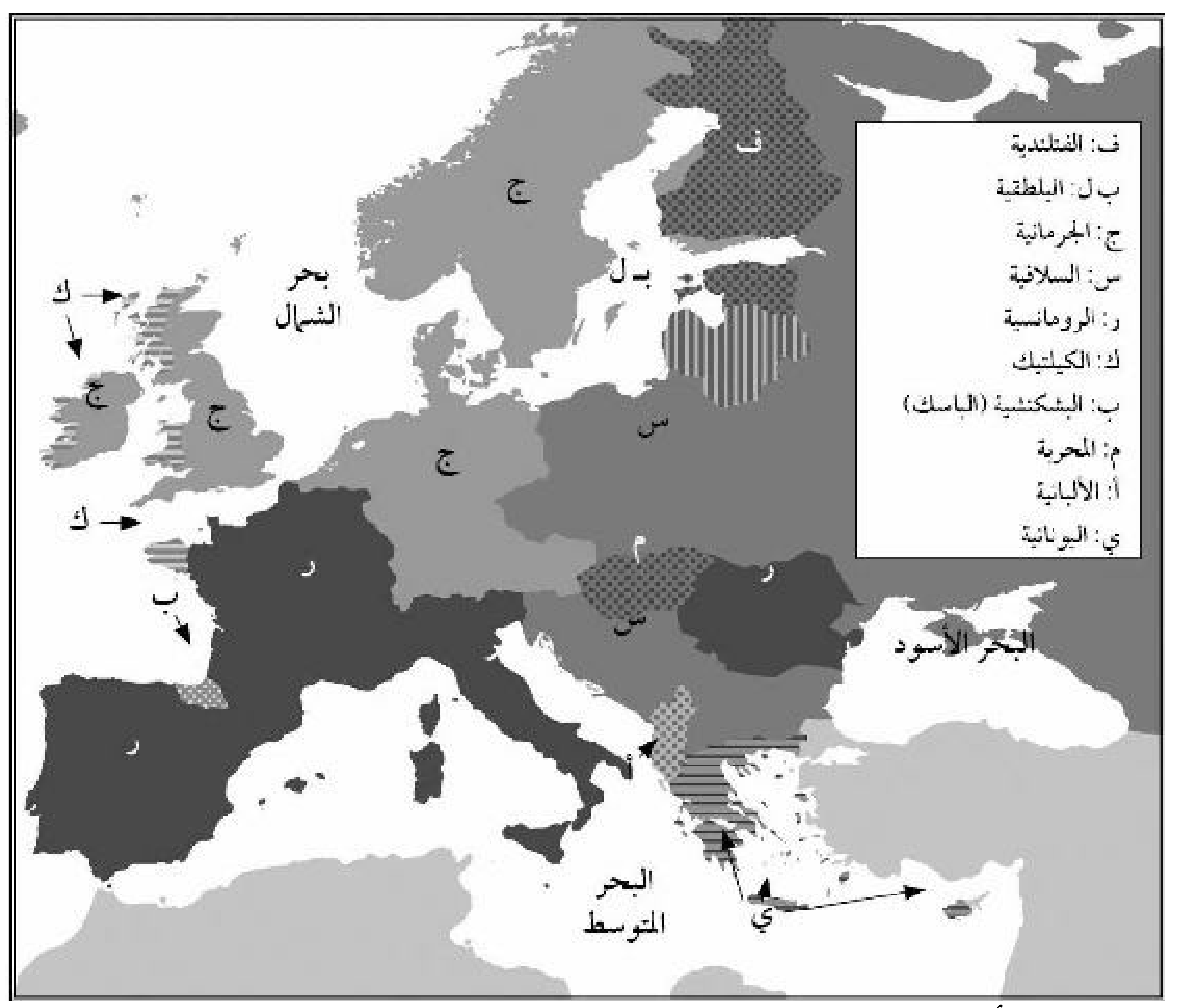
ترتيب الكلمات في اللغة اللاتينية ليس مهمًّا. دوميني أنو مازالت تعني «في سنة الرب». في الإنجليزية، إذا غيرت ترتيب الكلمات، فسيتغير المعنى، أو لن تكون بأي معنى.

كانت في اللاتينية حروف مثل «في» و«من» و«اللام»، التي يمكن استخدامها للتأكيد. لكن باعتبار أن اللاتينية تم استخدامها من قبل أناس لم تتضح لهم قواعدها، بدءوا في استخدامها غير عابئين بنهايات الكلمة. فتدريجيًّا تحولت اللاتينية من لغة تتغير نهايات

كلماتها، إلى لغة لا تتغير نهايات كلماتها، بغض النظر عن استخدام الحروف قبلها. وهذا يفسر لماذا لا تتصرف الكلمات في اللغات «الرومانسية»، وبهذا فإن ترتيب الكلمات حيوي جدًّا في جُملها.

في اللاتينية لا توجد حروف تعريف أو توكيد، فإذا أردت أن تؤكد على أمر، فيمكنك القول: «أريد شراء هذه التفاحة» أو: «أعطني ثمرة الخوخ هذه». ما يستخدم للتعريف هو ما يلفظ بـ«إلّ» أو «إلَّا»، اعتمادًا على ما كانت الكلمة التي تليها مذكرًا أم مؤنثًا. المتحدثون الهواة للاتينية استخدموا «إلّ» و«إلّا» ولم يغيروا نهايات الكلمات، وبعد ذلك تحولا في الفرنسية إلى «لو» و«لا» لتسبق الأسماء. وتحولا في الإسبانية إلى «إل» و«لا»، وفي الإيطالية إلى «إل» و«لا». فكر في كل هذا الصياح والإشارات لمتحدثي اللاتينية من الهواة، والتي أعطت اللغات «الرومانسية» شكلها المتعارف عليه.

في القرن الخامس، غزا الجرمانيون ما يعرف بفرنسا وإسبانيا وإيطاليا الآن، وتحدث هؤلاء لغة مشتقة من اللاتينية. كيف صار الأمر على هذا النحو؟ من المهم إلقاء نظرة على الخريطة اللغوية لأوروبا، أغلب اللغات المتحدث بها هي جزء من أسرة لغوية أكبر، إما «رومانسية» أو «جرمانية» أو «سلافية». دول محدودة هي المنفردة بلغة لأهلها ليست قريبة الصلة باللغات الأخرى كحال اليونانيين والألبان والمجريين والفنلنديين.



خريطة لغات أوروبا

في أوروبا الغربية، تنتشر اللغات الجرمانية في الشمال، واللغات الرومانسية في الجنوب. دولتان نجد فيهما خليطًا من اللغات: بلجيكا فيها لغة جرمانية في الشمال، ورومانسية في الجنوب. في سويسرا يتم الحديث باللغة الجرمانية في الشمال، وفي الركنين الجنوبيين بها تنتشر اللغات الرومانسية. بالإضافة إلى هذه اللغات الرومانسية، يمكن أن نضم اللغة البرتغالية مع الفرنسية والإسبانية والإيطالية. ومن شرق أوروبا نضم مفاجأة وهي الرومانية. رومانيا تقع شمال نهر الدانوب، الذي طالما كان الحد الشمالي

للإمبراطورية الرومانية. استطاع الرومان مد حدود إمبراطوريتهم وسيطرتهم شمال النهر لبقعة كبيرة لمدة قرن من الزمان، ولكنه لم يكن كافيًا لاستيعاب اللغة اللاتينية بالكامل في هذه البقعة، أو لتكون أساس اللغة اللاتينية. وأدى هذا إلى افتراض أن سكان رومانيا القدامى عاشوا جنوب النهر، بما عرفهم على اللاتينية، وانتقلوا شمالًا بعد ذلك، وهو افتراض لا يقبله الرومانيون الآن.

وفي أغلب وسط وشرق أوروبا، اللغات السائدة سلافية: في بولندا، وجمهورية التشيك، وسلوفاكيا، وبلغاريا، ويوغوسلافيا السابقة. هذا يعرفنا بالسلافيين الذين عاشوا فيما وراء أرض الجرمانيين وغزوا شرق الإمبراطورية الرومانية في القرنين السادس والسابع، واستقروا في منطقة البلقان. بعض السلافيين استقروا في مناطق لم تكن أبدًا جزءًا من الإمبراطورية: بولندا، وجمهورية التشيك وسلوفاكيا. وبعد استقرارهم في أوروبا، اعتنقوا المسيحية. البولنديون من الغرب، فأصبحوا تابعين للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، أما أغلب الناس في البلقان فمن القسطنطينية، فأصبحوا تابعين للكنيسة اليونانية الأرثوذكسية.

اللاتينية واللغات المنشقة منها، واليونانية والسلافية والجرمانية، كلها أتت من منبع مشترك، لغة أطلق عليها «إندو ـ أوروبية». اللغويون يحاولون تشكيل مبادئها، من خلال التعرف على المشترك من اللغات التي أخرجتها. ويتجادلون من أين أتت اللغة «الإندو ـ أوروبية» ـ وفي أي بقعة تحديدًا من الشرق. كانت لديهم كلمة عن الثلج،

وكلمتهم عن البحر لها علاقة ببحر ما يتوسط أرضهم. اللغة هي «إندو ـ أوروبية»، لأن اللغة الهندية السنسكريتية، والإيرانية انحدرت منها. تم اكتشاف، أو تكوين، هذه اللغة حديثًا، فقط، في القرن الثامن عشر. وحتى ذلك التاريخ، فإن دراسة اللغة في أوروبا، افترضت أنها أتت من أصول عبرية، لأن هذه هي اللغة التي تحدث بها اليهود، وبالتبعية فهي لغة آدم وحواء، البشر الأولين. العبرية تختلف تمامًا عن اللغات الأوروبية ـ وليس لها أصول «إندو ـ أوروبية» ـ وبالتالي فإن تعقب أصول عبرية للغات الأوروبية، وصل إلى لا شيء. لكن في عصور التنوير في القرن الثامن عشر، فإن أصحاب العلم تمردوا على الإطار الإنجيلي، وطوروا نظريات جديدة. وكانت النقلة على يد «وليام جونز»؛ وهو قاض إنجليزي أقام في الهند. لاحظ «جونز» تشابهًا بين الكلمات الأساسية السنسكريتية واللغات الأوروبية ـ الكلمات المعبرة عن الأرقام، وأجزاء الجسم، وأعضاء الأسرة. هذه هي الكلمات المناظرة لكلمة «أخ»:

براذر (إنجليزية)

بهراتار (سنسكريتية)

بروودر (هولندية)

برودر (ألمانية)

فراتر (يونانية)

برات (روسية)

براثير (أيرلندية)

اعتبر «جونز» أن هذه التشابهات ليست مجرد مصادفات، وافترض أن هذه اللغات كان لها أصل واحد واختفى، وبهذا بدأ تكوين «الإندو ـ أوروبية».

بَلدان أوروبيان هما المجر وفنلندا، اللغة فيهما لا تنحدر من أصول إندو ـ أوروبية. واللغتان بينهما علاقة. المتحدثون بهما أتوا على موجتين من آسيا. وصل الفنلنديون قبل التاريخ المدون، وأتى المجريون بعدهم، كفرسان غزاة في القرنين التاسع والعاشر الميلادي، في ذات الوقت الذي أتى فيه الشماليون للسطو عبر البحر. واقتنعوا بالبقاء في وادي الدانوب، وأصبحوا مسيحيين.

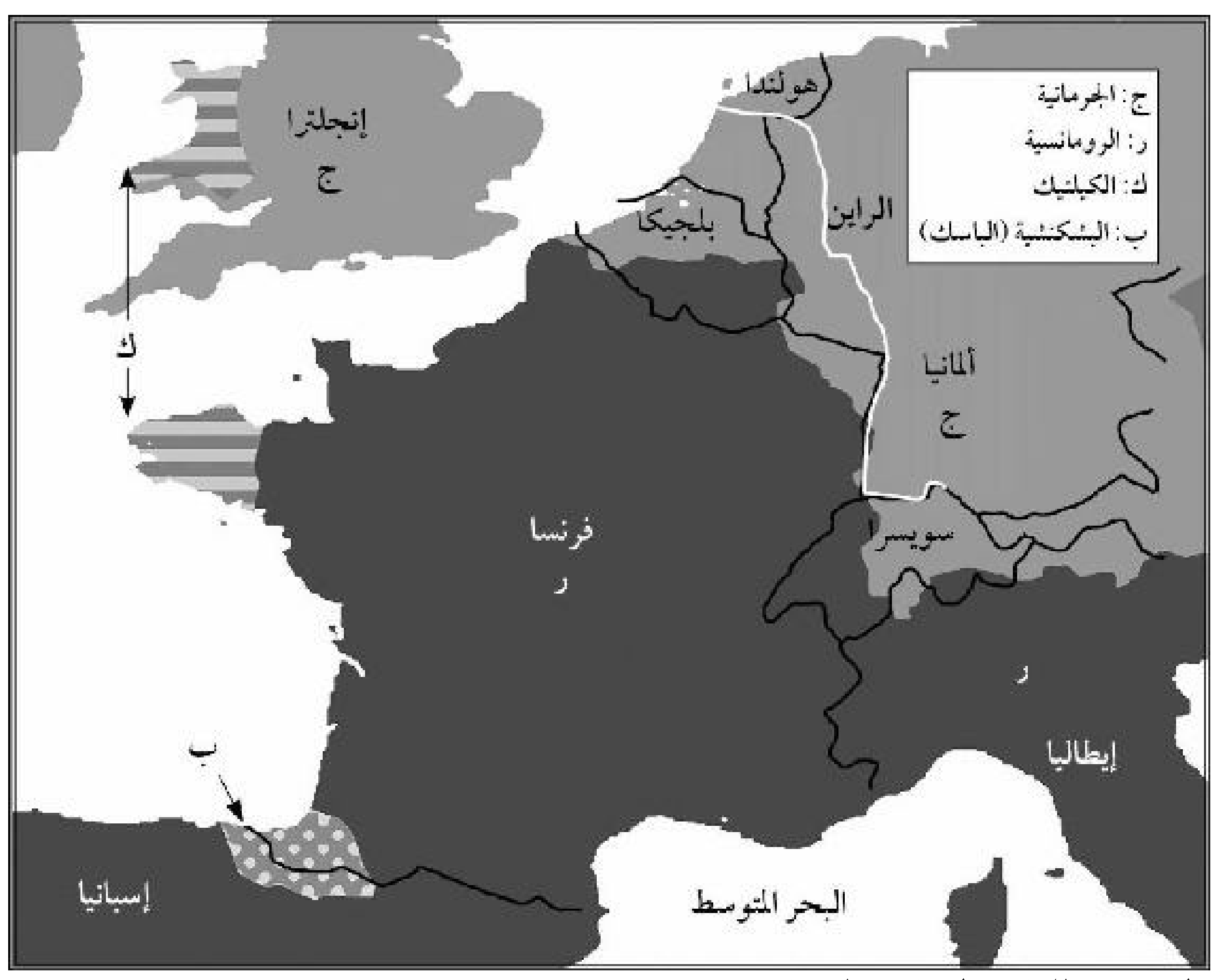
الخريطة السابقة تعرض توزيع اللغات في أوروبا حاليًّا. لم تكن لتصبح أشد اختلافًا بعد غزو السلافيين والجرمانيين للإمبراطورية الرومانية، أحدث الغزو الجرماني بعض الاختلاف، ولكن كما رأينا، فإن اللاتينية، واللغات الرومانسية المنشقة منها، استمرت في فرنسا وإسبانيا وإيطاليا. مدى الاختلاف تظهره الخريطة التالية، والتي تعرض الحدود الفاصلة بين اللغات الجرمانية والرومانسية. حد الإمبراطورية الرومانية هو نهر الراين. ما تظهره الخريطة هو، إلى أي مدى توغلت اللغات الجرمانية ـ لم تتوغل كثيرًا كما ترى.

إنها حقًّا من الألغاز، لماذا اتخذت اللغات تلك الحدود الفاصلة التي اتخذتها؟ ففي بلجيكا، الخط الفاصل بين اللغات، هو في فضاء الريف الفسيح. لا تضاريس فاصلة

كأنهار أو جبال. تقود سيارتك في طريق مستقيم، فتجد القرية على يمينك تتحدث لغة رومانسية (والون)، والقرية على يسارك تتحدث الجرمانية (فليميش). ولم يتغير هذا الخط الفاصل على مدار ١٥٠٠ سنة. هناك رأي بأنه ربما كان هناك خط دفاع روماني من الشرق إلى الغرب، كحاجز مانع للجرمانيين القاطنين عبر الراين، من أن يتقدموا جنوبًا. ربما أوقفهم هذا الحاجز، لكن الجرمانيين تجاوزوه من شرقه البعيد.

بشكل عام، يمكنك رؤية هذا القطاع بين الراين والحد المرسوم بين اللغات، ممتدًّا إلى ١٠٠–١٥٠ كيلو مترًا، حتى يضيق اتساعه عند المناطق الجبلية جنوبًا. وفي هذا القطاع كان التواجد الجرماني كثيفًا ليتغلب على اللغات اللاتينية، ومشتقاتها الرومانسية. توجه الجرمانيون صوب غربي أوروبا إلى إسبانيا، وعبروها إلى شمالي إفريقيا. لكن لم يغيروا اللغة عن السائدة اللاتينية أو الرومانسية، بما يشير إلى تواجد أقل كثافة عما كان عليه الوضع في هذا القطاع المذكور.

عندما توسعت فرنسا كقوة عظمى في القرنين السابع عشر والثامن عشر، دفعت بجنودها شمالًا وشرقًا، لكن لم تتغير خريطة اللغة. الناس في الحدود الشرقية لفرنسا ما زالوا



الحدود بين اللغات الجرمانية والرومانسية

زالوا يتحدثون الجرمانية. وفي الحدود الشمالية، قرب الساحل، يتحدثون الفليميش ذات الأصول الجرمانية. تظهر الخريطة أن هناك مناطق أخرى لفرنسا لا يتحدث أهلها الفرنسية. ففي الجنوب الغربي جوار الحدود الإسبانية، هناك أهل الباسك الذين يطالبون بالاستقلال عن إسبانيا وفرنسا. لغة الباسك ليست إندو- أوروبية؛ لا يعلم أحد من أين أتت. وشبه جزيرة بريتاني الفرنسية، لغة بريتون هي ما صمد من أصول كالتيكية. وعندما غزا الإنجليز والساكسون والقوط بريطانيا، عبر أجداد أهل بريتون

من إنجلترا عبر البحر، ومازالوا يتحدثون بها، وإن كان عددهم في انحسار.

وبتقدمهم نحو فرنسا، لم يحل الجرمانيون لغتهم محل اللاتينية واللغات الرومانسية، لكنهم أضافوا بعض الكلمات الجرمانية إلى الفرنسية، خاصة ما يتعلق بالملك والحكومة والنظام الإقطاعي، أي مصطلحات الطبقة الحاكمة الجديدة. أتت كلمات العار والفخر في الفرنسية من الجرمانية، وهي مفاهيم هامة لدى المحاربين الجرمانيين.

وفي إنجلترا، حققت اللغات الجرمانية نصرًا كبيرًا، وهو ما يتوقعه المتابع لما حدث من انهزام للبريتونيين أمام الغزاة من الإنجليز والساكسون والقوط. وبعد ذلك في القرن التاسع والقرن العاشر الميلاديين، حدث غزو ثانٍ لإنجلترا من أناس يتحدثون لغات جرمانية، الشماليين أو الدنماركيين. ظهرت الكلمات الأساسية، وقواعد النحو للغة الإنجليزية ظهرت مع اندماج هذه الألسنة الجرمانية معًا. وفي أثناء هذا، فقدت اللغة الإنجليزية تصريفات الكلمات من أصولها الجرمانية.

وفي عام ١٠٦٦، كان هناك غزو ثالث لإنجلترا، من قِبل النورمان الفرنسيين، بقيادة الدوق وليام. كان النورمانيون من أصول شمالية، وأبقاهم الملك في فرنسا حتى يضع حدًّا لغزواتهم. تحدثوا بصبغة خاصة للغة الفرنسية، لغة رومانسية بمكونات لاتينية. وتحدثت النخبة الحاكمة بالفرنسية النورمانية لعدة قرون، حتى تم دمجها هي الأخرى في الإنجليزية، وأثرت هذه اللغة بكلمات كثيرة. أصبح هناك كلمتان أو أكثر تقريبًا لكل شيء. فلكلمة الملك «كينج» والملكي «كينجلي»، أضيفت كلمات «رويال» و«ريجال»

و«سوفرين». والإنجليزية بها كلمات تعادل عدة مرات ما لدى الألمانية والفرنسية، هي في النهاية حصيلة تجميع للغتين، الألمانية والفرنسية.

وأدناه، تجد جدولًا ملخصًا لتطور اللغات في غرب أوروبا، وفي إنجلترا، بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية.

	أوروبا الغربية	**إنجلترا**
القرن الخامس: غزو الجرمانيين	• لغات جرمانية عبر الراين لمسافة ١٥٠ كم • اللاتينية تصبح رومانسية	• الجرمانية تحل محل الكيلتيك بشكل كامل
القرن التاسع: غزو الفايكينج	• مستوطنات في شمالي فرنسا • الشماليون الجرمانيون أضافوا للفرنسية لتصبح فرنسية نورمانية	• مستوطنات في شرق إنجلترا • الشماليون الجرمانيون يضيفون إلى الجرمانية الأنجلو ـ ساكسونية لتصبح اللغة الإنجليزية
١٠٦٦: غزو النورمانيين لإنجلترا	• الفرنسية النورمانية يتحدث بها حكام إنجلترا	• الفرنسية (واللاتينية) تضاف إلى الإنجليزية

اختفت اللاتينية كلغة للمواطنين العاديين، لكنها استمرت صامدة كلغة للتعلم والأدب والكنيسة. ولهذا توجد كلمات لاتينية كثيرة في اللغات الأوروبية. وباعتبار أن رجال الكنيسة والعلماء قد ظلوا يتحدثون ويكتبون باللاتينية، فأصبحت محل تغيير، أو وفقًا لمعايير النقاوة، تراجعت وتدهورت. وكان هناك فرصة، حتى في هذه الدوائر، أن تحاكي اللاتينية ما حدث للغات الرومانسية. أول محاولة للحفاظ على اللاتينية، قام بها «شارلمان». تم نسخ الوثائق اللاتينية القديمة، وبذلت جهود حتى يتم الاستخدام

الجاري للاتينية مطابقًا لأصولها الكلاسيكية.

ولما كانت اللاتينية لغة التعلم والآداب، فإن العلم والأدب أصبحا بعيدَين عن الناس. إذا أردت أن تتعلم فعليك أن تتعلم، أولًا لغة أجنبية. في القرون الوسطى كان أغلب الناس أميين، وهو ما كان عليه حال العموم. لكن ما كان غريبًا، هو أن الأغنياء وأصحاب القوة، كانوا أيضًا أميين، لأنهم كانوا يجهلون اللاتينية. وبهذا فإن الثقافة الشفاهية والأغنيات والقصص تحركت داخل المجتمع. كان المهرجون والمغنون يأتون للقصور لتسلية ساكنيها، فلم يكن هناك مجال لأن يقرءوا. العادات والتقاليد كانت في غاية الأهمية، لأن قليلًا مما يحدث يمكن فهمه أو إدارته بالكتابة.

عندما وصل النبلاء والفرسان الأوروبيون إلى الأراضي المقدسة في الحروب الصليبية، فوجئ المسلمون، الأكثر تحضرًا، بمدى فظاظة الأوروبيين وعدم ثقافتهم.

وظهر إنتاج أدبي في اللغات العامية بقدر من التدريج، أي أنه ظهر في اللغة الأولى التي يستعملها عموم الناس، وليس اللاتينية. القصص الأولى في الفرنسية أطلق عليها رومانسي، تبعًا للغة التي كتبت بها. لقد كانت طريقة لإظهار عدم الاعتبار لها ـ باعتبارها أعمالًا محلية متواضعة ـ أنها رومانسية. «رومانس» أصبح المصطلح الفرنسي للقصة. لأن القصص كانت عن فرسان وأعمالهم البطولية وحبهم للأميرات الجميلات، فموضوع الرواية عرف على أنه رومانسي. وهذا يفسر ذلك المعنى الغريب المزدوج لكلمة رومانسي، كلغة مشتقة من اللاتينية، وكذلك كالموضوع الذي انتشر في

هذه القصص.

والموضوع الثاني لإصلاح اللاتينية تم إطلاقه أثناء عصر النهضة. فقد حقر العلماء من شأن العصور الوسطى، لأن اللغة اللاتينية كانت متدنية، وشابها الكثير من العوار وعدم النقاء. وأصبح هدف أهل العلم في عصر النهضة، أن يكتبوا بلاتينية الكتّاب الكلاسيكيين العظام. «بترارك»، الكاتب المبدع في عصر النهضة، جاب أوروبا بحثًا عن نسخة من خطابات السياسي والخطيب الروماني «سيسرون». وعندما وجد هذه الخطابات، ألف خطابًا بلاتينية محكمة وجهه إلى «سيسرون» نفسه. بدأ تعليم النبلاء ورجال المجتمع باللاتينية، ليس لأنها لغة الكنيسة والجدل الدينيين ولكنها لغة المكتوب من الكلاسيكيات القديمة. وحتى بداية القرن العشرين، كانت اللاتينية في مركز الصدارة للتعليم الثانوي والعالي. كان عليَّ أن أجتاز امتحان اللاتينية حتى أتخرج في المدرسة. حفلات التخرج في الجامعات، كانت تعقد باللاتينية، ومصطلحات الإجازة العلمية كثيرًا ما تكتب باللاتينية، وكذلك درجات الشهادات التي تمنحها الجامعات لطلبتها.

شكلت اللاتينية عنصرًا قويًّا لتوطيد التواصل بين الرجال المتعلمين عبر أوروبا (لم تتعلم الفتيات اللاتينية). أعطاهم هذا لغة ثانية مشتركة، أصبحت وسيلة للترابط الاجتماعي، أو كودًا يمكنهم استخدامه. في مجلس العموم الإنجليزي، المتحدث قد يقول نصًّا باللاتينية، من النصوص الشهيرة، دون ترجمته، وإذا لم تفهمه، فلا يجب أن

تكون هناك أصلًا. المصطلحات الجنسية، التي لا يمكن كتابتها بالإنجليزية، يمكن كتابتها باللاتينية، حتى لا يفهمها عامة الناس فيفسدوا، وتستخدم أيضًا في وصف الأعضاء التناسلية، وما يمكن اعتباره مخجلًا للقارئ.

في نفس الوقت الذي شهدت فيه اللاتينية إعادة للوجود في عصر النهضة، اكتسبت اللغات الدارجة اعتبارًا واحترامًا. أولًا، بسبب اختراع الطباعة، في الخمسينيات من القرن الخامس عشر. الكتب الأولى التي طبعت، كانت للكُتّاب الكلاسيكيين، ولكن الطلب عليها كان محدودًا. حصل الناشرون على أسواق أكبر لما يطبعون، عندما أصدروا كتبًا باللغات المحلية، أو ترجمة للكلاسيكيات. «شكسبير»، الذي كان علمه محدودًا باللاتينية، وأقل من ذلك باليونانية، تعرف على التاريخ الكلاسيكي من ترجمة «نورث» لكتاب «بلوتارك» عن «حياة نبلاء الإغريق واليونان»، والذي ظهر في سنه ١٥٧٩ عندما كان «شكسبير» في الخامسة عشر من عمره. وهذا أعطاه خلفية ما كتبه عن «يوليوس قيصر»، و«أنطونيو وكليوباترا». ثانيًا، أن حركة الإصلاحيين البروتستانتية في القرن السادس عشر، أرادت أن يقرأ الناس الإنجيل مباشرة دون وسيط، فكان من اللازم ترجمته إلى اللغات المحلية. أول عمل لـ«لوثر» هو ترجمة الإنجيل للألمانية. ولم تعد اللاتينية عند البروتستانتيين لغة المقدسات.

الكتب الأصلية استمر تأليفها باللاتينية، وبهذا تصبح متاحة للرجال المتعلمين في أنحاء أوروبا. «كوبرنيكوس»، أول من قال بأن الشمس مركز الكون، «كيبلر»، الذي

طور قوانين حركة الكواكب، و«نيوتن»، الذي استكمل الثورة العلمية، كلهم كتبوا باللاتينية. لكن بعد القرن السابع عشر، كتب العلماء والفلاسفة بلغاتهم، ثم تُرجمت أعمالهم، بعد ذلك، إلى قراء آخرين.

كانت هناك ثمرة أخيرة للاتينية، مازالت مستمرة، وهو نظام تسمية النباتات، الذي طوره عالم النباتات السويدي، «لينوس»، في القرن الثامن عشر. فلقد تعلم اللاتينية في المدرسة، وقرأ كتابات «أرسطو» باللاتينية، والتي صنف فيها النظام الطبيعي. نظامه يعطي اسمين لكل نبتة: النوع والسلالة. ومكتشفو النباتات، حتى الآن، عليهم الرجوع إلى اللاتينية إذا أرادوا أن يمنحوا ما اكتشفوه اسمًا. «جوزيف بانكس»، الذي كان عالم النباتات مع الرحالة المكتشف «كوك»، خُلد بمسمى «بانكسيا»؛ وهو اسم لنبات أسترالي بزهور مميزة.

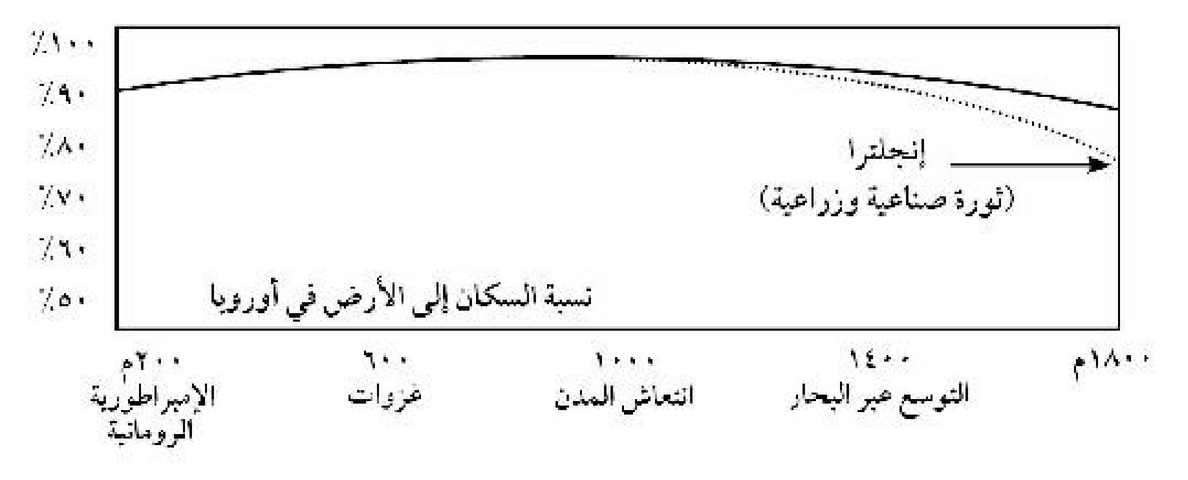
عندما بدأت المسيحية، كانت اللغة السائدة في الغرب هي اللاتينية. أصبحت هي لغة الكنيسة، والنقاش والجدل حول تعاليمها، وفي التعريف بالعقيدة، والقيام بقداسات الكنيسة وخدماتها. لم تكن كاللغة العربية، لغة مقدسة، والتي تحدث بها النبي محمد [ﷺ]. تحدث عيسى [عليه السلام] بالآرامية، وكلماته دونت باليونانية المتداولة في شرق البحر المتوسط. لغة الكتاب القديم المقدس كانت العبرية. لكن اللاتينية جمعت الناس التابعين للكنيسة معًا، واستمرت لغة للصلاة عند الكاثوليك حتى أقر مجلس الفاتيكان الثاني (١٩٦٢-٦٥) استخدام اللغات المحلية في الصلاة. رسائل البابا

استمرت في الصدور باللاتينية. البابا «بول» السادس أعلن تعاليم الكنيسة، فيما يتعلق بمنع الحمل والإجهاض، في عام ١٩٦٨، باللغة اللاتينية. بعض أتباع الكنيسة استمروا في تلاوة صلواتهم، وتقديم خدماتها باللاتينية. والبابا الحالي أكثر رغبة في استخدام اللاتينية في القداسات.

اللغة اللاتينية مثلها مثل فكرة الإمبراطورية الرومانية؛ صارعت الموت لفترة طويلة.

الفصل الثامن: عموم الناس

ستحب عموم الناس. نعم إنهم متسخون، تفوح منهم رائحة، وليسوا جذابين عند النظر إليهم، لأنهم يعانون من سوء تغذية، متهالكون، منهكون بالأمراض، مسحوقون، وعليهم علامات أعمالهم الصعبة التي يقومون بها في كل أنواع الطقس. لكن لماذا ستحبهم؟ لأن ما في حياتهم من السهل تتبعه، أنهم يفعلون الشيء نفسه قرنًا بعد آخر. كلهم تقريبًا يزرعون وينتجون الغذاء.



لا تحتاج وقتًا طويلًا لمناقشة أوضاعهم. وهذا الرسم يوضح عدم التغيير عبر الزمن ممثلًا بنسبة السكان الذين يقومون بأعمال الزراعة، أو مرتبطون بها، بما في ذلك من يقيمون بالمناطق الريفية والمستوطنات الزراعية، ويشتغلون في أعمال مساندة للزراعة، مثل صانعي دواليب المعدات الزراعية، والحدادين، والعمال الزراعيين. هذه الأرقام

تقديرات مبدئية. ففي عهد الإمبراطورية الرومانية كان هناك ما يقرب من ٩٠٪ من السكان يعيشون خارج المدن. كانت هناك مدن عظيمة في الإمبراطورية، وأهمها روما ذاتها، لكن المدن شكلت عشرة بالمائة فقط من السكان. حصلت المدن الكبيرة على إمداداتها من الحبوب من المناطق الريفية، لكن الحبوب منتج ثقيل الحمل، ولا يمكن نقله بعيدًا عبر الطرق دون نقصان قيمته أو استهلاكه. كان إمداد الحبوب لروما يتم عبر البحر من مصر، وكان النقل بحرًا هو أرخص وسيلة للنقل.في أواخر عهد الإمبراطورية الرومانية، قامت الحكومة بدعم توزيع الحبوب في روما حتى تسيطر على الناس. كانت روما مثل مدن العالم الثالث في زمننا المعاصر، لها قدرة على جذب السكان، لكنها غير قادرة على إعاشة من يسكنون فيها. بالإضافة إلى الخبز المجاني فقد قدمت روما استعراضات مبهرة في الكولوسيوم؛ وهو استاد كبير لمشاهدة المصارعين. وصف الهجَّاء الروماني «جوفينال» الحكومة في عهده أنها تستمر بفضل «الخبز والسيرك».

تجارة الحبوب كانت استثناء. أغلب التجارة في الإمبراطورية كانت في البضاعة خفيفة الحمل، وعالية القيمة والتي يمكن نقلها. في الإمبراطورية الرومانية، كما كانت أوروبا حتى القرن التاسع عشر، عاش الناس على ما يزرع وينتج في محيط سكنهم، كان الطعام والشراب والملبس والمسكن، جميعًا من الإنتاج المحلي. المساكن القديمة في أوروبا استعملت مواد بناء، ليس لكونها الأكثر جمالًا، لكن لتوفرها في محيطها. إذن، ففيما

يتعلق بالاقتصاد، لم يكن الرومانيون قوة تغيير، بل كان إبداعهم متمثلًا في تماسك الإمبراطورية من خلال قانون واحد، وتنظيم عسكري في غاية الكفاءة. هذه الطرق المستقيمة، التي مازالت قائمة حتى يومنا هذا، صممها مهندسو الجيش الروماني، بغرض أساسي وهو تمكين الجنود من الانتقال سريعًا من مكان لآخر. ولهذا صممت الطرق بهذه الأساليب، ولو كان تصميمها للخيل وعرباتها، لكانت منحدراتها أكثر انسيابًا.

في آخر قرنين من تاريخ الإمبراطورية الرومانية، فقدت المدن كثيرًا من سكانها بسبب غزوات الجرمانيين. تقلصت التجارة، وأصبحت مسألة الاكتفاء الذاتي، بالمنتجات المحلية، ضرورة وأمرًا لا مفر منه. لم تكن مدن الإمبراطورية في أيامها الزاهية محاطة بأسوار، فأعداء الإمبراطورية تم إيقافهم فيما وراء الحدود. في القرن الثالث بدأ بناء الأسوار، وفي أماكن محددة كان بناء الأسوار لتحيط بحدود أصغر للمدن، دليلًا على بداية تراجع هذه المدن. وباختفاء الإمبراطورية في عام ٤٧٦، أصبحت نسبة السكان خارج المدن تصل إلى ٩٥٪.

بقيت المدن القديمة لقرون. أعقب غزو الجرمانيين غزوات أخرى: فتوغل المسلمون في القرن السابع والقرن الثامن في جنوبي فرنسا وإيطاليا، وتلاهم الفايكينج في القرنين التاسع والعاشر، وقد أحدثوا ذعرًا شديدًا. عم السلام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، واستعادت التجارة، وحياة المدن سابق عهدها. كانت بعض المدن قد اختفت

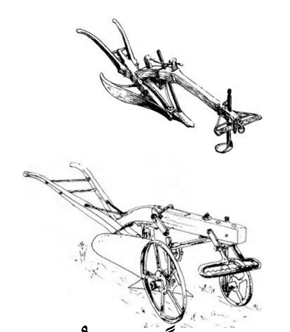
تمامًا بعد القرن الخامس، وأخرى صغر حجمها بشدة.

الشكل البياني يوضح سقوطًا شديد البطء. في القرن الخامس عشر، بدأت أوروبا في التوسع خارجها عبر البحار، بما أدى إلى نمو التجارة، وأعمال البنوك، والنشاط البحري، وبالتالي نمو المدن. مع قدوم عام ١٨٠٠ م، تراجعت نسبة سكان ريف غرب أوروبا إلى ٨٥٪، أقل قليلًا من الوضع أثناء الإمبراطورية الرومانية. كان هناك تحرك محدود عبر هذا الزمن الطويل. كان الاستثناء الوحيد في إنجلترا، حيث تراجع سكان الريف مع نمو المدن، مع عام ١٨٥٠، أمسى نصف سكان إنجلترا في مدنها.

المزارعون اختلفوا في أوضاعهم عبر الزمن. فكان هناك حائزون صغار للأرض، وعبيد، وأقنان أرض، ومستأجرون، وشركاء في المحاصيل، وعمال زراعيون. سنطلق عليهم جميعًا «فلاحين». كان العمل واحدًا بغض النظر من تكون أو في أي مكان. في إيطاليا وجنوب فرنسا وإسبانيا كانت عملية حرث الأرض في القرن التاسع عشر مشابهة لما كانت عليه في عهد الرومان. حراثة الأرض كانت بدائية، فكر في المحراث كشوكة الطعام، لكنْ متصل بها شفرة قطع في قاعدتها. ويسحب ثور أو حصان هذا المحراث، ويوجهه الفلاح ويشق النصل سطح الأرض بعمق محدود. لم يتعد الأمر خدش سطح الأرض. كانت الحراثة للأرض وكأنها على شاكلة رقعة الشطرنج طولًا وعرضًا.

كان المحراث ذو العجلات واحدًا من أهم اختراعات العصور الوسطى في بداياتها. لم

نعرف من هو المخترع وإن كان هذا المحراث أكثر فاعلية للأراضي الثقيلة في تربتها في شمال فرنسا وألمانيا وإنجلترا. كان المحراث شبيهًا بالمحاريث المعاصرة، غير أن الحيوانات كانت تسحبه وبقوة دفع من البشر. لهذا المحراث قاطع حاد يقسم حدود التربة، ولوح خشب يرفع التربة التي تم حرثها. كانت هذه المحاريث تقطع الأرض بعمق، فتحدث أخاديد عميقة، متماثلة، ومتوازية لبعضها. ليست كتلك الخدوش السطحية التي تحدثها المحاريث القديمة في الأرض. كانت عملية الحرث عملًا بدنيًّا صعبًا. فإنك لا تقوم بمجرد قيادته، فإذا لم تمسك به بقوة بكتفيك وذراعيك، فسيسقط منك ولن يحرث الأرض. بعدما تحرث الأرض، تقوم بنثر البذور، وهو العمل الأسهل. ثم تسير على الأرض لتطمئن أن البذور قد استقرت في بقاعها من الأرض، ثم بكاسحة أو ما يشبه الجرافة تتم تغطية البذور بالتربة.



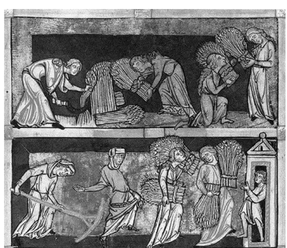
المحراث ذو الشوكة كان في بدايته خفيفًا، لا يُحدث إلا مجرد خدوش سطحية في التربة على شكل مربعات صغيرة المحراث الأكثر ثقلًا ذو العجلتين كان قادرًا على تقليب التربة في شمالي أوروبا محدثًا أخاديد بطول الأرض

قام الرجال بحراثة الأرض وتشارك الرجال مع النساء والأطفال في الحصاد، ولما كان الزمن المسموح لحصاد آمن قصيرًا، لزم استقدام العمالة من المدن، وربما يُستدعى الجنود

المحليون من معسكراتهم للمساعدة. كان الحصاد يتم بالمنجل، وهو نصل له انحناء بمقبض. يجده الأثريون في أغلب مواقع سكنى الإنسان القديمة. واستمر استخدام المنجل في أوروبا حتى بداية القرن العشرين. أرادات الثورة الشيوعية في روسيا في عام ١٩١ أن تكرم العمال في علمها الجديد، فوضعت المنجل والمطرقة؛ فرمزت المطرقة لعمال الحضر، والمنجل لعمال الريف.

لا يجب أن تنظر إلى الزراعة والحصاد بنظرتك إلى ما تراه اليوم من فلاحين يقودون جرارات زراعية مكيفة في الحقول. كان الفلاحون يكدحون وينحنون ويكدون عملًا على كل موقع على الأرض عامًا بعد عام.

بعدما تجمع بالات القمح والشعير، كان يجب أن يتم تجميعها في مضارب. وأداة هذه العملية هي الدرّاسة، والتي كان لها يد طويلة من الخشب تنتهي بقطعة خشب مسطحة بحبل جلدي. وتقوم بتحركها يمنة ويسرة، وتضع نهايتها بقوة على سنابل القمح الملقاة على الأرض. كانت أبواب الجرن المفتوحة تسمح بإخراج الغبار، وتترك الحبوب على الأرض.



مناظر الحصاد من

إحدى
الرسوم
الألمانية،
كما تظهر
في حوالي
عام ٢٠٠

طُحن القمح دقيقًا وصنع منه الخبز. وكان الخبز الغذاء المعتمد عليه في الحياة. تأكل منه ما تستطيع وقليلًا من طعام آخر، لم تتناول الخبز بانتظام. قد يكون لديك بعض الزبد أو الجبن تأكله مع الخبز. كان الخبز هو الوجبة؛ لم يكن طبقًا جانبيًّا أو شرائح في سلة الطعام أمامك. تأخذ ثلاثة أو أربعة أرغفة منه. قد تأكل ما يعادل كيلو جرامًا من الخبز إذا كنت من ميسوري الحال يوميًّا. كان القمح يزرع في كل مكان، حتى في الأماكن غير المناسبة تمامًا لزراعته، والتي لا يمكن زراعته فيها اليوم. لأن النقل كان صعبًا للغاية. كان القمح ينقل بحرًا، ولكن كان من الصعب نقله برًّا لأي مسافة إلا مع حلول القرن الثامن عشر مع شق القنوات.

كان حديث الناس عن الحصاد هامًّا ومثيرًا، فلم يكن الحديث عن الطقس من أجل المسامرة أو فتح الأحاديث، إنما كان مناقشة جادة بين الناس لما يتعلق بمصائرهم. إذا لم يثمر الزرع، أو أفسد الطقس الحبوب قبل حصادها، فإن المجتمع كله سوف يعاني. فكان القمح ينقل في هذه الحالة وهو ما كان أمرًا مكلفًا. في الوقت الذي نقص الحصاد فيه، تتضاعف أسعار الخبز. لم يكن هذا أبدًا كارتفاع سعر إحدى السلع في السوق فتقوم بشراء غيرها. هذا معناه ارتفاع سعر كل طعامك أضعافًا. وعندما يحدث هذا

فإنك تجوع.

لكن الفلاحين هم الذين كانوا ينتجون الطعام، ألم يفدهم ارتفاع الأسعار؟ من استفاد هم هؤلاء الذين ملكوا مساحات كبيرة من الأراضي. إذا قمت بإنتاج ما يكفي أسرتك وتبيع الباقي القليل للمشترين في السوق، فلا مكسب لك، وضعف الحصاد يعني أنك لن تجد ما يكفي قوت أسرتك وعليك الشراء بسعر غال من السوق. البعض كان لديه بقع صغيرة من الأرض، ولم تكن تكفي أسرهم حتى في الأيام الجيدة للحصاد، فاعتمدوا على العمل عند آخرين بأجر لشراء الطعام. كثير من الناس لم تكن لديهم أراض، وإذا عاشوا على أرض الملاك وعملوا مقابل الأجر فإن حظهم لم يكن سيئًا. فلو عاشوا في أكواخهم فسيلجئون لشراء الخبز. كان ساكنو المدن دائمًا من المشترين. تعرضت جموع من الناس لمشاكل كثيرة عندما ترتفع أسعار الحبوب.

بمجرد أن يحدث انحسار في عرض الحبوب، فإن مُلاكه، أي الذين يزرعونه ويتاجرون فيه بكميات كبيرة، كثيرًا ما كانوا يحتفظون به حتى تزيد أسعاره بشكل أكبر. أو ينقلونه إلى حيث يباع بأسعار أكبر، تاركين أهل القرى دون ما يحتاجون من حبوبه. عندما بدأت الحكومات تدرك مسئولياتها بشكل معقول بعد عام ١٤٠٠ تقريبًا، حاولت السيطرة على هذا النشاط. فأقرت قوانين تمنع حجب السلع وتخزينها، ومنع نقلها إلى أماكن تمنع المحليين من استهلاك احتياجاتهم من الحبوب في وقت الندرة. وإذا لم يطبق الحكام هذه القوانين، فرضها الناس أنفسهم. فخرجوا في البحث عن أماكن

تخزين الحبوب وأرغموا الفلاحين على البيع. هاجموا العربات والمراكب التي تنقل الحبوب إلى أماكن أخرى. ولقد كان الأمر مفروضًا على الحكومات أن تتدخل ولو جزئيًّا بسبب احتمالات التجمهر والفوضى.

كان أغلب الناس، ولمعظم الوقت، يعيشون في ظروف قلقة فيما يتعلق بغذائهم. كانت الرفاهية أن تأكل جيدًا وبانتظام، السمنة كانت محببة؛ كانت الأعياد الدينية مناسبة لالتهام الطعام. مازال لدينا تذكرة سيئة بهذا في مجتمعنا اليوم في احتفالنا بأعياد الكريسماس، إذ تحيي ذكرى هذا اليوم بالكثير من الطعام ـ حتى مع أننا نأكل جيدًا طوال الوقت. أحاول شخصيًّا أن أحافظ على بعض التقاليد بالاحتفاء بالكريسماس بالامتناع عن أكل لحم الديوك في أي يوم آخر.

هذه الجموع التي شكلت ٨٥ إلى ٩٥ بالمائة من المجتمع هي التي زرعت الأرض وهي التي جعلت الحضارة ممكنة. إذا أنتج الفلاحون طعامًا ليكفيهم فقط، لما كانت هناك مدن أو لوردات أو قساوسة أو ملوك أو جيوش تعتمد على الآخرين لإطعامهم. سواء أرادوا أم لا، كان على الفلاحين توفير الطعام لآخرين سواء رغبه أم لا. هذه العملية يمكن النظر إليها.

تظهر هذه العلاقة بوضوح في بدايات العصور الوسطى، حيث يقدم الفلاحون جانبًا من حصادهم إلى مالك الأرض كأجر، وجانبًا آخر من المحصول للكنيسة كعشور، ذلك بالإضافة إلى عملهم في أرض اللورد دون مقابل، حتى يكون لديه محصوله. فيما

بعد تم إلغاء الالتزام بالعمل المجاني، وكانت تعطى المدفوعات للورد والقس نقدًا.



فلاحون يدفعون ضرائب لمُحصليها خلال زمن الإمبراطورية الرومانية (لاحظ سجل الضرائب على يسار الصورة). هذه اللوحة وجدت على ضفاف نهر الراين وترجع إلى عام ٢٠٠ من الميلاد

في بداية القرون الوسطى لم تكن هناك ضرائب تفرضها الدولة، لكن مقابل ذلك في عهد الإمبراطورية الرومانية وبعدها في الدول الناشئة في أوروبا، كان الفلاحون هم من يدفع الضرائب. لدينا هذه اللوحة التي تعرض منظر مُحصلي الضرائب وأمامهم الفلاحون. كانت المعاملات تدون على ألواح من شمع وليس على الأوراق. كانت هذه

هي المعاملة المالية الرئيسية في عهد الإمبراطورية الرومانية، تحصل أموالًا من الفلاحين وتستخدمها لدفع أجور الجنود. كان تحصيل أموال من الفلاحين من أسس الحياة. كان تحصيل الضرائب أمرًا مباشرًا. فأنت لا تكتب شيكًا لمحصل الضرائب أو تخاطبه كتابة، ولا هو يقتطع جزءًا من راتبك عندما تحصل على عمل. رجل الضرائب رجل حي أمامك، يبحث عنك، ويجعلك تدفع. فإن لم تدفع، فإنه يعود ومعه قوة تجبرك على الدفع. لم يكن دفع الضرائب مسيطرًا عليه بيروقراطيًّا، إنما كانت مواجهة وجهًا لوجه. في عهد الإمبراطورية الرومانية كان يطلق على جامعي الضرائب «العموميون»، أي الذين يجمعون الضرائب من أجل عموم الناس. كانوا مكروهين. وقد ساعد المسيح في هذه الكراهية في وضعهم في صورة أسوأ الناس بقوله إنه «لا فضيلة في أن تحبوا من يحبونكم ـ فحتى جامعو الضرائب يفعلون ذلك». وفي نسخة الملك «جيمس» من الكتاب المقدس، استخدم اللفظ الإنجليزي المقارب للفظ الإيطالي لجامعي الضرائب، «العموميون». ينتقد البعض المسيح لجمعه العموميين مع المذنبين، فهذا ليس منصفًا لهؤلاء الذين يعملون لصالح المؤسسات العامة.

الحديث عن الفلاحين باعتبارهم مظلومي الضرائب، قد يكون مبالغًا فيه. ربما كان عليهم دفع الضرائب وهم متمتعون بذلك، أو ربما تذمروا على الأقل بشأنها؛ لا يحب الناس عمومًا دفع الضرائب، لكنهم يحصلون على منافع مما تقدمه الحكومة من خدمات. لكن الفلاحين لم يحصلوا على أي خدمات. لم تقدم الحكومات خدمات

التعليم والصحة، ولم تبن الطرق أو تصونها في أغلب الأحوال، فقد كانت من الشئون المحلية، إلا إذا كانت لأغراض عسكرية. راعى الرومان الشئون الصحية لمدنهم من خلال بناء نظام المياه والصرف الصحي، لكنهم لم يفعلوا شيئًا في الأقاليم الريفية. وإلى أوقات قريبة كان معظم الإيراد الضريبي،٨٠ أو ٩٠ بالمائة منه، يصرف على الجيوش. فهل استفاد الفلاح من إبعاد عدو خارجي؟ ليس حقيقيًّا، لأن الحرب، من وجهة نظر الفلاح، كانت تعني معارك تجري على أرضه، فتسحب ماشيته وطعامه منه لتغذية الجيوش.

التهديد بالقوة، والتأكيد المستمر، من قِبل من هم أفضل منهم، على أنهم أقل درجة، وأن عليهم الخضوع والانصياع، جعل الفلاحين يستمرون في دفع الضرائب، لكن الاحتجاجات كانت متكررة، وكان هناك شغب وتمرد. ترك الفلاحون لخيالهم يتصورون عالمًا يتركون فيه لحالهم دون تدخل من الملوك والأساقفة واللوردات، فإنهم سيكونون حتمًا أفضل حالًا. قد كان سهلًا التفكير بهذه الطريقة، لأن الفلاحين كانوا يزرعون طعامهم، ويبنون مساكنهم، ويصنعون مشروباتهم الروحية، وينسجون ثيابهم. اختار كثير من البشر المعاصرين ترك حياة سباق الفئران التي نعيشها اليوم؛ مكتفين بالاعتقاد أن كل ما تحتاجه قطعة من الأرض تزرع فيها ما تحتاجه من طعام. لكن بالنسبة للفلاحين، فإن الاكتفاء الذاتي كان حقيقيًّا؛ ظهر لهم أن الحكومة والكنيسة أعباء، وأن ما يحصلون عليه من أموالهم نوع من السطو.

***

كانت احتجاجات الفلاحين تخمد دائمًا ـ حتى السنة الأولى من الثورة الفرنسية. فقد استعبد الفلاحون الفرنسيون كغيرهم في العصور الوسطى. وعندما جاءت نهاية الاستعباد في غرب أوروبا في نهايات العصور الوسطى، قُدمت عروض مختلفة لهؤلاء المستعبدين القدامى. في فرنسا أقر القانون أن الفلاحين ملاك لأراضيهم، وأن لهم بيعها وتركها. على أي الأحوال كان عليهم أن يدفعوا للوردات الاستحقاقات الإقطاعية القديمة، والالتزامات المعتادة، مثل منح اللورد مبلغًا من المال عندما تتزوج ابنته، أو العمل في أرضه لبضعة أيام كل أسبوع. وقد تحول هذا من هدايا وخدمات إلى مدفوعات نقدية. فاستمر الفلاحون ملاك الأرض في دفع إيجار لأراض يمتلكونها ـ مالك ومستأجر في نفس الوقت، وهو موقف متناقض.

ملاك الأراضي الكبيرة ـ ربما يكونون من طبقة اللوردات الأغنياء المنتمين للطبقة الوسطى ـ أخذوا يشغلون محامين محترفين للبحث في السجلات، للنظر في إذا ما كانت كل المستحقات والالتزامات قد تم دفعها نقدًا. عندما تحولت الالتزامات إلى مدفوعات نقدية، لم يتم وضع حساب التضخم في الاعتبار على نحو ما نفعله اليوم. لذا كان لدى اللورد كل دافع للتعرف على كل التزام لم يتم سداده، أو تم حسابه بطريقة خاطئة. ربما لا تكون هناك مثل هذه العلاقة المزعجة والمنفرة؛ فقد رأى اللورد أرضه تذهب إلى الفلاحين، ولكنه عوض عن ذلك بملاحقته للمدفوعات القديمة، والالتزامات

التاريخية المستحقة يطارد بها الفلاح. واجه الفلاحون ذلك مجتمعين بحشد المحامين في معاركهم ضد اللوردات.

عندما استدعى ملك فرنسا البرلمان للانعقاد في عام ١٧٨٨، افترض الفلاحون أن يومًا جديدًا سيظهر فجره، وأن كل هذه الالتزامات المكروهة سترفع عنهم. لكن كان هناك تأخير مقلق لهم؛ وسمعوا في ذات الوقت بسقوط سجن الباستيل، وقبول الملك ببرلمان قومي؛ لكن مدفوعاتهم القديمة للوردات استمرت. مؤامرة بغيضة لاحت في الأفق. أسعار الخبز كانت في غاية الارتفاع، لأن المحصول في الموسم السابق كان قليلًا، ولم يحصد قمحهم. تحرك الفلاحون إلى قصور اللوردات مطالبين بتدمير السجلات المدون فيها المدفوعات القديمة المستحقة. إذا ما وافق اللورد تركه الفلاحون، وإن لم يوافق أحرقوا قصره.

حار ثوار باريس فيما يمكن فعله مع هؤلاء الفلاحين المتمردين الذين اجتاحوا القرى. لم يكن هذا مما توقعوه. فيما بعد، عندما يصيغون حقوق الإنسان والدستور الجديد، سيتعاملون مع معاناة الفلاحين. المشكلة أن من بين ثوار باريس من كان يتقاضى مدفوعات من الفلاحين عن أراضيهم المملوكة لهم.

لم يرغب الثوار في أن يرسل الملك قواته للسيطرة على تمرد الفلاحين، وهو ما كان معتادًا في مثل هذه الأحوال. إذا أمر الملك الجيش بالتصدي للفلاحين، ربما أمره أيضًا للتصدي للثوريين أنفسهم بعدها. لذا قرر قادة البرلمان أن عليهم الاستجابة لمطالب

الفلاحين. وفي مساء الرابع من أغسطس ١٧٨٩، وبعد ليلة طويلة من الاعتصام، ندد المتحدثون بالالتزامات المفروضة على الفلاحين. والذين استفادوا من هذه المدفوعات، تبرءوا منها، وقاموا بإلغاء هذه الممارسة، واعدين بالإصلاح. لقد كان الأمر مزيجًا من الإعداد الجزئي والهستيريا. لكنهم لم يفقدوا عقولهم كلية. فقد فرقوا بين المدفوعات المرتبطة بخدمات شخصية والتي تم القضاء عليها فورًا، والمدفوعات المرتبطة بالأراضي والتي تم الاتفاق على إلغائها بعد ذلك مع تعويض الملاك. لقد كان صعبًا عمل هذه التفرقة ورفضها الفلاحون، ومن حينها لم يقوموا بأي مدفوعات من أي نوع. وفي عام ١٧٩٣ عندما أصبحت الثورة أكثر راديكالية، ودستور جديد تم إقراره، تم إلغاء كافة المستحقات والالتزامات.

أصبح الفلاحون ملاكًا بالكامل لأراضيهم، بلا قيد يربطهم باللوردات القدامى. تحولوا بعد ذلك إلى قوة محافظة في السياسة الفرنسية عبر القرن التاسع عشر في مقابل طبقة العمال الراديكاليين في المدن، الذين هاجموا الملكيات الخاصة وأرادوا خلق مجتمع اشتراكي. كان رجال الحكم في فرنسا يعتمدون على الفلاحين لإسقاط مثل هذه المطالب. تمسك الفلاحون بأراضيهم ذات المساحات الصغيرة، بما ترتب عليه أن الزراعة في فرنسا ظلت صغيرة الحجم، قليلة الكفاءة. واليوم يستفيد الفلاحون الفرنسيون من الدعم الأوروبي، بما يعني أنهم يستطيعون تسويق منتجاتهم بأسعار أقل، وينافسون مزارعي أستراليا الأكبر حجمًا والأكثر كفاءة. الفلاحون الفرنسيون يبغون

علينا اليوم!

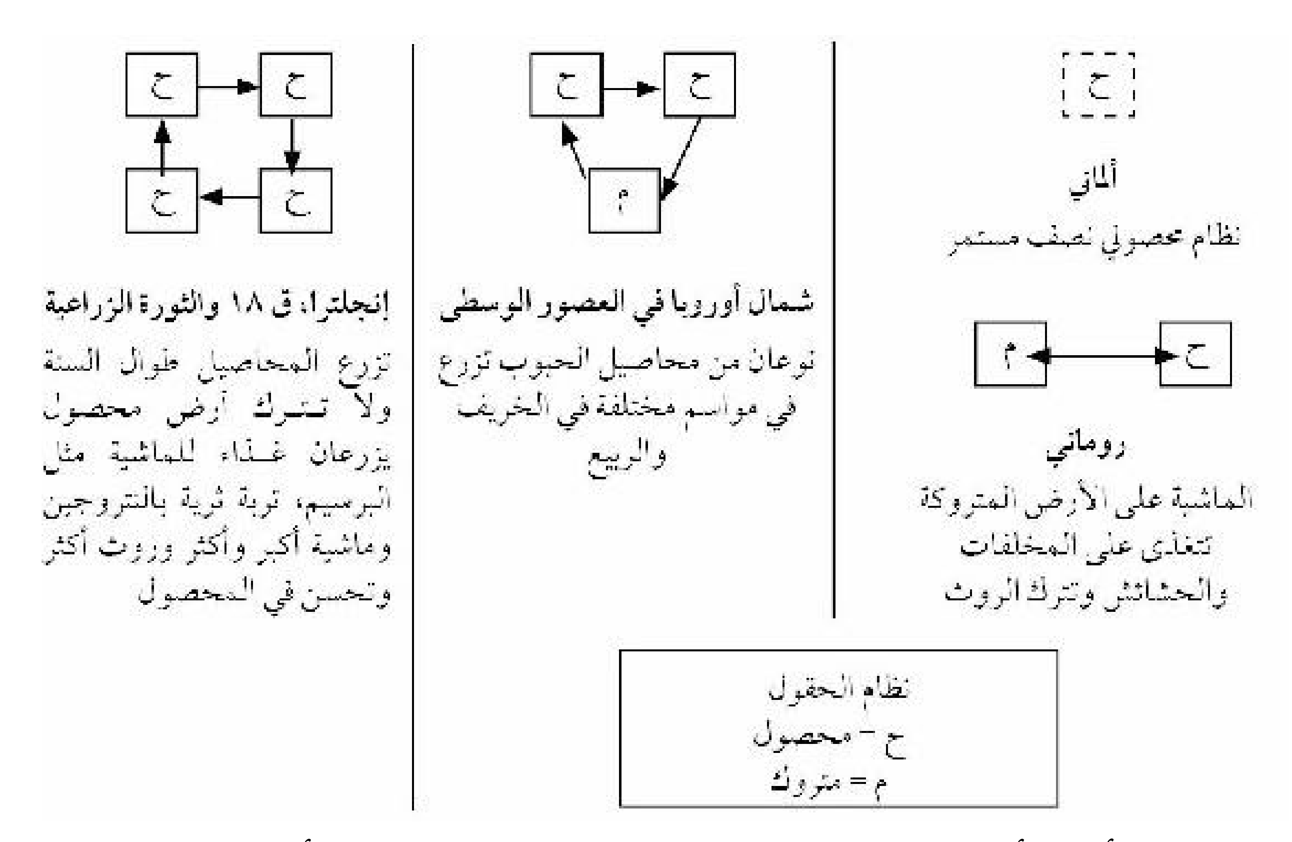
في إنجلترا تم تبني أسلوب مختلف لتنظيم الأراضي بعد انتهاء الاستعباد. فقد تم إلغاء كل أشكال المستحقات الإقطاعية. أقنان الأرض أصبحوا مزارعين مستأجرين وفقًا للشكل المعاصر، بأن يدفع إيجارًا للأرض للمالك. ويحمل المستأجر عقد حيازة، وفي بعض الأحيان لفترة طويلة ربما تطول لتمتد طيلة عمره، لكن عندما ينتهي التعاقد، يستطيع المالك أن يتعاقد مع مستأجر جديد. في فرنسا تمتع الفلاح بضمان أكبر، فلا يمكن طرده، ولكن عليه دفع المستحقات الإقطاعية. وجود هذه العلاقة الحديثة التجارية بين صاحب الأرض والمستأجر في إنجلترا، مكنت من نقلة كبيرة في الإنتاجية الزراعية بما عرف بالثورة الزراعية.

كانت للثورة الزراعية عنصران: تحسن في ممارسة الزراعة، وإعادة تنظيم الحيازة الزراعية. لم يكن لها علاقة بالميكنة الزراعية، والجرارات الزراعية، ومعدات الحصاد التي جاءت بعد ذلك.

أولًا، بالنسبة للممارسة الزراعية. كانت المشكلة التي واجهت المزارعين، أن الزراعة المستمرة تجهد التربة. كيف تحلها؟ المزارعون الألمان، خارج الإمبراطورية الرومانية، انتقلوا ببساطة إلى أرض جديدة عندما تهلك الأرض القديمة. هذا يعتبر نصف دوام للزراعة. وفي الإمبراطورية نفسها كانت تقسم الأرض إلى جزءين. الجزء الأول يزرع والثاني يترك، بما يعني إراحة الأرض؛ الخيل والماشية تترك في الأرض غير المزروعة

ترعى مما تبقى من محصول العام الماضي وتترك روثها في الأرض. في العام الزراعي التالي كانت هذه الأرض تحرث وتعد وتزرع، وتترك الأولى لترتاح تربتها. وكان هذا هو نظام الزراعة في جنوب أوروبا حتى القرن التاسع عشر. في شمال أوروبا، في العصور الوسطى، تم تطوير نظام الحقول الثلاثية، اثنان يزرعان، والثالث يترك للراحة. يزرع محصول للحبوب في الخريف والثاني في الربيع. يمكنك ملاحظة زيادة الكفاءة على هذا النحو: فثلثا الأرض تنتج بدلًا من النصف.

في إنجلترا، في القرن التاسع عشر، قسمت المزارع إلى أربعة أقسام، وكانت المحاصيل تزرع في الأقسام الأربعة. هذه كانت ثورة زراعية. كيف تم ذلك؟ إذا زرعت الأرض على الدوام فإنها تنهك. لكن طريقة التفكير المبدعة وراء هذا الأسلوب تمثلت في أن اثنين من المحاصيل كانت من الحبوب كما كان في السابق، ومحصولين آخرين ينتجان كأعلاف للماشية مثل البرسيم أو اللفت. هذه المحاصيل تأخذ عناصر مختلفة من التربة، وبهذا لا تجهد من الزراعة المستمرة للحبوب. البرسيم يجدد التربة بإدخال النيتروجين من الطقس المحيط إليها. ولما كانت هناك محاصيل تزرع للماشية، التي كانت تترك لتعيش فقط على مخلفات المحاصيل في السابق، فأصبح ممكنًا رعاية أعداد رءوس أكبر من الماشية، تتغذى أفضل، وتصبح أكبر حجمًا، وتترك روثًا أكثر في الأرض. وفي نهاية العام تحول الأرض التي خصصت للماشية إلى أرض تزرع حبوبًا وتنتج محصولًا أفضل. ماشية أفضل وأكثر ومحاصيل أكبر، وقد كان هذا نتاج نظام الزراعة بالحقول الأربعة.

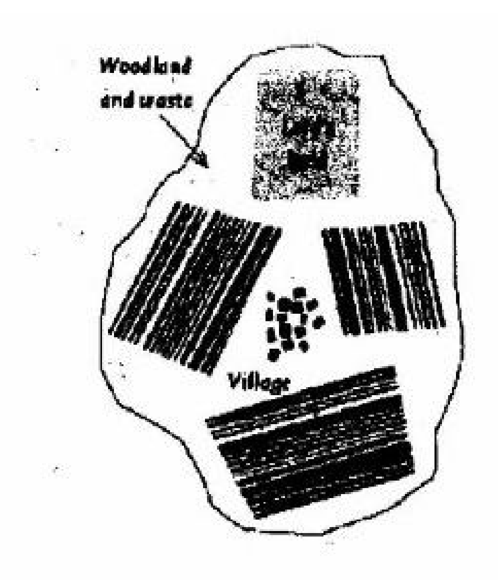


في هذه الأثناء، أعيد تنظيم الحيازات الزراعية بما سمح للفلاح أن تكون له حيازة كبيرة، ولمزرعته حدود واضحة. حل هذا محل نظام العصور الوسطى، الذي كان الفلاح يحصل فيه على شريحة أو قطاع من كل حقل تتوزع فيه أرض القرية. لم تكن لديك مزرعتك؛ المزرعة تملكها القرية، وإن كانت ملكيتها الفعلية تعود للورد. تأخذ القرية قرارات بما يجب زراعته، وأين، ومتى، وكانت ماشية كل فرد تترك لترعى في الأرض المتروكة. وخارج الحقول الثلاثة، كانت أرض فضاء مهملة، أو غابات صغيرة متاحة للكل للرعي فيها، أو الحصول على الأحطاب.

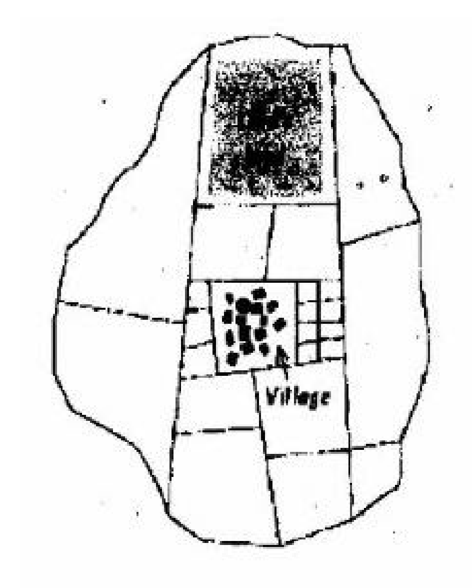
إعادة تنظيم الأرض في حيازات كبيرة كان من خلال قانون أصدره البرلمان. قانون لكل قرية. برلمان إنجلترا كان تجمعًا لكبار الملاك، الذين قرروا أن التجميع للحيازات

أمر ضروري للممارسات الزراعية الجديدة. زراعة المحاصيل الجديدة والرعاية الأفضل للماشية تطلبت رعاية شخصية من المزارعين، وليس سيطرة عامة من قبل القرية. اللورد الذي أراد زيادة العائد من أرضه، ومن ثم الدخل الذي يحصله من إيجارها، كان عليه أن يتبنى النظام الجديد للمزارع الكبيرة المجمعة. المُزارع الذي يرفض مثلًا زراعة اللفت كان يطرد، بمعنى ألا يجدد التعاقد معه.

عملية الدمج تمت بعناية كبيرة. قام مفوضون بمراجعة كل شخص في القرية للتعرف على حقوق ملكياتهم. حق زراعة الشرائح في الحقول المشتركة، وحق الرعي في الأراضي



قبل نظام التطويق والدمج
ثلاثة حقول مقسمة إلى شرائح



بعد نظام التطويق
مزارع مجمعة بمساحات مختلفة

المشاع. وتم تحويل ذلك إلى حق الحيازة المجمعة في مساحة محددة. الأشخاص الذين عانوا بإعادة التنظيم هم هؤلاء الذين كان لهم حق الرعي فقط في الأرض مشاعة

الملكية، حصلوا على مساحات صغيرة جدًّا لا تصلح لشيء. وكانوا أكثر الأشخاص احتمالًا للهجرة إلى المدن. لكن بشكل عام، فإن الممارسات الزراعية الجديدة تطلبت عمالة أكبر عددًا وليس أقل. كان هناك خروج كبير ونزوح إلى المدن، لكن كان هذا بسبب زيادة السكان.

الزيادة في الإنتاجية الزراعية جعلت نمو المدن ممكنًا. بشكل عام، أمكن لنسبة أقل من السكان أن توفر الطعام للكافة. إنجلترا كانت أول دولة كبيرة حديثة تقوم بهذه القفزة. كان هناك من يسعى إلى تحسين الزراعة في فرنسا بمحاكاة النظام الإنجليزي بالدمج، لكن الفلاحين هناك كانوا ملاكًا للأرض ومرتبطين بنظامهم المجتمعي السائد، حتى الملكية المطلقة لم تستطع أن تغير هذا.

منذ منتصف القرن الثامن عشر وما بعده، حدثت ثورة صناعية في أعقاب الثورة الزراعية. فبدلًا من نسج القطن والصوف على أنوال بدائية في أكواخ بالقرى، انتقل العمل إلى مصانع حيث المخترعات الجديدة بوقود من المياه في البداية تحرك دواليب المصانع ثم الماكينات البخارية. شغل العمال هذه الماكينات وصانوها وعملوا على مدار الساعة لصاحب العمل، بدلًا من أن يكونوا عاملين لأنفسهم. سكان المدن حيث مصانع النسيج من القطن والصوف ارتفع عددهم. كل الأنشطة الاقتصادية تم ربطها في البداية بشبكة من القنوات المائية، وبعدها بالسكك الحديدية. أصبح هناك دولة يمكن نقل البضائع عبر أركانها.

لم تخطط إنجلترا لثورتها الصناعية. لكن مهد لها لأن البرلمان سيطر على الحكومة. الحكومات في أوروبا خططت وروجت وحمت الصناعة حتى تزيد القوة الاقتصادية والعسكرية للدولة. نبلاء وكبار ملاك إنجلترا، الذين شكلوا البرلمانات، كانوا منخرطين أنفسهم في النشاط الاقتصاديين وأكثر رغبة في إطلاقه. القواعد القديمة المقيدة للصناعة والتشغيل تمت تنحيتها جانبًا.

التغيرات الاجتماعية التي أنتجتها الثورتان كانت مؤلمة. لكن أول دولة صناعية حضرية التزمت بوعد أن عموم الناس الذين عاشوا عند حد الكفاف وعانوا بشدة، يمكن نقلهم إلى ازدهار لم يتخيله أحد.

وقفة للتامل: ماذا هنالك بشان اوروبا؟

كانت الحضارة الصينية، ولوقت طويل، أكثر تقدمًا من الحضارة الأوروبية. فمن الصين، بشكل مباشر أو غير مباشر، تعرفت أوروبا على الطباعة وصناعة الورق، والبوصلات، والبارود، والسدود لتنظيم المياه في القنوات. لكن في أوروبا، حدثت هذه المعدلات المستمرة للنمو الاقتصادي لأول مرة، وبعدها الثورة الصناعية. وفي أوروبا تكونت نظم الحكم الممثلة للشعوب، وأُعلنت حقوق الإنسان كعلامات مميزة للحداثة. فماذا هنالك تحديدًا بشأن أوروبا؟

في عام ١٤٨٠ أعلن الإمبراطور الصيني «مينج» أن الاستكشافات والتجارة الدولية ممنوعة؛ من استمر من التجار في عمله، اعتُبر من المهربين، وأُرسلت القوات لتحطيم مواقعه وحرق سفنه. لم يفعل مثل ذلك أي ملك أوروبي، أو استغل سلطاته لفعل ذلك ولتحمل عواقبه. عمل ملوك أوروبا في إطار شبكة من الدول المتناطحة؛ كان للإمبراطور الروماني فرصة ـ أو فخ ـ تمثل في عدم وجود أي منافس له بذات القوة. ساعدت المنافسة بين دول أوروبا في دفعها إلى التوسع عبر البحار.

بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية في غرب أوروبا، لم تستطع قوة واحدة بعدها السيطرة على كامل الزمام الذي استحوذت عليه. تخيل الوضع إذا ما قامت قوة واحدة بغزو روما، كما فعل المانشوس في الصين، أو المغول في الهند، أو العثمانيون في الشرق

الأوسط. من خلال الغزو، أصبحوا سادة على الأقاليم التي احتلوها. أما غزاة روما، فكانوا قبائل جرمانية مختلفة متناحرة. كانوا سادة على القليل جدًّا من الأرض. لم يقوموا بغزو للإمبراطورية الرومانية، بقدر اكتشافهم أن الإمبراطورية تختفي من تحت الأقدام. لم يكن لدى الجرمانيين سابق عهد بالحكم لدولة قائمة، ولم يستطيعوا الإبقاء على الماكينة الرومانية لجمع الضرائب. لقد أسقطوا واحدة من المبادئ الراسخة للحكم بمحاولاتهم لإدارة دولة وهم غير قادرين على فرض ضرائب عليها.

الجانب الأكبر من التاريخ الأوروبي يعتمد على هذه اللحظة الفاصلة. لم تسيطر الحكومات على الشعوب، كان عليها أن تعمل بجد وتكافح لتحظى بولاء الشعوب. كان عليها أن تقيم نظام حكم جيدًا ـ عهد بالسلم من الملك ـ في مقابل مد سلطاتهم. لم يكن بمقدورهم بسط نظام لجمع الضرائب بسهولة ما اعتادته ممالك الشرق الأوسط وآسيا.

لقرون عديدة، كان التهديد لسيطرة الملك، يأتي من أقوى رعاياه، من النبلاء أصحاب الأراضي. في النهاية تم إخضاعهم، ولكن كانوا من القوة والبأس مما جعلهم قادرين على الحصول على حقوق الملكية الخاصة لهم ولغيرهم. ليس للملك ملك كل شيء، هذه هي قاعدة الحرية الأوروبية، ومصدر رخائها.

وحتى يسيطر الملوك على النبلاء، اعتمدوا على التجار ورجال البنوك، الذين منحوا القروض والأفراد لمساندة بيروقراطيتهم، بالإضافة إلى ما قدموه من ضرائب على

ثرواتهم. قام الملوك الأوروبيون بفرض الضرائب بانتظام، لكن دون إرهاق شديد لدافعي الضرائب، حتى لا يقتلوا الإوزة التي تبيض ذهبًا. أما حكام آسيا، فكانوا أشد جباية وسطوة بضرائب انتقامية، أو ببساطة من خلال مصادرة البضائع، إذا امتنع التجار عن السداد. كان على الملوك الأوروبيين اتباع طرق أكثر حرصًا، لأنهم لم يكونوا منفردين في ملعب صراع القوى بين الدول، وإذا ما تم الضغط بشدة على التجار، لانصرف ولاؤهم إلى غيرهم. وكان عليهم الاهتمام بالنمو الاقتصادي، والتكنولوجيا الجديدة، وإن كان تركيزهم على تكنولوجيا الحرب، لكن كما في وقتنا المعاصر، فإن للإنفاق العسكري مزايا تتجاوز قطاعه. وبالإضافة إلى هذا الحرص في التعامل، احتفظ الملوك في ذاكرتهم بالإمبراطورية الرومانية، والالتزامات التي على عاتق أمير مسيحي في حماية الرعايا من البطش والقهر، والذي كانت مظاهرهما أكثر شيوعًا في الممالك الآسيوية عنها في الممالك الأوروبية.

وبعد سيطرة الملوك على النبلاء القدامى، أصبحوا رعايا لطبقة جديدة، ديناميكية؛ من برجوازية الحضر. لما كانت الملكية ضعيفة، أعطت المدن حق الحكم الذاتي، والذي أصبح أكثر ظهورًا مع نمو الثروات. ومقارنة بالنبلاء، الذين استطاعوا قيادة رجال مسلحين وحماية أنفسهم وراء القلاع، ظهر البرجوازيون بشكل مسالم، وغير مهدد لسلطة الملوك. وبغض النظر عن مشاحنات النبلاء، فقد شكلوا جزءًا من النظام الاجتماعي الذي كان الملوك رءوسه الطبيعيين، لكن البرجوازيين، وطريقة حياتهم، لم

تتطلب ملوكًا في الأجل الطويل، بما جعلهم أكثر تهديدًا للحكم الملكي من النبلاء.

من بداياتهم المتواضعة، حصلت الملكيات على سلطاتها بالتدريج، فيما عدا إنجلترا ففيها تم ترويض الملكية من قبل البرلمان، كمؤسسة استمرت منذ العصور الوسطى، وفيها اضطر الملوك للتشاور مع رعاياهم الأكثر مالًا. حتى في فرنسا، الأكثر شهرة في نظم الملكية المطلقة، لم تصل سلطة الملك إلى كل بقاع مملكته. وحتى يبسط نفوذه، كان عليه عقد عدة صفقات وبعض التنازلات. وفي الوقت الذي لم يجتمع فيه البرلمان العمومي، صمدت البرلمانات المحلية، في الأقاليم البعيدة، ولعبت دورًا في رفض تحركات الملك، في الثمانينيات من القرن الثامن عشر، لإصلاح النظام الضريبي. وعندما باءت محاولاته بالفشل، أُجبر على إعادة إحياء البرلمان. وهو أمر قد فُرض على الملك، لأن الإصلاحيين وجدوا في النموذج الإنجليزي بديلًا من خلال نظام حكم برلماني. أما في وسط أوروبا، فيما يعرف اليوم بألمانيا وإيطاليا، لم يستطع أي ملك أن يقيم دولة قوية، بسبب منافسة الأباطرة والباباوات على السلطة. فظهرت أشكال من الدول ذات الاستقلال الظاهري: مدن، ومدن دول، وإمارات، كحالة متطرفة من تناثر مراكز السلطة في أوروبا. وفَّرت هذه الدويلات المناخ المساند للنهضة، وإصلاح الكنيسة التي بدلت حال أوروبا جميعها.

ورغم أن أوروبا كانت مقسمة، إلا أنها كانت ذات حضارة واحدة، عرفت في العصور الوسطى، وما بعدها، بـ«العالم المسيحي». وحتى بداية عهد الإصلاح كانت

الكنيسة هي المؤسسة الشاملة، المنتشرة عبر كل الحدود. في أحوال كان للكنيسة طموح للسيطرة على الدول، ولكن رأى الملوك أنهم رغم اعتبارهم حماة للعقيدة المسيحية، إلا أنهم ليسوا مرغمين، على الدوام، لتقديم الطاعة لأوامر الكنيسة. هذا النزاع بين الأباطرة والباباوات، كان النموذج الأكثر ظهورًا للتوتر الدائم بين الكنيسة والدولة، وهو ما شكل بُعدًا آخر لتفتيت السلطة.

سيطرت الكنيسة، مع ذلك، على الثقافة العامة لهذا العالم المسيحي. كانت الحامية للكتاب المقدس، وكذلك لتعاليم وثقافة اليونان وروما. وفي العصور الوسطى، قام رجال الكنيسة بنسج هذه التعاليم مع الإنجيل، لإنتاج علم لاهوت متسق. أما نقطة ضعف الكنيسة فكمنت في أن الإنجيل كان ضعيف التأثير في الكنيسة نفسها ـ كتنظيم معقد، بُني على قواعد الحكم الروماني ـ وفي التعاليم التي صانتها من روما، والتي كانت نتاج كُتاب وثنيين. وقد تفجرت هذه التناقضات مع عملية الإصلاح وحركة النهضة.

في الصين، تركزت قوة السلطة بلا منازع، في يد الإمبراطور، وفي الثقافة المرتبطة بالكونفوشيوسية التي ساندت الحكم الإمبراطوري. كانت الكونفوشيوسية دليلًا لسلوك الفرد والمجتمع، وترسخت في مفاصل الدولة. كل من حكم الصين، بشكل رسمي أو غير رسمي، انغمس في الكونفوشيوسية، ومن يرغب في العمل الحكومي، عليه أن يمر باختبارات فيها.

أما في أوروبا، فلم تتركز السلطة على هذا النحو، بل كانت الثقافة العليا هي التي تركزت في نخبة محددة، ولم ترتبط بمن في الحكم. كان الصينيون في غاية المهارة، لكن مهارتهم كانت تحت السيطرة، ولم يحدث من الابتكارات أو التطورات ما يزعج النظام. يعود انفتاح المجتمع الأوروبي إلى عهد بعيد. حيوية اقتصادها واضطرابات الحياة الفكرية في الزمن المعاصر، ترجع إلى حقيقة أنه لا توجد سلطة واحدة مسيطرة تشكلها إلى الأفضل أو الأسوأ. ميراثها المتنوع يمكن استطلاعه؛ فإيمان الإغريق بالرياضيات، تم إدراكه أثناء الثورة العلمية، والتي أوجدت بدورها قاعدة جديدة للتطور التكنولوجي.

يتساءل المؤرخون الاقتصاديون دومًا عن الأسباب التي جعلت أوروبا الأولى في الاتجاه نحو التصنيع، كما لو كانت المجتمعات الأخرى في ذات السباق، وأن أوروبا هي التي وصلت إلى الهدف أولًا. «باتريشيا كرون»، والتي شكلت أفكارها جانبًا كبيرًا من هذا الكتاب، تطرح هذا السؤال: هل كانت أوروبا الأولى حقًّا، أم أنها كانت فلتة من فلتات الزمن؟ ليس لديها شك أن أوروبا من «الفلتات».

قوى مدمرة

كانت أوروبا مجموعة من الدول دائمة الصراع فيما بينها. وفي القرن العشرين، دخلت الدول الأوروبية في حربين مدمرتين، تم فيها قتل جنود ومدنيين على نطاق واسع وغير مسبوق. في أثناء الحرب العالمية الثانية، قامت القوات النازية الألمانية، تحت قيادة «أدولف هتلر»، بمحاولات منظمة للقضاء على اليهود الأوروبيين، هول من الرعب غير مسبوق في التاريخ الأوروبي. كيف حدث هذا؟

لعبت قوتان، تم تقديمهما في هذا الكتاب، دورًا كبيرًا: الحركة القومية، والتي ترجع أصولها الفكرية إلى ألمانيا، وعملية التصنيع والتي بدأت في بريطانيا. دعمت الحركة القومية أواصر المواطنين بدولهم، واستعدادهم للقتال والموت في سبيلها. كان هذا مصدرًا للصراع في دول شرق ووسط أوروبا، والتي أصبحت لاعبًا في أحداث التاريخ.

أما التصنيع، فقد جذب الناس بعيدًا عن الأقاليم الريفية، إلى هذه المجتمعات التي يجهل الناس فيها بعضهم في المدن. زاد السكان بشكل متسارع؛ تجمع الناس معًا، كما لم يحدث من قبل. تعلموا كيف يقرءون. عرفوا عن مجتمعاتهم في المدارس والصحف، والتي بدأت طباعتها بأعداد كبيرة، بتكاليف رخيصة، بماكينات طباعة تدار بالبخار. في القرن العشرين، استمع الأوروبيون إلى ما تبثه الإذاعة، وتابعوا مشاهدة الأفلام. كان

«هتلر» شخصية إذاعية، ونوعًا جديدًا من نجوم الأفلام. ومع ضعف عُرَى الارتباط الاجتماعي، وتراجع دور الكنيسة، أصبح الشعور الوطني الذي تشبعه المدارس، وتروجه وسائل الإعلام هو ما يجمع الناس معًا. أصبحت القومية بديلًا للدين، المسيحية في العالم المسيحي تمنح الأفراد مكانًا في مجتمع ممتد ومتواصل. ليسوا كمسيحيين في العالم المسيحي، لكن كفرنسيين في فرنسا، أو ألمان في ألمانيا. كانت هناك أناشيد وطنية وأعلام، وأبطال قوميون وبطلات، وتواريخ وأماكن تبجل حتى تعضد الولاء لهذه العقيدة الجديدة.

إذا كانت الحركات القومية قد مهدت للحروب، فإن عملية التصنيع جعلت هذه الحروب أكثر دمارًا. فأفران الحديد والصلب الجديدة أنتجت أسلحة أكبر، وأكثر تدميرًا. كانت البنادق تصنع يدويًا بحرفيين يدققون الصنعة، بما يجعل الأجزاء المتحركة متوافقة مع بعضها. لكن مع تطوير ماكينات دقيقة، فإن كل الأجزاء تصنع بذات النمط تمامًا، بما مكن من إنتاجها بأسلوب سريع واسع النطاق. كانت البنادق أول المنتجات التي تصنع بهذا الأسلوب، وقبل السيارات بستين عامًا.

في أوروبا، كان هناك نطاق جديد من العلاقات والشئون البشرية: إنتاج ضخم، ومجتمع كبير، ومذابح لأعداد غفيرة من الناس.

شكلت عملية التصنيع تهديدًا جديدا للمجتمعات الأوروبية. ورغم احتجاجات الفلاحين المتكررة، إلا أنه كان من السهل إخمادها. أما العمال في المدن الصناعية، فقد

عاشوا وعملوا بالقرب من بعضهم البعض، وبعدما تعلموا القراءة والكتابة، أصبحوا قادرين على فهم توجهات القوى التي سيطرت عليهم، وأوجدوا تنظيمات، أصبح لها وجود دائم. ومن خلالها استطاعوا المطالبة بحياة أفضل، وأصبح لهم رأي في إدارة مجتمعاتهم.

نظم العمال حركات احتجاجية، للمطالبة بحقوقهم السياسية، ومن أهمها حق التصويت. شكلوا نقابات عمالية، لزيادة أجورهم وتحسين ظروف العمل. شكلوا أحزابًا سياسية بهدف إقالة رؤسائهم في العمل، وجعل الصناعة تدور من أجل من يعملون: كان هذا برنامج الاشتراكية. ولما فقدوا الأمل في تغييرات حقيقية، من خلال وسائل سلمية، خططوا لثورات من أجل التخلص من أصحاب الأعمال ورؤسائهم، وإقامة دولة العمال. هذه الثورات الشيوعية لم يكن لها نجاح طويل في أوروبا، ولكنها نجحت في روسيا، وخشية تكرار ما حدث في روسيا كان لهذه الثورات قوة تأثير خفية في أوروبا. كره القوميون الشيوعيين، لأن الشيوعية تطالب العمال بعدم الحرب من أجل دولهم، لكنها طالبت العمال في كل مكان بالتعاون لمحاربة أصحاب الأعمال والحكومات التي تحميهم.

دعمت عملية التصنيع فئات الطبقة المتوسطة بتجارها، ومصرفييها، وصناعها، وأصحاب الحرف الماهرين. كانوا طبقة قديمة، لكنهم أصبحوا أكثر أهمية بعدما بدأت التجارة والصناعة في النمو. اعتمد عليهم الملوك، ذوو السلطة المطلقة حينها، في مدهم

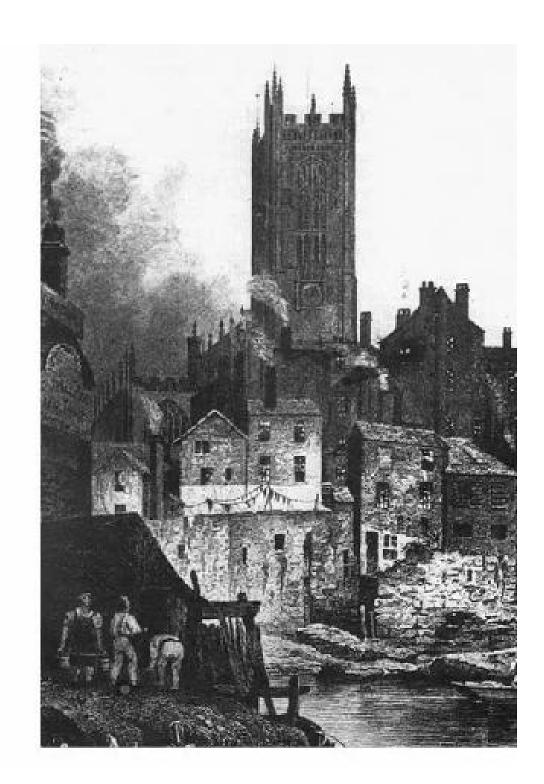
بجانب من ثروتهم، واستعانوا بهم في خدمتهم. في القرنين التاسع عشر والعشرين، زاد عددهم وازدادوا ثقة، فكانوا المجموعة الأكثر التزامًا بالسياسات الليبرالية، أي للحكومات المنتخبة، ولدولة القانون، وللحريات، وللحقوق الشخصية، وحرية الصحافة، وحرية التجمع، وحرية قطاع الأعمال في أن يربح. كانت كل هذه السياسات موجهة ضد توجهات الملوك والارستقراطيين. من ناحية أخرى، لم يرغب الليبراليون في نقل السلطة لجموع الناس، لم يكونوا ديمقراطيين فإلى أي مدى يمكنهم دعم أو مناهضة المطالب الشعبية: كانت هذه معضلة دائمة. واجه العمال نفس المشكلة؛ هل يمكنهم قبول قيادة ليبراليي الطبقة الوسطى في معارك ضد المزايا التي يتمتع بها الملوك والارستقراطيون، أم أنهم سيتم استغلالهم وخيانتهم؟

كيف استطاعت هذه القوى أن تعمل في واقع الحياة في البلدان الثلاث الأهم في أوروبا في القرن التاسع عشر؟ هل أدت عملية التصنيع إلى ثورة؟ سوف نمعن النظر في هذا.

الفصل التاسع: التصنيع والثورة

لم يخطط أحد لقيام الثورة الصناعية في بريطانيا، ولم يكن هناك كذلك أي تخطيط للمدن التي نمت حول المصانع الجديدة. وحتى يتم تسكين العمال، تم تأجير المنازل القديمة لهم بالغرفة، بما في ذلك القبو والسطح؛ ربما شغلت أسرة بكاملها غرفة واحدة. بنيت صفوف متراصة، متلاصقة من المنازل. منازل لها أبواب أمامية، دون أبواب أو حتى نوافذ خلفية. الشوارع لم ترصف، لم يكن هناك صرف صحي، أو مجار لتصريف مياه الأمطار؛ تراكمت القاذورات، بكل نوع، في الشوارع، وفي «مقالب» مفتوحة للقمامة.

في الأربعينيات من



منازل قديمة في مانشستر حيث تزاحم واكتظ فيها العمال وعائلاتهم

القرن التاسع عشر، حلل شاب من ألمانيا كل هذا، وكتب كتابًا حماسيًّا، شجب فيه هذه الأوضاع، وتنبأ بنهايتها، بعنوان: أوضاع الطبقة العاملة في إنجلترا. وكان المؤلف الشاب هو «فريدريش إنجلز»، الذي قدم إلى إنجلترا للعمل، لفترة قصيرة، في مصنع والده لخيوط النسيج. لقد كان، بصورة نظرية، شيوعيًّا، وفي إنجلترا اكتشف، أو اعتقد أنه اكتشف، القوى التي تحول قناعاته إلى حقيقة. كتب أنه لم يعش أناس في العالم كما يعيش الإنجليز. فصناعة السلع بالماكينات أحدث انقسامًا في المجتمع؛ كان هناك طبقتان فقط في المدن الجديدة: ملاك المصانع من الطبقة الوسطى، والعمال. كان العمل نفسه رتيبًا ومذلًّا. لا يملك العمال شيئًا سوى عملهم ليعيشوا منه، فإذا ساءت أحوال العمل، تحولوا إلى معدمين، سواء كانوا من العمال الأكفاء أو السيئين. كان تسكين العمال يتم وكأنه اختبار لأي مساحة أضيق يمكن أن يتحرك فيها البشر، وبأي كمية

محدودة من الهواء .. يمكنهم التنفس، وبأي قدر ضئيل من التحضر يمكنهم المشاركة فيها أو يستطيعون العيش. استنتج «إنجلز» أن هذا الوضع لا يمكن استمراره. وأنه من اليقين، علميًّا، أنه سيكون هناك ثورة. تنبأ بثورة عمالية، تكون الثورة الفرنسية مقارنة بها، كلعب الأطفال.

نشر «إنجلز» كتابه باللغة الألمانية. كان أهم قارئ له «كارل ماركس»، فيلسوف ألماني تحول إلى صحفي ثوري. شكل «ماركس» مع «إنجلز» فريقًا ثنائيًّا، وفي عام ١٨٤٨ نشرا «المانيفيستو الشيوعي»، وفيه أعلنا أن التاريخ يتجه إلى الوضع الذي وصفه «إنجلز» في إنجلترا. وكما تمردت الطبقة الوسطى على الأرستقراطية، فإن العمال سيطيحون بالطبقة الوسطى، ليؤسسوا دولة العمال الشيوعية. تاريخ كل المجتمعات القائمة، كما ورد في مقدمة المانيفيستو الشيوعي، هو تاريخ لصراع الطبقات. وخلاصة نصيحتهما للعمال كانت بأنهم بالإطاحة بالمجتمع، فإنهم لن يخسروا شيئًا سوى الأغلال التي تقيدهم؛ فالقانون والدين في المجتمعات القائمة، استُغلا لقمع العمال. الحقوق الشخصية، والتي نطلق عليها الآن حقوق الإنسان، كانت أيضًا خدعة؛ حيث نفعت أصحاب الأعمال، ولم تفد العمال شيئًا.

كان كتابهما الصغير هذا من أكثر «المنشورات» تأثيرًا، من الناحية السياسية، في القرنين التاسع عشر والعشرين ـ لكن هذا ليس لصحة توقعاتهما. ففي نظريتهما، ستحدث ثورة العمال أولًا حيثما تتقدم الرأسمالية ـ وقصدا بذلك إنجلترا. حدثت في إنجلترا تغيرات

سياسية، ولم تحدث ثورة عمال.

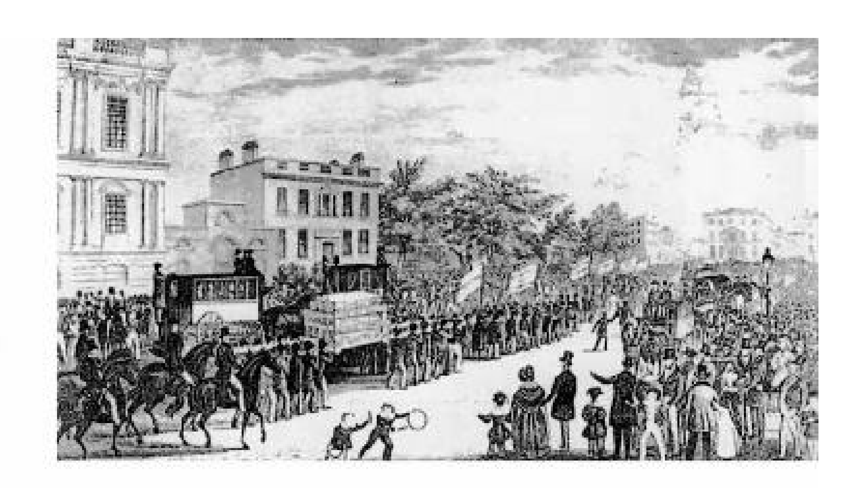
كانت لثورة إنجلترا في القرن السابع عشر الفضل في إخراج دستور أخضع السلطة الملكية للبرلمان. لم يكن هناك نظام موحد لانتخاب البرلمان. قواعد مختلفة، تم تطبيقها في أماكن مختلفة، بشأن من يمكنه التصويت في الانتخابات. بشكل عام، كان لفرد واحد من بين ستة أفراد، حق الانتخاب، وكان العمال مستبعدين من هذا الحق. استمرت المدن التي تقلص حجمها، أو تلاشت، في انتخاب عضو أو اثنين من أعضاء البرلمان. من إذن قام بالانتخاب عندما اختفت مثل هذه المدن؟ قام بذلك الشخص الذي ملك أرض هذه المدينة التي زالت. في هذه الأثناء، حرمت مدن جديدة، كثيرة من أن يكون لها ممثل في البرلمان.

بدأت حركات إصلاح البرلمان في أواخر القرن الثامن عشر. تزامنت حركات الإصلاح هذه مع اشتعال الثورة الفرنسية، التي أظهرت كيف يمكن للإصلاح الثوري أن ينحرف عن مساره. لم يكن لدى الإصلاحيين في إنجلترا أي رغبة في إحداث انقلاب شامل على النظام، وأي محاولة تبنتها طبقة العمال محاكية للنمط الفرنسي في المطالبة بالحقوق، تم قمعها. وفي العقد الثاني من القرن التاسع عشر، تمت التوصية بالدفع بالإصلاح. كان معنى الإصلاح للطبقة الوسطى، ينطوي بالأساس على إنهاء سيطرة الأرستقراطية وملاك الأراضي على البرلمان. ما كان هذا ليتم دون مزيد من تمثيل للمدن، المدن الحقيقية، وربما تم التصويت أيضًا من خلال الاقتراع السري المباشر، بما

لا يمنح الفرصة لملاك الأراضي لإملاء توصياتهم على الناخبين من مستأجري الأراضي. أما بالنسبة للطبقة العمالية، فإن الإصلاح يعني إعطاء حق التصويت لكل الرجال.

تبنى الحزب المعارض في البرلمان أهداف الإصلاح. كان هذا الحزب هو «حزب الويج»، الذي لم يكن أعضاؤه من أبناء الطبقة الوسطى، بل بعيدين تمامًا عن ذلك، فكانوا أكثر أرستقراطية من الحزب الحاكم «الثوري». كان أعضاء حزب «الويج» ممن قادوا في السابق، وخلال القرن السابع عشر، ثورة ضد الملك الكاثوليكي «جيمس» الثاني. نظروا إلى أنفسهم باعتبارهم حماة للحقوق التي يتمتع بها الإنجليز، وأمناء الطريقة الإنجليزية المتبعة بشأن الملكية الدستورية. وبعد فترة طويلة في المعارضة، جاءوا إلى السلطة في عام ١٨٣٠ وفي عام ١٨٣٢، بعد فترة من الصراع من أجل الإصلاح البرلماني. عارض الإصلاح حزب «التوري» ومجلس اللوردات الذي سيطروا عليه. تمت إجراءات الإصلاح، لأن أعضاء الطبقة العمالية هددوا بالعنف والثورة، إذا لم تنفذ إجراءات الإصلاح المطلوبة.

أعطى قانون الإصلاح، الصادر في عام ١٨٣٢، الطبقة الوسطى حق التصويت، ومنع التصويت عن المدن شديدة الصغر، أو تلك غير الموجودة في الواقع. ساند العمال هذه الإصلاحات، بالرغم من أن الإصلاح لم يعطهم حق التصويت. رضوا بهذا الهجوم على النظام القديم، وشعروا أن تغييرات أخرى آتية في الطريق.



عريضة المطالبة بالإصلاح لسنة ١٨٤٢، والموقع عليها من أكثر من ثلاثة ملايين شخص، محمولة إلى البرلمان البريطاني

وعندما لم يتحقق مزيد من الإصلاح المأمول، أعد قادة من العمال برنامجهم من أجل دولة ديمقراطية. وضعت المطالب في عريضة من ست نقاط، وعرف مساندوها بـ«أنصار العريضة». كانت النقاط الست هي: إعطاء حق التصويت لكل الرجال، وحقوق متساوية في التصويت، وسرية الاقتراع، وإلغاء شرط حيازة الأراضي والعقارات لمرشحي البرلمان، ودفع مقابل مادي للأعضاء، والانعقاد السنوي.

كانت طريقة أنصار العريضة في الحشد للمؤيدين هي اختيار ممثلين عنهم في المناسبات المحلية والقومية، وكتابة مطالبهم للبرلمان، وحثه على تأييدها لأنها موقَّعة من قِبل ملايين المواطنين. لكن ماذا لو رفض البرلمان هذه المطالب؟ هنا اختلف أنصار العريضة ـ فمنهم من رغب في استمرار «الضغط المعنوي»، ومنهم من نادى باستخدام القوة. استمر الجدل لأنه في مناسبات ثلاث رفض البرلمان، على مدار عشر سنوات، هذه المطالب. كان «إنجلز» على حق في هذا الشأن، إذ كان أكثر الناس تصميمًا على الإصلاح أبناء المدن الصناعية الجديدة في الشمال. حاولوا وفشلوا في الدعوة لإضراب عام عندما رفض البرلمان المطالب في المرة الثانية. كانت خطتهم الاستمرار في الإضراب حتى تقبل

عريضة المطالب.

كان الكثير من التهديد بالعنف على سبيل المساومة، إذ كان أنصار العريضة يرغبون في إخافة الحكومة، لتقبل المطالب. لكن الحكومة لم تأخذ التهديد على محمل الجد؛ فالطبقة الوسطى التي أصبحت جزءًا من النظام السياسي ساندت الأرستقراطية وطبقة الملاك ضد منح أي موافقة على مطالب أنصار العريضة. عندما لا تتوحد الطبقة الحاكمة، تلوح للثوار الفرص. أدرك أنصار العريضة أن هناك أملًا ضعيفًا في استخدام القوة واللجوء إلى العنف، ولهذا ساندت الأكثرية اللجوء للتأثير الأدبي، وبعد كل محاولة للتهديد بالعنف لجئوا إلى أسلوب تقديم العرائض.

لم تقم الحكومة بإلغاء حركة التظلم بالعرائض. لجأت إلى السيطرة، لا القضاء عليها. أعلنت الحكومة، ومعها القضاء، أن التجمعات العامة قانونية ـ وأن المطالبة بالحق في التصويت قانونية، والمطالبة، من خلال عرائض، بهذا الحق قانونية ـ لقد كانت حقًّا قديمًا. ما لم يكن قانونيًّا، هو الاجتماعات التي تنتهي بشغب؛ أو التحريض بالكلام في اجتماعات أو في الصحف بما ينتهي إلى شغب، أو ازدراء الحكومة أو التهديد بالعنف. كان مثل هذه المخالفات سببًا كافيًا لتوقيف وضبط ومحاكمة أنصار عريضة المطالب. كانت تتم محاكمتهم وفقًا للقواعد المعمول بها، والمعتمدة على الأدلة. وكانوا، في أغلب الأحوال، يتم اعتبارهم من المذنبين، لكن العقوبات كانت مخففة، ستة شهور أو سنة في السجن.

عقدت الحكومة نيتها ألا تقتل أنصار العرائض والمطالبين بالإصلاح، حتى لا تُغضب عامة الناس وتزيد من أتباعهم. يظهر هذا مدى التطور الذي وصلت إليه إنجلترا، لتصبح بحق حاضنة لمجتمع ليبرالي. في مجتمعات أخرى لم يكن الأرستقراطيون، والطبقة الوسطى يرضون بأقل من ذبح أعدائهم من الطبقة العمالية. أرسلت الحكومة قوات عسكرية للسيطرة على أنصار العريضة، لكن قائد القوات تعاطف معهم، واستعمل القوة باتزان.

حتى وهم في خضم المطالبة بالحريات السياسية، فإن قيادات العمال اعتقدوا أن الحقوق السياسية ليست كل ما يريدون. فعملوا على تعليم العمال، وإبعادهم عن إدمان الكحوليات، وهناك من سعى من قادتهم لحصولهم على حيازة أراض صغيرة، أو ضمهم للنقابات العمالية، أو إنشاء تعاونيات اشتراكية. ومن خلال هذه الوسائل أصبح العمال أعضاء محترمين في المجتمع المدني. استمرت هذه الأنشطة حتى بعد موت حركة أنصار العريضة بعد عام ١٨٥٠.

مر أنصار العريضة بمطالبهم لإصلاح البرلمان بموجات ثلاث كبرى من الغضب في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر، تزامنت مع الكساد الاقتصادي؛ بعد ١٨ كانت الأوضاع الاقتصادية جيدة، وتحسنت مستويات معيشة العمال. وبعد ذلك في عام ١٨٦٦، قررت حكومة الحزب الليبرالي، الذي حل محل حزب الويج، وبقليل من التدخل من خارجها، أن تتوسع في الإصلاحات السياسية، من خلال القانون الأول

للإصلاح. وفي عام ١٨٦٧ تقدم حزب «التوري» بالقانون الثاني للإصلاح الذي أعطى لمعظم عمال المدن حق التصويت. وفي عام ١٨٨١ قامت الحكومة التابعة للحزب الليبرالي بإصدار القانون الثالث، الذي أعطى حق التصويت لعمال الريف. قوانين الإصلاح السياسي هذه لم تمنح حق التصويت للرجال كافة، فالناخب عليه أن يكون صاحب أسرة، أو منتميًا لها، أو مقيمًا. كثير من الجنود اكتسبوا هذا الحق، وذلك بصدور القانون الرابع للإصلاح السياسي والذي صدر في عام ١٩١٨، وأعطى حق التصويت لكافة الرجال، كما أعطى حق التصويت للمرأة بشرط أن يتجاوز عمرها ثلاثين عامًا.

***

لم تكن في فرنسا ثورة صناعية، صناعة النسيج أصبحت تتم بالماكينات، لكن صناعات الفحم والحديد لم تتوسع بسرعة. خلال القرن التاسع عشر، لم تكن فرنسا إلا مجتمعًا زراعيًّا، تملك مزارعه أسر الفلاحين نتيجة لثورة ١٧٨٩.

في السنين العشر التالية على الثورة حلت الملكية الدستورية، ثم الجمهورية الديمقراطية، ثم جمهورية مُلاك العقارات، ثم دكتاتورية عسكرية. ثم جربت فرنسا كل هذه النظم مرة أخرى، بالتصوير البطيء، خلال القرن التاسع عشر. استمرت حالة عدم الاستقرار، لأن الانقسامات التي خلفتها الثورة أخذت وقتًا طويلًا لتبرأ. لم يحظ شكل واحد للحكم برضا العموم. فكل فريق رأى ما يمكن أن يحدثه أعداؤه من ضرر. حتى المعتدلون من الثوريين في الفترة من ١٧٨٩-١٨٩١ ـ تجدهم وقد هاجموا

الكنيسة الكاثوليكية، حتى رأت الكنيسة وأتباعها أن الملكية أفضل لهم، أو رجلًا قويًّا مثل «نابليون» كبديل أفضل. لم يكن الليبراليون على استعداد للتنازل للكنيسة، لأن هذا معناه اتباعَ أسلوب رد الفعل وفقد الحريات. كان من الممكن للعمال أن يكونوا حلفاء لليبراليين، ولكنهم خافوا مما يمكن للعمال فعله: فكلما اتخذت ثورة ١٧٨٩ اتجاهًا ديمقراطيًّا، أصبحت أكثر استبدادًا.

تغيير النظام أصبح خيارًا مستمرًّا كلما أصبحت الثورات والانقلابات الفاشلة أحداثًا متكررة. فحتى عندما كانت النظم الليبرالية تتعرض لتهديد ما، سارعت بإغلاق الصحف وإلغاء تصريح المنظمات ـ وبهذا شجعت ثورات أخرى. ومن بين الثورات التي فشلت، محاولات تأسيس دولة العمال ـ في دولة ذات تنمية صناعية محدودة، وطبقة عمالية صغيرة.

ويوضح الجدول أدناه شكل التاريخ السياسي لفرنسا:

١٨١٥ استعادة الملكية	**١٨٣٠ ثورة**	**١٨٤٨ ثورة**	**١٨٧٠ الهزيمة العسكرية**
ملوك البوربون «لويس» الثامن عشر «تشارلز» العاشر	ملوك «أورلين» «لويس فيليب»	جمهورية ديمقراطية ١٨٤٨-١٨٥١	جمهورية ديمقراطية ١٨٧٠-١٩٤٠
		ثورة اشتراكية فاشلة «نابليون» الثالث	إلغاء حكومة باريس ١٨٧١
			محاولة فاشلة لإرجاع الملكية
		إمبراطور ١٨٥١-١٨٧٠	استقرار الجمهورية ١٨٧٩

بعد هزيمة «نابليون» في ١٨١٥، أعاد الحلفاء الأوروبيون، الذين كانوا يحاربونه، أسرة «بوربون» إلى العرش. وتولى الملك «لويس» الثامن عشر؛ لم يكن حاكمًا مطلقًا، لكن لم يكن للناس حق في تشكيل الحكومة. سمح الملك للبرلمان بالوجود، ولكن بصلاحيات محدودة، وكان لنفر محدود الحق في التصويت. خلفه على العرش أخوه «تشارلز»، وكان لا يجيد المبادرة، فأزاحته ثورة عام ١٨٣٠.

الملكية التالية كانت ملكية دستورية، الملك «لويس فيليب»، أو الملك المواطن. جاء من أثر «أورلين»، التي لها بأسرة «بوربون» قرابة، ولكنها أكثر تقدمية. ساند أبوه ثورة واشتهر باسم فيليب العادل. «لويس فيليب» لم يكن ملتزمًا بالمساواة، أناس أكثر أصبح لهم حق التصويت لبرلمانه، لكن لم يصل هذا الحق للعمال. الثورة التي أزاحته عن الحكم في عام ١٨٤٨ أسست جمهورية ديمقراطية. والدستور الذي رسمته تضمن رئيسًا منتخبًا. الانتخابات الرئاسية الأولى فاز بها «لويس نابليون»، ابن شقيق لـ«نابليون». كانت مدته في المنصب أربع سنوات لا تجدد؛ وقبل نهاية مدته الدستورية استولى على الحكم بانقلاب، وحكم كإمبراطور، ساعيًا إلى مجد عمه بفشل ذريع. في عام ١٨٧٠ قبض عليه البروسيون، الذي دخل حربًا ضدهم بغباء. حلت محله جمهورية ديمقراطية.



التقاليد الثورية:
الرسام «ديلاكروا»
يرسم ثورة ١٨٣٠
تقود الناس للحرية

بدأت الجمهورية بداية مضطربة. أسفرت انتخاباتها الأولى عن أغلبية معادية للجمهورية. لذا حاول البرلمان استعادة الملكية، والتي تهيأ لها مرشحون متنازعون من أسر البوربون والأورلين. لم يرغب مواطنو باريس أن يحكمهم نظام مُعادٍ للجمهورية، فأسسوا حكومتهم، والتي قمعتها الجمهورية. وارتفع تصويت أنصار الجمهورية، وبذلك حصنت الجمهورية مع عام ١٨٧٩.

حكومة باريس كانت المحاولة الأخيرة، والأكثر تصميمًا، لامتلاك الثورة. منذ عام أمدوا الشوارع بالمحاربين من أجل الثورة. لم يكن بينهم جدل في قانونية اللجوء للقوة. وإذا سنحت الفرصة، أتخموا محال بيع السلاح من أجل استعادة الجمهورية، منشدين نشيد الثورة، ووضعوا التحصينات حول الشوارع، واستعدوا للقتال. لكن النظام الجديد كان دائمًا محبطًا. في عام ١٨٣٢ ثار الناس على «لويس فيليب» الذين ساعدوه في الوصول إلى الحكم عامين قبل الثورة عليه. وتم إخماد الثورة بقتل المئات. في عام

١٨٤ كان العمال وممثلوهم جزءًا من الحكومة الثورية الأولى. ولإسعاد العمال، خفضت ساعات العمل اليومية إلى عشر ساعات في باريس، وإحدى عشرة ساعة في الأقاليم، ومن أجلهم أسست «ورش وطنية»، ليس من أجل الربح، ولكن من أجل تشغيل العاطلين. لكن بعد الانتخابات الأولى، تحولت الجمهورية إلى توجه أكثر محافظة، وتم إغلاق هذه الورش. ثار الناس مرة أخرى، لكن ثورتهم أخمدت بقتل ما يقرب من ثلاثة آلاف نفس.

لمدة عشرة أسابيع، كانت السيطرة لعموم الناس على حكومة باريس. كانوا جمهوريين، ضد القساوسة، وكانوا اشتراكيين. كان هجومهم على الكنيسة ورجالها عنيفًا، استخدموا الكنائس لتخزين السلاح وعقد الاجتماعات السياسية، واغتالوا أحد رهائنهم، وهو بطريرك باريس. شجعوا تشكيل التعاونيات، وأعلنوا أن الأجور والفواتير المعلقة، غير المدفوعة، لا يجب الالتزام بها. أعلنوا أن الخبازين غير مجبورين على العمل ليلًا، فكان معنى الاشتراكية ألا يوجد خبز للإفطار ـ في باريس!

كان الناس الذين قادوا وسادوا حكومة باريس من غير عمال المصانع ـ فلم تكن باريس مدينة صناعية؛ كانوا عمالًا حرفيين، عمال بناء وعمال مهرة في الورش الصغيرة، ومعهم الطلاب والصحفيون وآخرون ممن اعتادوا الثورة. الاشتراكية أصبحت جزءًا من أجندة العمال، ليس بسبب تغير ظروف العمل، لكن بسبب كون باريس قلب الثورة، أصبحت مركزًا طبيعيًّا لأفكار تحرير الطبقة العمالية.

لكن فرنسا لم تكن لتساند أهداف العمال الباريسيين. صنعوا الثورة، لكن عندما عقدت الانتخابات، كان الفلاحون، الذين يمثلون أغلبية السكان، على استعداد للاقتناع بالتصويت لحماية الملكية الخاصة والكنيسة. في عام ١٨٧١ أدرك أنصار حكومة باريس هذا التوجه، وأن كل بقعة في فرنسا عليها أن تحكم نفسها بنفسها، كحكمهم لباريس؛ لم يفرضوا أنفسهم على كل فرنسا. الحكومة الجمهورية الجديدة، التي شغلت قصر «فرساي»، وبها أغلبية من أنصار الملكية، لم يكن لها أن تقبل هذا الترتيب من قبل حكومة باريس، فأرسلت القوات لاستعادة باريس لفرنسا. قتل عشرون ألفًا من أنصار حكومة باريس في قتال الشوارع، وفي الإعدامات السريعة التي أعقبتها. لم يكن هذا مجرد عمل عسكري، بل كان كراهية طبقية، وتصفية سياسية.

تصاعدت آمال الاشتراكيين والشيوعيين بأن هناك، ولو لفترة وجيزة، حكومة عمال. شجع «ماركس» هذه الحرب، التي اشتعلت بين الطبقات في فرنسا، على الرغم من أن أسبابها لم تكن على النحو الذي تنبأ به هو و«إنجلز». أعتقد أن أنصار حكومة باريس لم يكونوا بالحسم الصارم، الكافي. كان عليهم التوجه إلى الفرساي ليسقطوا الحكومة الجمهورية الجديدة قبل أن يستقر لها الأمر، وتبسط نفوذها على فرنسا. الحاجة إلى الصرامة، وعدم اللجوء إلى المساندة الشعبية الكاملة، ولكن السيطرة على الحكم، كان الدرس الذي تعلمه «لينين»، الذي سيصبح يومًا القائد للثورة الشيوعية في روسيا.

هذا القمع الوحشي لحكومة باريس، أوقف تهديدات الطبقة العمالية، واتحاداتهم،

وأحزابهم بالعمل. كان بعض العمال متعلقين بالثورة، لكن الجمهورية لم تكن لتسمح لهم بفرصة كتلك التي تهيأت للعمال من قبل. ورغم ذلك، كانت جمهورية ديمقراطية، حصل العمال على حق التصويت، واحتفظوا به. واستمرت الجمهورية حتى هزمت فرنسا في الحرب العالمية الثانية.

***

حدثت الثورة الصناعية في ألمانيا متأخرة؛ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كانت ثورة صناعية من المرتبة الثالثة، حيث سادت الصناعات الكيماوية والكهربائية، وكذلك المنسوجات (المرتبة الأولى)، والفحم والحديد (المرتبة الثانية). ساند العمال الصناعيون الألمان الحزب الاشتراكي الأكبر في أوروبا، والذي حافظ على تعاليم «ماركس» لفترة طويلة. هذا جعلهم معارضين لحرب في مجتمع ملك أضخم آلة حربية في أوروبا.

لم تتوحد ألمانيا حتى عام ١٨٧١، تزامن هذا مع انطلاق ثورتها الصناعية. فيما قبل ارتبطت الولايات الألمانية المختلفة من خلال نظام كونفيدرالي مرن، والذي شكلته الدول التي توحدت لتهزم «نابليون» في ١٨١٥. حل هذا النظام الكونفيدرالي محل الإمبراطورية المقدسة التي محاها «نابليون» من الوجود. احتضنت ألمانيا مفكري القومية الكبار، ومنحتهم جذور الفكرة القومية وضرورتها، لأنهم عندما كتبوا في ذلك لم تكن هناك دولة قومية ألمانية بالفعل في هذا الزمن.

كانت هناك معوقات أمام ألمانيا لتصبح دولة قومية. قدرت الولايات الألمانية، كل على حدة، أهمية استقلالها وتعلق شعوبها بها، رغم أن القومية كانت قوة صاعدة. أكبر دولتين ألمانيتين، بروسيا والنمسا، كانتا متصارعتين، غير راغبتين في أن تقوم إحداهما بدور في تشكيل الدولة الألمانية القومية، لتصبح الطرف الأكبر فيها. كانت ألمانيا الموحدة مؤهلة لتصبح قوة جديدة في أوروبا، بما جعل القوى الأوروبية الأخرى تراقب عن كثب أي تحرك يوجِد هذا الاتحاد الألماني.

فجأة، وفي عام ١٨٤٨، ظهر للوجود طريق جديد للوحدة. فحدوث ثورة باريس في هذا العام، أشعل ثورات في عموم أوروبا، بما في ذلك ألمانيا. لكن لم يحدث هذا في إنجلترا: فأنصار عريضة المطالب جمعوا توقيعات جديدة، لكن عندما أعلنت الشرطة للحشود أن تجمهرهم لا يمكنه التقدم نحو البرلمان لتقديمها، تفرقت الحشود. في أوروبا، تدافعت الحشود وأخافت الحكام، وأرغمتهم على منح تنازلات ليبرالية وديمقراطية. وهو ما تم سحبه بعدما انحسرت ومرت اللحظات الثورية، وأصبح الليبراليون خائفين من الديمقراطيين. وفي الوقت الذي احتدمت فيه الفوضى، اجتمع ممثلون منتخبون عن الولايات الألمانية في فرانكفورت، ليؤسسوا الدولة الألمانية.

كان هذا تجمعًا لأصحاب المعرفة والمهارة: أساتذة، قضاة، إداريون، أصحاب مهن، وبعض رجال الأعمال، أغلبهم ليبراليون سياسيًّا، وبأقلية من الديمقراطيين. كان عليهم أن يقرروا، أولًا، ترسيم حدود الدولة الجديدة إذا ما كانت ستضم النمسا كلها،

فإن هذا سيشمل الكثيرين من غير الألمان. قرروا أن يستبعدوا النمسا. أصدروا إعلانًا للحقوق الأساسية، وأقروا دستورًا يعطي حق التصويت لكل الرجال لانتخاب المرشحين للغرفة الأدنى من غرفتَي البرلمان. لكن من سيكون رئيس الدولة؛ أرئيس منتخب، أم ملك منتخب؟ أم يعطى هذا المنصب لأحد أعضاء الأسر الملكية؟ قرروا أن يعطوا هذا المنصب لملك بروسيا ـ لكنه رفض. لم يرغب في أن يكون حاكمًا تحت دستور ليبرالي، وعلم أيضًا أن هذا التجمع النخبوي لم يكن لديه، حقًّا، هذه القوة التي ادعاها: فيم ستفكر النمسا؟ وكيف ستفكر القوى الأخرى إذا ما تقدم ليصبح حاكمًا لألمانيا؟

هذا التجمع النخبوي بدأ عمله عندما كان هناك فراغ للسلطة. وعندما توصل هذا التجمع لتوصياته، كان الملوك والأمراء قد استعادوا سيطرتهم، وبات بمقدورهم تجاهل هذا التجمع. بعض الديمقراطيين في التجمع أرادوا الدفع إلى الثورة، للتخلص من الحكام القدامى، وبناء الدولة الجديدة، لكن الليبراليين لم يكونوا مساندين لهذا لتوجه، خوفًا مما يمكن أن تؤدي إليه الثورة. كان فشل الليبراليين، في فرانكفورت، مدمرًا لهم كصناع للدولة.

«لن تقوم الدولة بالخطب وأصوات أغلبية الناخبين، بل سيقيمها الدماء والحديد». هذه كانت كلمات «أوتو فون بسمارك»، رئيس وزراء ملك بروسيا من عام ١٨٦٢، قائد فنون الدبلوماسية والحرب. في عام ١٨٦٦ أشعل حربًا ضد النمسا، انتصرت فيها بروسيا سريعًا. وفي ترتيبات السلام، جمعت الولايات الشمالية الألمانية التي ساندت

بروسيا، مع الولايات التي ارتكبت خطأ بمساندة النمسا، كلها تحت لواء بروسيا. ثم قام «بسمارك» بافتعال حرب مع فرنسا. كان هذا بمثابة علامة مميزة في الدبلوماسية الأوروبية، وكذلك في الحروب الأوروبية. جعل «بسمارك» فرنسا تفعل ما يريد من خلال التعامل مع بيان صحفي، أو بالأحرى خطاب من الملك، الذي أوضح فيه أن نزاعًا قد حسم مع فرنسا حول من الذي سيحصل على التاج الإسباني. أعاد «بسمارك» تحرير هذا الخطاب (التلغراف) ليفهم منه أن الملك يصد فرنسا عن هذا الأمر، ثم نشر «بسمارك» هذا التلغراف إلى الصحافة. مما تسبب في هياج سياسي في فرنسا ضد هذه الإساءة، وأصبح الشرف القومي الفرنسي على المحك؛ فأعلن «نابليون» الثالث الحرب على بروسيا.



المستشار الحديدي، «أوتو فون بسمارك»

أراد «بسمارك» الحرب لأنه اعتقد، صوابًا، أن القوى الأخرى لن تتدخل، وأنه تحت غطاء الحرب سيتمكن من ضم الولايات الجنوبية الألمانية إلى الفيدرالية. كانت فرنسا

الحامية، ولو شكلًا، لاستقلال هذه الولايات، لمنع بزوغ ألمانيا كقوة عظمى. لكن فرنسا أصبحت الآن الباغية، وفي وقت قريب سيحيط الجيش البروسي بالقوات الفرنسية وإمبراطورهم التعيس من كل جانب، وتصبح فرنسا بلا حيلة. شاركت الولايات الجنوبية في الفيدرالية. وتحدث ملك بافاريا، الولاية الجنوبية، نيابة عن كل الولايات الألمانية، مقترحًا أن يصبح ملك بروسيا إمبراطورًا على ألمانيا (وفقًا لنص أعده «بسمارك»). وأُعلن فيلهلم الأول إمبراطورًا في القصر الكائن بـ«فرساي».

كانت الإمبراطورية الألمانية، إمبراطورية بروسية بالأساس. الملك فيلهلم صاحب تاج بروسيا ورئيس وزرائه «بسمارك» كانا أيضًا في منصب الإمبراطور الألماني والمستشار الألماني على الترتيب. الجيش الألماني، والجهاز الإداري المدني كانا يتكونان من مواطنين بروسيين، وفقًا للنظام البروسي. أصبحت العاصمة البروسية، برلين، عاصمة لألمانيا. أعد «بسمارك» للدولة الجديدة برلمانًا، وهو «الريخستاج». لم يكن للبرلمان سلطة على المستشار، أو سياساته؛ كان كيانًا يعد القوانين، ويوافق على الموازنة السنوية. الموازنة العسكرية كانت تتم الموافقة عليها مرة كل سبع سنوات. وإذا ما تساءل «الريخستاج» عن موازنة الجيش وإنفاقه، اختلق «بسمارك» أزمة قومية، ليضع البرلمان على المسار.

بدأت بروسيا كدولة صغيرة في الأطراف الشرقية للأراضي الألمانية، فيما يعرف الآن ببولندا. الأرستقراطية الألمانية من ملاك الأراضي، أعطوا الخصائص المميزة للدولة؛ كانوا صارمين في الحفاظ على طريقتهم، ومعارضين عنيدين لليبرالية والديمقراطية.

التحقوا بالجيش واعتنقوا الحياة العسكرية بنظامها، وخدمتها، والشعور العالي بالشرف كنماذج عليا. كفاءة الجيش البروسي حول هذه الدولة الصغيرة، الهامشية إلى مرتبة عظيمة. وأعطت بروسيا، بدورها، خصائصها إلى الدولة الألمانية الجديدة. والليبراليون الذين أرادوا دولة يؤسسها، ويسيطر عليها المواطنون، تقبلوا الاتحاد الذي شكله «بسمارك». كان «بسمارك» من تلك الأصول الأرستقراطية التي أنشأت بروسيا، لكن هؤلاء الأرستقراطيين البروسيين لم يكونوا ليفهموا أو يقدروا أن طريقتهم يحميها شخص مرن، ومنتهز للفرص مثل «بسمارك».

كان «بسمارك» معارضًا للديمقراطية، لكنه سمح بأن يكون لكل الرجال حق التصويت للبرلمان. انزعج الإمبراطور، في البداية، عندما عرض عليه «بسمارك» حق الاقتراع لعموم الناس. قال له: «إن هذه ثورة». فأجابه «بسمارك»: «وما الذي يضير جلالتك، إذا جعلك حق الاقتراع هذا فوق صخرة عالية، فلا يمسك الماء؟». وبهذا فإن «الريخستاج» غرضه إسكات الليبراليين والديمقراطيين، والحيلة كانت بأن يدار بطريقة تجعل الإمبراطور والمستشار يستمران في الحكم كما يرغبان. لم يكن من سلطة «الريخستاج» عزل «بسمارك»؛ لكن كان عليه أن يحصل على مساندته، كي يمرر قراراته. ووجد هذه المساندة حيث أراد: فاستخدم الليبراليين عندما أراد التخلص من القيود على حركة التجارة في أنحاء الإمبراطورية، وتقييد سلطة الكنيسة الكاثوليكية (كانت بروسيا بروتستانتية في معظمها، لكن الولايات التي تم الاستحواذ عليها من الجنوب

كانت كاثوليكية)؛ كما استخدم «بسمارك» المحافظين عندما قرر أن الزراعة تحتاج لحماية. لم يكن ليقبل أن يوقفه البرلمان، أو يجعله مثل البرلمان البريطاني في سيطرته على الحكومة. تمنى الليبراليون في «الريخستاج» ، نظريًّا، أن يحدث ذلك، لكنهم كانوا شديدي الاحترام للسلطة، وشديدي الخوف من الديمقراطية، وما ستجلبه من صراع للوصول إلى هذا الهدف.

تقدم حزب الاشتراكيين، الحزب الاشتراكي الديمقراطي، بقوة في «الريخستاج». كان هو الحزب الوحيد الذي لم يساند «بسمارك» أبدًا. ومن جانبه، كره «بسمارك» الاشتراكيين. كان متخوفًا من حكومة باريس (الكوميون)، التي سيطرت على المدينة عندما كان الجيش البروسي في فرنسا، وكرهها بدرجة أكبر عندما أشاد بها قائد الحزب الاشتراكي الديمقراطي في البرلمان. وبعد محاولة لاغتيال الإمبراطور في عام ١٨٧٨، مرر «بسمارك» قوانين تحظر التنظيمات الاشتراكية، ومطبوعاتها. ومع ذلك سمح للاشتراكيين بالترشح للبرلمان. وبهذا تبنت ألمانيا طريقًا مخالفًا لبريطانيا في التعامل مع تحديات الطبقة العمالية. فبريطانيا سمحت لأنصار العريضة بتنظيم اجتماعاتهم، وحرمتهم من التصويت، وسمحت ألمانيا للاشتراكيين بالتصويت، ومنعت تنظيماتهم. وكانت النتيجة إبعاد أنصار الاشتراكية من المجتمع الألماني؛ استمرت التنظيمات الاشتراكية لكن تحت الأرض.

حاول «بسمارك» إبعاد العمال عن الاشتراكية، بأن جعل نفسه رائدًا لتقديم المنافع

الاجتماعية من خلال الدولة: قدم المعاشات لكبار السن، والتأمين ضد الحوادث، والتأمين الصحي. لم تفلح هذه المحاولات، إذ استمر التصويت للاشتراكيين في الارتفاع.

في عام ١٨٨٨ جاء لألمانيا إمبراطور جديد، «فيلهلم» الثاني، حفيد «فيلهلم» الأول. كان نابهًا، ونشيطًا، وطموحًا، لكنه سريع التوتر، ومتقلب وكأنه طفل في طلباته، وتغير مزاجه، ولم يكن، بأي حال، حصيفًا أو رصينًا. كان واثقًا من أنه قادر على الحكم دون عون الرجل العجوز «بسمارك». اختلفا حول الاشتراكية؛ أراد «بسمارك» أن تستمر قوانينه المضادة للاشتراكية، أما الإمبراطور فكان، طبعًا، معارضًا للاشتراكية، لكنه اعتقد أنه من الممكن تحجيم مدى الإقبال عليها بطرق أكثر لينًا. وبهذا استقال «بسمارك». وألغيت القوانين المضادة للاشتراكية، وتم تمرير قوانين جديدة لتنظيم ساعات العمل، وشروطه.

تصاعدت أسهم الحزب الاشتراكي الديمقراطي، الذي أصبح أكبر حزب ألماني في مطلع القرن العشرين، وصوت له شخص من كل ثلاثة في ألمانيا. وسياسيًّا، هذا لم يعط الحزب تأثيرًا كبيرًا، لأن القرارات التنفيذية كانت بيد الإمبراطور ومستشاره. لم يكن الاشتراكيون الديمقراطيون وزراء، ولم يرغب حزبهم المشاركة في أي حكومة ليست اشتراكية. اجتماعيًّا، شجع الحزب أنصاره للعيش في تجمعات ثقافية ورياضية متفرقة أدارها الحزب. من ناحية، كان هذا من أجل حماية العمال من فساد الطبقة الوسطى؛

ومن ناحية أخرى، لأن الطبقة الوسطى لم تكن متحمسة للاختلاط بالعمال. وبهذا فإن القوة الكبرى الجديدة في الحياة الألمانية ظلت معزولة ومستبعدة.

اختلف أنصار الحزب حول سياساته. كان «ماركس» ملهمًا كبيرًا له، لكن مجموعة منتقديه داخله قالوا بأن «ماركس» لم تصادف توقعاته حظًّا من الواقع: فلم يزدد العمال فقرًا، وارتفع مستوى المعيشة، لم تنقسم فئات المجتمع إلى طبقتين، طبقة عمالية وطبقة من رؤسائهم؛ لأنه كانت هناك طبقة نامية من أصحاب الياقات البيضاء؛ كما حسنت الدولة من ظروف العمل. وكان هذا معناه أنه على الحزب أن يعمل من خلال الظروف القائمة، وألا ينتظر أزمة أو كارثة أو ثورة. أغلب الاشتراكيين الديمقراطيين في «الريخستاج» تقبلوا هذا الرأي في واقع الأمر، لكن مثل هذه المراجعات لـ«ماركس» رفضها الحزب، وحتى يتم كسب ود أنصار الحزب شديدي الولاء، وجب الحديث عن الثورة. وكان هذا معناه أن الاشتراكية الديمقراطية استمرت مصدر ذعر لباقي المجتمع الألماني.

وهنا تجد، باختصار، كيف تحركت تأثيرات عملية التصنيع والثورة في بريطانيا وفرنسا وألمانيا:

بريطانيا	فرنسا	ألمانيا
• تاريخ من الأسر الملكية تحت سيطرة البرلمان	• تاريخ من الثورة	• تاريخ من الحكومات الأوتوقراطية المنفردة بالسلطة
• ثورة صناعية	• تصنيع محدود	• عملية تصنيع سريعة
• نمو الطبقة الوسطى	• فشل ثورات العمال	• حزب اشتراكي كبير يدعو للثورة

• رفض المطالب الديمقراطية للعمال ثم قبولها بعد ذلك	• جمهورية ديمقراطية لكن ليست اشتراكية	• الأوتوقراطية تحجم دور الاشتراكيين الديمقراطيين

وصلت الأوضاع السياسية لبريطانيا وفرنسا لحالة من الاستقرار. وفي ألمانيا لم يحسم بعد كيف يمكن احتواء الطبقة الجديدة من العمال في إطار الدولة.

❋❋❋

دعا «ماركس» كل العمال في كل البقاع أن يتحدوا. ساعد «ماركس»، بنفسه، في إنشاء منظمة دولية للعمال في عام ١٨٦٤. ثم سقطت هذه المنظمة فريسة الجدل بين الاشتراكيين والفوضويين. منظمة دولية أخرى أسست في عام ١٨٨٩. شارك ممثلون عن دول أوروبية وأقلية من خارج أوروبا في مؤتمرات. ناقشوا كيف يمكن للاشتراكيين مواجهة دعاوى الحرب، حتى لا يذبح فيها العمال لمنفعة أرباب العمل. كانت الخيارات: أن يرفض العمال التصويت في البرلمانات لتمويل أي حرب؛ إضراب عام لإجهاض الجهود من أجل الحرب. أما «لينين»، الزعيم الشيوعي من روسيا، فكانت لديه طريقة أخرى. في روسيا، التي كانت متخلفة اقتصاديًّا، التصنيع كان محدودًا، بما لا يجعله قادرًا على الاعتماد على العمال لإيقاف الحرب. لذا فقد قال إن مطالب الحرب ستضعف الحكومات، وهذا سيعطي الفرصة لمجموعة، ذات تصميم، من العمال أن يبدءوا ثورة تقتلع الرأسمالية.

كانت روسيا تُحكم من قِبل حكام متسلطين، منفردين بالأمر، وهم القياصرة. وفي

عام ١٩٠٥ أرغم قيصر روسيا، «نيقولا» الثاني، على السماح للبرلمان بالعمل، لكن «الدوما» لم تكن له سيطرة على الحكومة. كانت عند القيصر ووزارته رغبة شديدة في اللحاق بأوروبا الغربية، وبهذا فإن عملية التصنيع، وإن كانت محدودة، جاءت بفضل تشجيع الحكومة. أنشئت الصناعات الثقيلة الجديدة في المدن الروسية الكبيرة، سان بطرسبرج وموسكو. لم يكن تركز الصناعات الثقيلة والعمال الصناعيين في العاصمة النمط المعتاد للتصنيع في أوروبا، بما جعل القيصر أكثر عرضة للمخاطر.

وعندما دخلت القوى الكبرى الحرب في أغسطس من عام ١٩١٤، حاربت روسيا إلى جانب فرنسا وبريطانيا، في مواجهة ألمانيا والنمسا. كانت روسيا أول دولة تتداعى من آثار الحرب العالمية الأولى، والتي أوجدت طلبًا كثيرًا على البشر والموارد. في بدايات عام ١٩١٧، كانت هناك إضرابات في مصانع سان بطرسبرج وموسكو، كما كان هناك تمرد بين صفوف الجنود. شكل العمال والجنود مجالس ـ سوفييت ـ حتى تستحوذ على السلطة. عُزل القيصر وشُكلت حكومة مؤقتة، والتي خططت لإقامة انتخابات لبرلمان يضع الدستور. كانت هذه الحكومة قد عقدت العزم على الاستمرار في الحرب، لكن حالات التمرد والهروب بين الجنود قد ازدادت. لقد ألقى الفلاحون أسلحتهم، وعادوا إلى مساكنهم.



«لينين» يخطب في الجنود والعمال

سنحت الفرصة للشيوعيين. قاد «لينين» تنظيمًا صغيرًا، محكمًا، كان مستعدًّا للاستيلاء على الحكم، وسحب روسيا من الحرب. كان جناح «لينين» في الحركة الشيوعية معروفًا بالبلاشفة، أو البلشفيين (الأغلبية)، أما المنشيفيون (الأقلية) فأرادوا العمل مع إصلاحيين آخرين، وألا يسعوا مباشرة للثورة. سيطر البلاشفة على مجالس الجنود والعمال (السوفييت)، وفي نوفمبر ١٩١٧ نظم «لينين» ثورة، تكاد تكون غير دموية، لإسقاط الحكومة المؤقتة. سال الدم بعد الثورة. أغلق البلاشفة البرلمان، وأعلنوا سلطات مطلقة دكتاتورية لأنفسهم، استولى البلاشفة، أيضًا، على المصالح والشركات والملكيات دون تعويض. هاجموا الكنيسة، وقتلوا القساوسة. دعموا سيطرتهم، وحكمهم، من خلال الشرطة السرية، التي عذبت وقتلت. لكن «لينين» كان لديه شعار شعبي ـ السلام، الخبز، الأرض ـ والذي كان معناه إنهاء الحرب، والمزيد من الطعام، والرجوع إلى المزارع. سمح للفلاحين بالعودة، في هذا الوقت، لاستلام أرضهم ـ رغم أن الشيوعيين كانوا معارضين للملكية الشخصية. بدأت الشيوعية تجربتها في روسيا،

رغم أن «ماركس» علم أتباعه أن الثورة الشيوعية ستحدث، في البداية، في الدول المتقدمة، الرأسمالية، وأن الدول المتخلفة غير مستعدة لمثل هذه الثورة على الإطلاق. كان «لينين» محقًّا: ضغوط الحرب، والتي لم تكن أبدًا في نظرية «ماركس»، ستقدم الفرصة الثورية.

كانت الثورة الروسية حدثًا مهمًّا في تاريخ العالم، لأنها أفرزت دولة يحكمها الشيوعيون باسم العمال. قدم «ماركس» ما رآه كعلم بمقتضاه ستسقط المجتمعات الصناعية بثورات عمالية. كانت توقعات «ماركس» «العلمية» خاطئة؛ ما حققه «علمه»، هو تشجيع الشيوعيين للاعتقاد بأن الثورة حتمية، وأن التاريخ إلى جانبهم، وأن لهم كل الحق في الحكم بصرامة ـ وهو ما أدى إلى نجاح الثورة في القيام في أماكن لم تكن متوقعة، وفقًا لنظرية «ماركس». كانت روسيا مفاجأة في عام ١٩١٧، وكانت ثورة الصين في عام ١٩٤٩ غير مألوفة.

كان «لينين» على علم بأن الشيوعية لا يمكن بناؤها في دولة متخلفة من المزارعين، كان يأمل أن تكون ثورة روسيا دافعة لثورات أخرى في كل أوروبا، بما يدمر الرأسمالية، ويسمح للعمال في كل مكان لتأسيس الشيوعية. تعلقت أفئدة العمال الراديكاليين في مختلف الأنحاء بتأسيس دولة العمال، وداعبتهم الآمال لتقليدها. في ألمانيا، صادفهم نجاح كان قصير الأجل بسبب الحرب العالمية الأولى. وتحديدًا لهزيمة ألمانيا في الحرب.

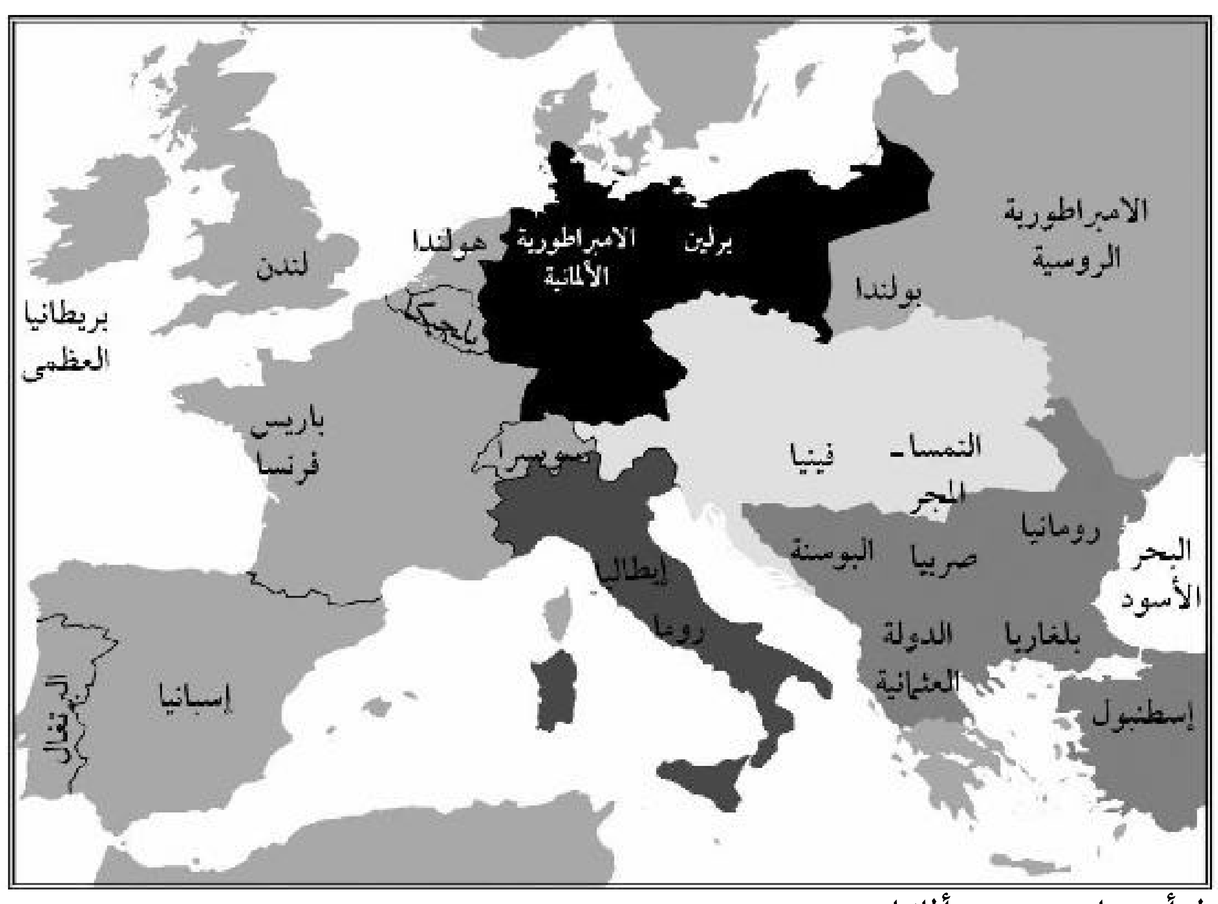
سنناقش الآن جذور هذه الحرب، والتي أعطت للشيوعيين فرصة، كما جلبت رد فعل

بشعًا.

الفصل العاشر: حربان عالميتان

بعدما أسس «بسمارك» الدولة الألمانية، خمدت رغبته في إشعال الحرب، وسعى إلى حفظ السلام في أوروبا. كانت هناك خمس قوى كبرى في أوروبا، وكان هدفه الدائم هو أن يكون دائمًا في تحالف مع ثلاث.

تظهر الخريطة التالية دول أوروبا بعد توحيد ألمانيا.



دول أوروبا بعد توحيد ألمانيا

الإمبراطورية الألمانية الجديدة كانت أكبر حجمًا من ألمانيا اليوم. فبعد خسائرها في حربين عالميتين، تراجعت الممتلكات الألمانية في الشرق بشكل كبير. وتقع بولندا اليوم في المساحة التي كانت تشغلها الأقاليم الشرقية لبروسيا.

ومثلما كان الحال في ألمانيا، كانت إيطاليا قد توحدت، وفي تحركها نحو الوحدة، اتبعت ذات النمط الذي اتبعته ألمانيا. مع انهيار السلطة، بعد ثورات عام ١٨٤٨، أُعلنت جمهورية ديمقراطية في روما وهو ما تم إحباطه. وبعد ذلك قام «كافور»، الوزير الأول لبيدمونت، الولاية الشمالية، بتوحيد إيطاليا بدبلوماسية ذكية، وبالقوة. وأصبح مليكه، «فيكتور إمانويل»، ملكًا على إيطاليا. وآخر ولاية تم الاستحواذ عليها كانت ولاية البابا. والذي كان إقليمه قطاعًا كبيرًا، يخترق مركز شبه الجزيرة الإيطالية. وبعد الارتباك الكبير في ١٨٤٨، أرسل «نابليون» الثالث جيشًا من فرنسا لحماية البابا. وبعد هزيمة «نابليون» أمام بروسيا في عام ١٨٧٠، أصبح بإمكان إيطاليا الاستحواذ على روما.

وإلى الشرق من الدولتين الجديدتين لإيطاليا وألمانيا، تمددت إمبراطوريتا روسيا والنمسا، واللتان كانتا متخلفتين اقتصاديًّا، مقارنة بغرب أوروبا. كانتا تحويان مجتمعات متعددة العرقيات بشعوب اعتبرت نفسها قوميات مقهورة. اعتبر المجريون أنفسهم تهديدًا للإمبراطورية النمساوية في اتفاق عام ١٨٦٧ للمشاركة في الحكم في مملكة مشتركة تحت مسمى الإمبراطورية النمساوية ـ المجرية.

كانت هناك إمبراطورية ثالثة في أوروبا، متعددة العرقيات، وهي الإمبراطورية العثمانية، ويتولاها الأتراك الذين حكموا من إسطنبول. كانت هذه الإمبراطورية في تدهور، وهو ما أعطى شعوب البلقان الفرصة لتأسيس دولهم. كان مسارًا محفوفًا بالمخاطر. وحتى بعد الاعتراف بحقهم في تقرير مصيرهم، أرادت تركيا الإبقاء على قدر من السيطرة على هذه الدول. رحبت النمسا وروسيا بهذا التفكك في الإمبراطورية التركية، لكنهما لم يرغبا في أن تكون هذه الدول الجديدة تامة الاستقلال، لاعتبارات تتعلق بمصالحهما في هذا الجانب من العالم. أرادت روسيا أن ترث نفوذ تركيا في أوروبا، فلم ترغب أن يعوقها معوق من البحر الأسود، من خلال المنافذ البحرية لإسطنبول، إلى البحر المتوسط. والنمسا، التي خسرت أقاليمها لبروسيا في شمال أوروبا، لم ترغب أن تخسر أمام روسيا في الجنوب الشرقي. كان هذا مسرح المعارك في أوروبا؛ كان الصراع حتميًّا. استمرت تركيا في سقوطها، مما أعطى القوميات أملًا. وهذه الدول القومية الجديدة، شجعت القوميات الأخرى التي كانت تحت سيطرة روسيا والنمسا واصطدمت قوى التحرر القومية بالأهداف الاستراتيجية للقوى الكبرى. فضلًا عن ذلك، فإن الدول الجديدة، والأخرى التي في سبيلها إلى التكوين، كان لديها مطالبها، حيث إن الشعوب كانت مختلطة ببعضها البعض، وتنازعوا على الأقاليم والأرض.

تمثلت القوى الخمس الكبرى في بريطانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا وروسيا. حاولت

إيطاليا أن تكون القوة السادسة، لكن بالرغم من وجودها كلاعب في نظام التحالفات، لم يكن لها الوزن الكافي. كانت روسيا والنمسا، بالنسبة لـ«بسمارك»، أفضل الحلفاء، لأنهما، كألمانيا، كانتا محكومتين باثنين من الأباطرة. أما الجمهورية الفرنسية بعد هزيمتها أمام بروسيا في ١٨٧٠، لم تكن لتصبح، أبدًا، حليفًا لألمانيا. تمكن من فرنسا شعور عميق بالرغبة في الانتقام، لأنه بعد الهزيمة، استولت ألمانيا على الإقليمين الشرقيين ـ الألزاس واللورين وكان أغلب سكان الإقليمين يتحدثون الألمانية، ورغب الجنرالات الألمان أن يستحوذوا على أراض عبر نهر الراين. أما بريطانيا فتبنت سياسات انعزالية بالنسبة لأوروبا؛ فمصالح بريطانيا كانت واقعة عبر البحار، رغم أن سياستها الدائمة اتجهت إلى منع قوة واحدة من السيطرة على القارة الأوروبية.

منح الروس والنمساويين «بسمارك» التحالف الثلاثي الذي أراده، ورغم ذلك فقد كان من الصعب العمل على تماسك هذا التحالف، لاختلاف الروس والنمساويين حول البلقان. طبيعة «بسمارك» المتدخلة، جعلته متابعًا، بقوة للشأن البلقاني، واحتفظ بالإمبراطوريتين إلى جانبه. إذا ما ساندت ألمانيا بقوة موقف النمسا فيما يتعلق بنزاعات البلقان، ربما جعل هذا روسيا تلجأ لفرنسا كحليف. وهو ما سيجعل كابوس «بسمارك» حقيقة: فإذا ما أتت الحرب، فإن ألمانيا ستحارب في جبهتين. لم يكن هناك أفضل من «بسمارك» لمثل هذا المعترك، وحتى رحيله، أبقى «بسمارك» هذا التحالف الثلاثي حيًّا بالكاد.

فشل «فيلهلم» الثاني، ومستشاروه، في الإبقاء على روسيا والنمسا كحليفين. فقد التزم الألمان بشدة بمساندة النمساويين، فكانت النتيجة الحتمية. عقدت روسيا في عام تحالفًا مع فرنسا، وبعدها في عام ١٩٠٤ توصلت بريطانيا إلى اتفاق مع فرنسا. وتعلقت تفاصيل هذا الاتفاق إلى تسوية نزاعاتهم حول الأقاليم الواقعة خارج أوروبا، لم يكن هناك التزام لمساندة فرنسا في حرب في أوروبا، لكن باعتبار أن فرنسا كانت عدوًّا قديمًا، فإن هذا الاتفاق كان شديد الأهمية. أصبحت ألمانيا والنمسا اثنتين في مجموعة من خمس. إدخال إيطاليا في المجموعة لم يكن مجديًا، وفي أثناء الحرب العالمية الأولى، غيرت من موقفها.

ثقة منهم في قوة ألمانيا، لم يعبأ فيلهلم الثاني ووزراؤه بفقدان روسيا كحليف، رأوا في النمساويين، كمتحدثين بالألمانية، أكثر قربًا لهم، مقارنة بالمتخلفين؛ البرابرة، السلافيين من أهل الشرق ـ وهذا أمر لم يكن ليثمنه «بسمارك»، الذي دخل حربًا ضد النمسا؛ لضمان الوحدة الألمانية تحت لواء بروسيا.

بات على ألمانيا أن تدخل حربًا في جبهتين. وتطلبت الخطة ضربة سريعة، موجعة ضد فرنسا، ثم التركيز بكل القوة الضاربة الألمانية ضد روسيا. أتقنت بروسيا، ومن بعدها ألمانيا، التعامل مع لوجيستيات تعبئة وتحريك القوات سريعًا، استخدموا القطارات لنقل القوات، وشبكة التلغراف لمتابعتهم وتوجيههم. في عام ١٨٧٠ هزمت بروسيا فرنسا في غضون ستة أشهر فقط؛ وكانت الخطة في الحرب المقبلة إنجاز هذا النصر في

ستة أسابيع فقط. القوى الأخرى اتبعت النموذج الألماني، وأعدت الخطط للتعبئة السريعة، وكانت مستعدة تمامًا للحرب.

لم تكتفِ ألمانيا بأنها صاحبة أكبر قوات برية في أوروبا، فعمدت إلى بناء أسطول بحري ضخم. كان هذا هو المشروع المفضل للإمبراطور، الذي لم يكن يطيق التفوق البريطاني في هذا المجال. سيطرة بريطانيا على البحار كانت ضرورية بالنسبة لها لاستمرار إمبراطوريتها، لأنها لم تكن تنتج غذاءً يكفي حاجتها. أزعج بريطانيا هذا التوجه الألماني لبناء ترسانتها البحرية، وشرعت في إظهار قدرتها على التفوق عليها. بدأ سباق التسلح البحري وسط تشجيع وذعر في البلدين المتنافسين. لعب السياسيون والصحافة على أوتار المشاعر القومية المتأججة، والتي أصبحت عنصرًا جديدًا في التخطيط العسكري والنجاح. قال «وينستون تشرشل»؛ الوزير في هذا الوقت في الحكومة البريطانية، إن البحرية البريطانية طلبت التمويل لست سفن حربية جديدة، قال الاقتصاديون إنه لا يمكن تمويل إلا أربع ـ وفي النهاية تم التوافق على ثماني سفن.

إن حربًا ستشتعل، كان هذا أمرًا مفترضًا بشدة. كان هناك ما يبدو أنه ترحيب بالحرب. توجهات فكرية جديدة عن تميز بعض أجناس البشر، والبقاء للأصلح، جعلت من الحرب اختيارًا ملائمًا للقوميات. كان هذا هو التفكير السائد، بافتراض أن الحرب ستكون سريعة وقصيرة.

كانت ألمانيا هي العنصر المزعج بين القوى الكبرى. سعت إلى تأثير أكبر حيث نمت

قوتها الاقتصادية، لكن في يوليو ١٩١٤، عقدت قياداتها العسكرية العزم على المخاطرة بكل شيء من أجل النصر في حرب أوروبية شاملة. وكانت الفرصة التي اغتنموها متمثلة في أزمة في البلقان. كان الأرشيدوق «فرانز فرديناند»، ولي عهد التاج النمساوي ـ المجري، في زيارة إلى البوسنة، في أقصى جنوب إمبراطوريته، فاغتاله صربي من القوميين. كانت البوسنة موطنًا للكثيرين من الصربيين الذين شجعتهم عناصر في صربيا للتمرد على النمسا. صربيا نفسها استطاعت الاستقلال بفضل مساعدة النمسا لها ضد الأتراك؛ ونظرت صربيا للنمسا بعدها كقوة مهددة، واستعانت صربيا بروسيا من أجل حمايتها من التهديد النمساوي.

كانت النمسا على علم بأنها إذا زادت تهديدها ضد صربيا، التي اعتبرتها مسئولة عن اغتيال ولي العهد، فإن هذا سيشعل حربًا ضد روسيا. شجعتها ألمانيا على أن تتخذ موقفًا أكثر تشددًا، وأعلن الإمبراطور نفسه مساندًا لأي إجراء ستتخذه النمسا. وبناء عليه، تشددت النمسا في مطالبها من صربيا، والتي علمت أنها سترفضها، بما يعطي مبررًا للحرب. أدركت القوى العظمى الأخرى مخاطر رفض صربيا للمطالب، خاصة في حالة مساندة روسيا لها. حاولت هذه القوى، بما فيها روسيا، النظر في سبل لتفادي اندلاع الحرب. أظهرت ألمانيا للقوى الأخرى، بأنه لا دخل لها بالمطالب النمساوية من صربيا، ولكنها أحبطت كل محاولات التسوية السلمية. أراد قادة ألمانيا العسكريين أن تستفز روسيا إلى الحرب. كانوا يريدون حرب الروس فورًا وقبل اكتمال قدراتهم

العسكرية. إذا أصبحت روسيا أشد قوة، فسيكون من المستحيل كسب الحرب على جبهتين. لم يرغب الإمبراطور في هذه الحرب الواسعة، لكنه همش من قِبل المستشار والجيش.

كان قائد الجيش الألماني «مولتك» متعجلًا في بدء الحرب؛ أراد أن يهزم فرنسا سريعًا قبل أن تقوم روسيا بتنظيم نفسها. كان من المهم أن تقوم روسيا بعملية التعبئة أولًا، حتى لا تظهر ألمانيا بأنها المعتدية. عارض الحزب الاشتراكي الديمقراطي قيام الحرب، وندد بالمطالب المجحفة ضد صربيا، لكنه أعلن مساندته لحرب دفاعية ضد روسيا، إذا بدأت هي الحرب. قامت روسيا بالتعبئة العسكرية لردع النمسا، وهو ما أسعد الجيش الألماني، لأن بمقدور ألمانيا إعلان الحرب ضد روسيا، وأعلنت ألمانيا أن روسيا هي المعتدية، في حرب تم التدبير لها في برلين. وقامت فرنسا بالتعبئة للدفاع عن نفسها ضد ألمانيا.

وضعت خطة غزو فرنسا في ستة أسابيع محل التنفيذ. تطلبت من ألمانيا أن تعبر جيوشها من خلال بلجيكا، لتدخل فرنسا من شمالها. وكان على الجيوش الفرنسية أن تتحول إلى الجنوب، في شكل قوس كبير يحيط بباريس، وبعدها تتحرك القوات شرقًا للهجوم على القوات الفرنسية المرابطة على الحدود الفرنسية ـ الألمانية. سأل الألمان أن يمنحهم البلجيكيون رخصة لعبور قواتهم من أراضي بلجيكا، لكنهم رفضوا. تحركت القوات الألمانية غير عابئة، وبالتالي انتهكت حياد بلجيكا، والذين كانوا أحد ضامنيه.

كان هناك انزعاج كبير في بريطانيا من هذا التحرك الألماني الغاشم لم يكن من المؤكد حتى هذا الوقت أن بريطانيا ستدخل الحرب؛ لكن انتهاك الحياد البلجيكي من قِبل الألمان حسم الأمر.

في كلمة أمام «الريخستاج» ، كذب «فيلهلم» الثاني، وادعى أن ألمانيا قامت بكل ما في وسعها حتى تتجنب الحرب. ربما لم يصدقه النواب من أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي، ولكنهم صوتوا، مع الآخرين، للموافقة بالإجماع على الدفعة الأولى لتمويل الحرب. اعتقدوا أنهم سيكونون في وضع أسوأ إذا ما انتصرت روسيا في الحرب. في كل دولة كان بها اشتراكيون في البرلمان، كان التصويت لمساندة الحرب. فازت القومية. وسيقوم العمال بمحاربة بعضهم البعض في نهاية الأمر.

***

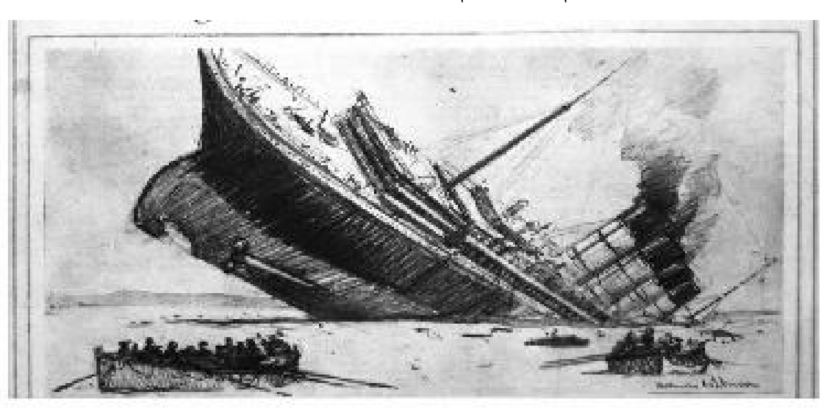
فشلت الخطة الألمانية في غزو فرنسا. فتحرك القوات الألمانية لم يكن بالقوة الكافية؛ مرت القوات ووصلت إلى شمال باريس، ولكن لم تُحِط بها بإحكام، واستطاعت القوات البريطانية والفرنسية مهاجمة القوات المعتدية. وبعدها تجمد الموقف العسكري؛ فالقوات المتحاربة واجهت بعضها على خطوط ممتدة عبر بلجيكا وشمال فرنسا إلى سويسرا المحايدة. ولمدة ثلاث سنوات لم تتحرك خطوط الحرب والمعارك في أي اتجاه إلا نادرًا، رغم ملايين القتلى على الجانبين، من أجل دفع الآخر إلى الخلف. كانت الميزة تكمن في الدفاع. من كان يخرج من الخنادق، يضرب بالمدافع الآلية، أو بقصف

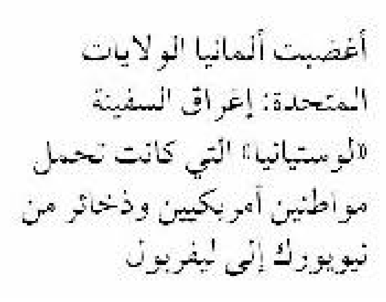
الأسلحة الثقيلة. وعبر الخطوط الفاصلة، هناك أسلاك شائكة. كانت مهمات انتحارية. فقط في السنة الأخيرة للحرب، أعطى اختراع بريطاني ـ وهو الدبابة ـ القوات المهاجمة بعض الحماية.



حرب شاملة: نساء يعملن في أحد مصانع الذخيرة أثناء الحرب العالمية الأولى

كانت الحرب لمنتصر من الجانب الذي يستطيع مد قواته بما تحتاجه من رجال وأسلحة للآلة الحربية القاتلة. أعيدت هيكلة الاقتصادات، ونُظمت للمجهود الحربي؛ أعداد كبيرة من البشر تم دفعهم إلى الحرب، والعمل والإيمان بأهدافها. كانت حربًا شاملة.





أغضبت ألمانيا الولايات المتحدة: إغراق السفينة «لوستيانيا» التي كانت تحمل مواطنين أمريكيين وذخائر من نيويورك إلى ليفربول

اعترض الأسطول البريطاني حركة الملاحة إلى ألمانيا، لمنع البضاعة الواردة إليها عبر البحار من الوصول إليها. دفعت البحرية الألمانية بغواصاتها ـ وقوارب «اليو» الشهيرة ـ لإغراق السفن التي تمد بريطانيا بالبضاعة، وخاصة الغذاء. كان على ألمانيا توخي الحذر، فالولايات المتحدة استمرت حتى اللحظة على حيادها؛ إذا أغرقت ألمانيا السفن الأمريكية، فإنها ستخاطر بدفعها إلى الحرب. في فبراير من عام ١٩١٧ أمرت ألمانيا غواصاتها ببدء أعمال حربية بلا قيود، مدفوعة برغبتها لكسر حالة الجمود في العمليات الحربية. علمت ألمانيا أن هذا التصرف قد يأتي بالولايات المتحدة خصمًا في الحرب، وهو ما حدث بالفعل في إبريل من عام ١٩١٧ ـ وكانت خطتهم تجويع بريطانيا وإنهاكها قبل وصول القوات الأمريكية إلى الجزر البريطانية. كان الإمبراطور الألماني ومستشاره في شك من إمكان التوصل إلى هذه النتيجة، لكن الجيش كان هو المسيطر. كان الجنرال «هيندنبرج» والجنرال «لودندورف» بالفعل هما حكومة ألمانيا. بعدها كان لهما اتفاقات خاصة مع «هتلر» حيث سانده «لودندورف» في انقلاب فاشل في عام ١٩٢٣. وعينه «هيندنبرج» مستشارًا في عام ١٩٣٣.

بعد ذلك صادف الألمان حظًّا جيدًا. حدثت ثورة في روسيا. عزل القيصر «نيقولاس» الثاني. كانت الحكومة الجديدة تخطط للاستمرار في الحرب، لكن الألمان كانوا يعلمون أن «لينين»؛ الزعيم الشيوعي الروسي، معارض للحرب. كان يعيش في المنفى بسويسرا. قامت الحكومة الألمانية بتنظيم عودته إلى روسيا في قطار محصن. كان هذا

إجراء يائسًا فرضته الحرب. وقد فعل «لينين» ما سعى إليه الألمان إذ أخرج بلاده من الحرب. كانت حكومة الجنرالات في ألمانيا هي المسئولة عن النجاح الأول للشيوعية، إذا افترضنا افتراضًا معقولًا أنه بدون «لينين» فإن البلاشفة لم يكونوا ليحصلوا على السلطة.

ولإخراج روسيا من الحرب، كان على «لينين» الموافقة على شروط مجحفة من ألمانيا، والتي كانت قد استولت على مساحات كبيرة من أراضي روسيا الغربية. أصبح لألمانيا فرصة في التركيز على الجبهة الغربية. في أوائل عام ١٩١٨ قامت ألمانيا بهجوم واحد أخير، وهو ما دفع فرنسا وبريطانيا إلى التراجع إلى خطوط خلفية، لكنها لم تكسر جيشيهما. ثم قام الجيش بهجوم مضاد بمساعدة من الجنود الأمريكيين، الذين وصلوا بأعداد كبيرة، وفي وقت أسرع من توقع الألمان. أصبح على الألمان الانسحاب الشامل. وفي أغسطس أقر الجنرالات أنهم خسروا الحرب.

كان على الرئيس «ويلسون» عبء كبير لإدخال بلاده في الحرب. كان هناك عرف قوي في الولايات المتحدة بالابتعاد عن صراعات أوروبا وحروبها. حول الرئيس «ويلسون» الحرب إلى واحدة يمكن للأمريكيين مساندتها، بالإعلان أنها «ليست من أجل الغزو والانتقام، ولكن لجعل العالم آمنًا من أجل الديمقراطية». السلام في المستقبل سيتطلب أن تصبح للمجموعات العرقية والإثنية دولها، وأن الاتفاقات السرية بين الدول ستنتهي؛ وسيكون هناك منظمة عالمية لتسوية النزاعات. وضعت

مبادئ «ويلسون» للسلام في قائمة من أربعة عشر بندًا.

وفي مواجهة الهزيمة، رأى الجنرالات الألمان أنه من الأفضل التفاوض مع «ويلسون» من أجل السلام، بدلا من بريطانيا وفرنسا اللتين كانتا ستعتمدان على خلفية الانتقام. وقد أدرك الجنرالات أن «ويلسون» لن يرغب في التعامل مع دولة يحكمها جنرالات، فطلبوا من «فيلهلم» الثاني أن يبدأ في إيجاد حكومة برلمانية بمستشار ووزراء مسئولين أمام البرلمان. وبهذا فإن ما فشل الليبراليون في تحقيقه منذ عام ١٨٤٨ نفذته القيادة العليا للجيش. لم يكن «ويلسون» مقتنعًا بالتغيير المفاجئ؛ اعتقد أن قادة الجيش والأرستقراطية الملكية مازالت تسيطر. أراد «ويلسون» إخراج الإمبراطور من الحكم، لكنه رفض في هذا التوقيت.

بعد الثورة من القمة، جاء تهديد ثوري من القاعدة. أصبح واضحًا أن ألمانيا قد خسرت الحرب، بدأ جنود البحرية والجيش الألمان في التمرد، ودخل العمال في إضراب عن العمل. شكلوا مجالس بخليط من المطالب، لكنهم جميعهم أرادوا نهاية الحرب، وأن يرحل الإمبراطور. كانت مجالس السوفييت هي الملهمة لهذه المطالب، وكانت روسيا هي النموذج للاشتراكيين الذين أرادوا استخدام المجالس من أجل ثورة عمال. أزعجت البلشفية كل الآخرين. كان عنف حكم الشيوعيين في روسيا معلومًا للكافة. لم تهاجم الشيوعية فقط أصحاب الأملاك، لكن الأحزاب الإصلاحية والاشتراكية الأخرى ـ أحزاب مماثلة للحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني. إيقاف انتشار

الشيوعية الروسية كان واحدًا من أهم أوراق «هتلر». لكنه أخذ عن الحكم البلشفي في روسيا ما يمكن أن تحققه الحركات الثورية عندما تتخلص من كل القيود المفروضة على ممارسة السلطة.

المستشار الأخير لفيلهلم الثاني كان مقتنعًا بأن هناك شيئين ضروريين لمنع الثورة: الأول أن يرحل الإمبراطور، والثاني أن يتسلم الاشتراكيون الديمقراطيون الحكم. وبناء عليه تم نفي الإمبراطور، وأصبح «فريدريش إيبرت»، زعيم الاشتراكيين الديمقراطيين، مستشارًا. كان «إيبرت» على التزامه بالاشتراكية، لكنه أرادها أن تتم من خلال انتخابات برلمانية، وليس ثورة تنتهي برعب وحرب أهلية، فتقضي عليه وعلى زملائه كضحايا. حاول الثوريون من الاشتراكيين إقناعه بأن ألمانيا الجديدة الديمقراطية سيكون لها شأن قليل إذا ظل الصناع الكبار ورجال الجيش والبيروقراطية والقضاة على حالهم دون تغيير. لكن «إيبرت» رفض استخدام القوة ضدهم.

كان على «إيبرت» التعامل لبعض الوقت مع مجالس العمال وإشراكهم في الحكم، لكن عندما أعلن الاشتراكيون الثوريون جمهوريات اشتراكية، وهو ما حدث في بعض الأماكن في فوضى ما بعد الحرب، تحرك «إيبرت» بقوة لقمعهم. عرض الجيش المساعدة الكاملة، وقتلوا كثيرًا من العمال. عندما رفض الجنود إطلاق النار على العمال، نظم الجيش ووزير الدفاع الاشتراكي الديمقراطي قوات غير رسمية أطلق عليها القوات الحرة، تم تشكيلها من ضباط وجنود سابقين، الذين كانوا حريصين على إخماد الثورة.

وقد قاموا بالمهمة بدوافع انتقامية.

لم يغفر الاشتراكيون الثوريون، وأتباعهم، لـ«إيبرت» وللحزب الاشتراكي الديمقراطي، ما فعلوه وخيانتهم لأهداف الاشتراكية. شكلوا أنفسهم في حزب شيوعي؛ أكبر حزب شيوعي خارج روسيا، ومثل أحزاب شيوعية أخرى حول العالم، تلقوا توجيهاتهم من موسكو. جنى الشيوعيون تمثيلًا كبيرًا في «الريخستاج»، ولم يحققوا شيئًا باستثناء أن جعلوا من تهديد الشيوعية الروسية حقيقة وشيكة الحدوث.

في هذه الأثناء اجتمعت القوى المنتصرة في باريس للاتفاق على معاهدة سلام. بأفضل ما استطاعوا، قاموا برسم حدود للدول الجديدة في شرق أوروبا، لكن هذا لم يكن ليحفظ السلام، لأن الأعراق كانت مختلفة؛ إذ كان إنشاء دولة ذات قدرة على الاستمرار على نقيض مَن جعلها مشكلة من شعب ذي عِرق أو جنس واحد. أسست عصبة الأمم، والتي كانت عاجزة منذ بدايتها لرفض الولايات المتحدة المشاركة فيها. أما بالنسبة لألمانيا فكان على الرئيس «ويلسون» المواءمة: كان هذا السلام شائكًا. فقد فقدت ألمانيا إقليمًا في الشرق لتنشأ بولندا؛ وفقدت في الغرب الألزاس واللورين. كان على ألمانيا ألا يكون لها قوات عسكرية أو تسليح في قطاع ممتد إلى خمسين كيلو مترًا في جانبها من نهر الراين. وكان عليها تخفيض قواتها المسلحة، عددًا وعدة، وتحجيمها. كما حرمت من سلاح القوات



أعضاء القوات الحرة
يوشكون على إعدام
اشتراكي ثوري

الجوية. كان عليها تقديم مدفوعات كبيرة كتعويض عما خربته الحرب. أعلنت اتفاقية السلام بوضوح أن ألمانيا مذنبة ببدئها الحرب.

لم تشارك ألمانيا في مؤتمر السلام، قدمت هذه الشروط لحكومتها، وقيل لها إن عليها التوقيع. سببت شروط المعاهدة انزعاجًا قوميًّا في ألمانيا. فمع فزع واضطراب وغضب ما بعد الهزيمة، أضيف إلى ذلك وصم دائم بالذنب. حقيقة، أنه كان من الممكن لألمانيا نفسها أن تفرض شروطًا مجحفة في حال انتصارها في الحرب، وأنها كانت مسئولة فعلًا وإلى حد كبير عن اشتعال الحرب، لكن معاملة ألمانيا بهذا الشكل زرع بذور الحرب القادمة في مؤتمر السلام. لم يكن بمقدور ألمانيا أن تعيش بهذه القيود وتلك الإهانة؛ وبشكل أو بآخر كانت ستغيرها.

قبل الحرب، كانت حركة الطبقة العمالية كبيرة الحجم، لكنها ضعيفة التأثير. لم يكن

واضحًا كيفية احتوائها داخل الدولة، لم يكن من الأمور الواضحة. أعطت الشهور الاثني عشر بعد الهزيمة الإجابة. الاشتراكيون الديمقراطيون جيء بهم إلى الحكم للقضاء على الاشتراكيين الذين سعوا إلى الثورة وليقبلوا المسئولية عن الإهانة القومية. لم يشكرهم أحد لقيامهم بهذه المهمة القذرة من الطبقة الوسطى أو الطبقة العليا أو من الجيش. في حقيقة الأمر أصبح الاشتراكيون الديمقراطيون محل لوم لهزيمة ألمانيا. بدأ «هيندينبرج» الأمر بقوله بأن السياسيين طعنوا الجيش في الظهر. هذا له بعض ما يبرره، فعندما توقفت الحرب، كان الجيش في وضع تنظيمي جيد على الأراضي البلجيكية والفرنسية. كان الجنرالان «هيندينبرج» و«لودندورف» متأكدين من الهزيمة، وهما اللذان أرادا إيقاف الحرب عند هذه النقطة، لخوفهما من أن زحف الفرنسيين والبريطانيين وتوغلهم في ألمانيا سيسبب ثورة. لكن «طعنة الظهر» تثبتت كمقولة، وكانت واحدة من أسلحة «هتلر» الكبرى. حيث لقب «هتلر» الاشتراكيين الديمقراطيين بـ«مجرمي نوفمبر».

عُـــــدل الـــدســـتور



العملة الألمانية بعد التضخم: قيمتها كوقود أعلى من قيمتها كعملة

الألماني على عجل في أكتوبر من عام ١٩١٨ لإرضاء الرئيس الأمريكي «ويلسون». وفي يناير من عام ١٩١٩ انتُخب برلمان حتى يعد دستورًا شاملًا للجمهورية الجديدة. لم يستطع البرلمان الانعقاد في برلين لاحتمال تعويق عمله بسبب الإضرابات ومحاولات قمع الثوار الاشتراكيين، اجتمع البرلمان في مدينة صغيرة وهي «فايمر» والتي أعطت اسمها للدستور الجديد والجمهورية التي أسسها. مهددة بالثورة، حتى قبل أن تبدأ، هذه الجمهورية الديمقراطية الجديدة كان لها خصيصة غير معتادة: الرئيس يتم انتخابه من قِبل المواطنين (رجالًا ونساءً) كل سبع سنوات، ويستطيع في حالات الاضطراب أن يجمد الحقوق الأساسية، ويستخدم القوة لحماية الجمهورية. نصب المجلس المنتخب «إيبرت» رئيسًا للبلاد، وكان أول رئيس لها، وفي مواقف عديدة استخدم هذه السلطات الاستثنائية. في المعتاد، كانت الحكومة تحت تصرف المستشار الذي يختاره الرئيس،

والذي كان مطلوبًا أن يحظى بمساندة أغلبية «الريخستاج».

أي نظام جديد سيكافح ليحظى بالشرعية. كانت جمهورية «فايمر» عاجزة منذ بدايتها باعتبارها مرتبطة بالهزيمة والعار. بالإضافة إلى ذلك، فإن أعداء الجمهورية كانوا منظمين في البرلمان نفسه. لم يكن هناك توافق بين الأحزاب على أن هذا هو الدستور الذي يجب العمل من خلاله وأن يخضعوا له جميعًا. ففي اليسار السياسي كان الحزب الشيوعي ينادي علنًا بالثورة لتأسيس السوفييت الألماني، ويتلقى الأوامر من الاتحاد السوفيتي. وفي اليمين، كان المحافظون والقوميون وأحزابهم التي تطالب بعودة الإمبراطور، وتحجيم الديمقراطية، وإلغاء القيود التي فرضتها اتفاقية «فرساي». وفي الوسط كان هناك الاشتراكيون الديمقراطيون، وحزب الوسط (مساندًا بالكاثوليك) والديمقراطيون كحزب ليبرالي للطبقة الوسطى.

بعد بداية جمهورية «فايمر» بعامين، أُلقي بالمجتمع الألماني في خضم الفوضى بسبب الغلاء الشديد، المتمثل في ارتفاع معدلات التضخم بشدة، لارتفاع الأسعار بشكل سريع، بما جعل النقود بلا قيمة. إذا ما كنت مدينًا، فأنت قادر على سداد ديونك كاملة. إذا كنت كأبناء الطبقة الوسطى، فمدخراتك قد دمرت. كانت الحكومة تطبع نقودًا أكثر وأكثر، وكنت في حاجة إلى حقيبة سفر أو عربة يد حتى تحمل النقود إلى المحال. بعد اثني عشر شهرًا عالجت الحكومة الأمر بإصدار لعملة جديدة، لكن ذاكرة ما حدث عن عالم منفلت وتدمير أحوال الناس كانت حية. في الأزمة التالية، كان أبناء الطبقة

الوسطى على استعداد لمساندة إجراءات صارمة.

لم يحصل أي حزب على الأغلبية في «الريخستاج». فكل الحكومات كانت ائتلافية؛ وكان على المستشارين أن يأتوا بالأغلبية بشكل أو بآخر، وفي المعتاد كانت الائتلافات هشة. النزاع بين الأحزاب ليس جيدًا في المعتاد، لكن حكومة قوية يساندها حزب بأغلبية برلمانية له مزايا عديدة. لم ير الألمان مثل هذه الحكومة في ظل جمهورية «فايمر». كان سهلًا على «هتلر» أن ينتقد هذه الجمهورية لدوام انقساماتها ونزاعاتها.

الاشتراكيون الديمقراطيون، كأكبر حزب قبل الحرب، تطلع الناس إليهم باعتبارهم الأكثر احتمالًا للحصول على ديمقراطية، لكن أضعفت فرصهم تلك المخاوف المتجددة بشأن الاشتراكية المدعومة بالحكم الشيوعي في روسيا والتهديدات الشيوعية في ألمانيا. وبكل التزامهم تجاه الديمقراطية، فإنهم لم يتخلوا عن «ماركس»، بما كان معناه قلة قدرتهم على الحصول على أصوات خارج الطبقة العمالية. نسبة كبيرة من أصوات الطبقة العمالية ذهبت إلى الحزب الشيوعي؛ الذي اتهم الاشتراكيين الديمقراطيين كأتباع للرأسماليين، ورفضوا التعاون معهم. عارض الاشتراكيون الديمقراطيون والشيوعيون النازية، لكن بانقساماتهم تلك، كانت فرصتهم ضئيلة لإيقاف «هتلر».

كان الشيوعيون ضيقي الأفق إلى الحد الذي دفعهم إلى ترشيح واحد منهم لمنصب الرئيس بعد موت «إيبرت» في عام ١٩٢٥، ولم يكن لمرشحهم فرصة في الفوز، وكان هذا بديلًا عن تصويتهم لمرشح الوسط والاشتراكيين الديمقراطيين. وقد أهديت هذه

الانتخابات إلى مرشح اليمين: «هيندينبرج»، الجنرال المحافظ السلطوي، الذي اتهم السياسيين بهزيمة ألمانيا في الحرب، والذي سيجعل، في عام ١٩٣٣، «هتلر» مستشارًا.

***

لأغلب فترة العشرينيات كان حزب «هتلر» على الهامش. كان اسمه الحزب الاشتراكي القومي: اشتراكي؛ لأنه رغب في التقرب إلى العمال، و«القومي» جاءت لتميز الحزب عن دولة الاشتراكية الماركسية. انزعج «هتلر» من دعوة «ماركس» بأن العمال لا وطن لهم؛ وأن ولاءهم الأول يجب أن يكون لطبقتهم، وأن عليهم أن يقسموا دولتهم بالصراع الطبقي. كان المحتوى الاشتراكي لحزبه مخففًا، ومن أراد من أعضائه اتخاذ الاشتراكية بجدية، طرد من الحزب، أو، بعدما أصبح «هتلر» مستشارًا، كان يقتل. لم يرغب «هتلر» في مهاجمة الشركات الكبرى، لأنها كانت مطالبة بإعادة تسليح الجيش. لكنه رغب في أن يحصل العمال على وظائف مناسبة، ويعيشوا براحة في مساكن أفضل، ويحصلوا على إجازات أكثر، لكنهم منعوا من تشكيل نقابات. خطط لإنتاج «الفولكس فاجن»؛ سيارة الشعب، والتي لم تصل في عهد «هتلر» إلى الشعب؛ لأن ما أنتج منها خصص للجيش.

كان برنامج الحزب قوميًّا أكثر منه اشتراكيًّا. أراد «هتلر» أن ينهي انقسامات الحزب، وأن يوجد ألمانيا موحدة تحت قيادته، وبقوة كافية تسمح بإزالة القيود التي فرضتها معاهدة «فرساي»، التي وافق عليها «السياسيون الجبناء»، وأن يوجد «مكانًا للعيش»

للأمة الألمانية في الشرق، والتي يحكمها، في هذا الوقت، الجنس الأدنى من البولنديين والأوكرانيين والروس. كان يجب التخلص من أعداء الداخل «للرايخ» من الماركسيين، سواء كانوا اشتراكيين أو شيوعيين، وبشكل أهم اليهود. اعتقد «هتلر» أن هناك مؤامرة عالمية للتخلص من الأجناس «الأعلى» الحاملة للحضارة. كان «ماركس» يهوديًّا. وكذلك كان بعض قادة البلاشفة في روسيا، وبهذا أصبحت البلشفية، «البلشفية اليهودية». اعتبر «هتلر» اليهود مسئولين عن الحرب العالمية الأولى، وتصور إمكانية تفادي كل هذه المعاناة، إذا ما تم قتلهم بالغاز.

كان هناك تحيز قديم ضد اليهود في أوروبا بأنهم قتلة المسيح. لكن مع زيادة التفكير العنصري، في القرن التاسع عشر، رأى أعداء السامية أن اليهود تهديد محدق وغادر للسلامة العنصرية. تزاوج اليهود مع الأجناس الأعلى سيدمر فرصهم في الكفاح من أجل البقاء. كانت هذه الأفكار منتشرة بقوة، ليس فقط في ألمانيا، كان يتم الدفاع عنها باعتبارها «حقائق علمية». كان «هتلر» متطرفًا في ذعره من الخطر المزعوم، وبذلك لم يكن إنسانيًّا، بالمرة، في البحث عن حل له.

لم يكن «هتلر» هو المؤسس للحزب النازي. بدأ الحزب تحت اسم «حزب العمال الألماني» في «ميونيخ»، جنوبي ألمانيا، في يناير ١٩١٩. شارك «هتلر» في اجتماع للحزب بعد عدة أشهر، وتعجب من أنه رغم كون الحزب ضد الديمقراطية البرلمانية، إلا أنه يتخذ قراراته بالتصويت. أراهم بعد ذلك أمرًا مختلفًا. لقد أصبح الزعيم الذي لا

يسأل، بسبب قدراته الفذة كخطيب، كان يستطيع أن يسلب لب مستمعيه ويقنعهم ويمتعهم ويؤجج طاقتهم. هذا الجندي الذي تم تسريحه، والذي أسقط من الخدمة العسكرية وخرج منها قبل الحرب، وجد ضالته. جعلت قدرات «هتلر» من هذا الحزب الصغير، فاعلًا مؤثرًا في الحياة السياسية في ميونيخ، وأكسبت «هتلر» مساندة بعض الأشخاص من ذوي الحيثية.



«أدولف هتلر»: خطيب بارع

خطط «هتلر» في عام ١٩٢٣، وببعض المساعدة من وحدات محلية للجيش ومساندة الجنرال «لودندورف»، لقيادة مسيرة إلى برلين، مع أتباعه، لإسقاط الحكومة. كان في هذا تقليد لمسيرة «موسوليني» نحو روما، والتي جعلت منه دكتاتورًا لإيطاليا في عام ١٩ . أطلقت حركة موسوليني على نفسها «الفاشية» نسبة إلى حزمة العصي، والتي كانت رمزًا للسلطة في روما القديمة. هدفت الفاشية إلى إلغاء كل التقسيمات، خاصة التقسيم الطبقي، الذي يتبناه العمال، وبناء قوة قومية تحت سيطرة رجل قوي، أو دكتاتور.

تعلق «هتلر» إعجابًا بفاشية «موسوليني»، لكن محاولته لتقليد طريقته في الوصول إلى الحكم باءت بفشل ذريع، كانت الشرطة كافية لإيقافه. كان هناك تبادل قصير لإطلاق النيران، قتل أربعة من الشرطة، وأربعة عشر من رجال «هتلر». الذي مثُل أمام القضاء للمحاكمة بتهمة الخيانة. وعلى خلاف ما حدث لمتمردين يمينيين أثناء اضطرابات جمهورية «فايمر»، حصل «هتلر» على حكم مخفف بالسجن لمدة خمسة أعوام، لأنه رؤي أنه يتحرك وفقًا لدوافع وطنية. أما المتمردون من الاشتراكيين والشيوعيين فلم يحاكموا في أغلب الأحوال بل تم إعدامهم رميًا بالرصاص. أما الجنرال «لودندورف» فأعلنت براءته، ولم يكن راضيًا عن الحكم.

لم يحبس «هتلر» في سجن، ولكن في مكان أكثر راحة، في قلعة قديمة كانت تستخدم في حبس السجناء السياسيين. كانت لديه فرصة للقراءة والتفكير والكتابة. أنتج كتابًا طويلًا هائمًا بين موضوعات مختلفة، أطلق عليه «كفاحي»، والذي أصبح إنجيلًا لحركته. كان خليطًا بين قصة حياته، وآرائه السياسية، وتاريخ ومستقبل الكفاح العنصري. لم تكن أي من الأفكار جديدة ومبتكرة؛ دوَّن في الكتاب اكتشافاته حول كيفية تحويل الحشود عن آرائها، ما أطلق عليه «الإيحاء للحشود» و«التأثير على الحشود». الحديث للناس كان حيويًّا، فالكتابة وسيلة باردة. لن يجدي التأمل أو إعمال الفكر، فستقابل بآراء جامدة وسلوكيات عليك أن تتغلب عليها، وعزيمتك يجب أن تتغلب على تعدد الميول المواجهة لك. تحديد موعد وتنظيم الاجتماعات هام: الليل

أفضل من الصباح، بعض القاعات تكون مناسبة، وبعضها غير مناسب.

بعدها انطلق «هتلر» من صالات البيرة في ميونيخ، ليعتلي المسيرات الكبرى في الشوارع، المنظمة بعناية، والمصممة بحرص. علم بأسس نجاحها: الشخص الوحيد، المذبذب، أصبح جزءًا من مجتمع أكبر، ومعنويات هذا المجتمع حلقت عاليًا.

احتفى «هتلر» في كتابه بالنجاح المتحقق في التغلب على الشيوعيين الذين اقتحموا اجتماعاته. الاستعانة بحماية الشرطة أمر خاطئ، وكان على الحركة أن تظهر قدرتها على حماية نفسها. وقد كانت هذه بداية أعضاء العاصفة ذوي القمصان البنية اللون، قوته الحامية في الاجتماعات وفي الشوارع، والتي تحولت إلى جيش خاص، كبير العدد. كان مدركًا لكراهية الطبقة الوسطى للشيوعيين، ولكنه ازدراهم ولم يعرف كيفية التعامل معهم: «الإرهاب لا يمكن كسره إلا بالإرهاب».

أطلق سراح «هتلر» بعد أقل من عام. أعلن أنه سينحي جانبًا كل الأساليب غير القانونية؛ وأن حركته ستصل إلى السلطة بطريقة دستورية، لكن لم يُخفِ «هتلر» على أحد أنه بمجرد وصوله للسلطة فإن الدستور سيكون مختلفًا تمامًا، بلا أحزاب تتنافس على الحكم، لكن حزبًا واحدًا، وهو رأسه زعيمًا. وفي طريقه إلى السلطة، لوح «هتلر» مهددًا بالقوة، وخلفه أعضاء العاصفة، الباحثين عن مهمة. وبإشارة إلى أن القوة هي طريقته، حمل «هتلر» سوطًا صغيرًا معه بشكل دائم.

جذب الحزب النازي أعضاء من كل الطبقات؛ عمالًا وموظفين وأصحاب محال

وطنية وفلاحين وأبناء الطبقتين الوسطى والعليا. هذا بينما جذبت الأحزاب الأخرى طبقة أو عقيدة أو إقليمًا؛ الحزب النازي كان هو الوحيد الذي يمكن اعتباره قوميًّا بحق، واستمد قوته من عدم قدرة الأحزاب الأخرى أن تكون مثله. لم يدر «هتلر» الحزب النازي كحزب سياسي، كان حركة ديناميكية تعرض نفسها لتولي الحكم. كان أعضاء الحزب، رغم تنوعهم الشديد، على قدم المساواة، وهي ممارسة جديدة في مجتمع مازال معتدًّا بالوضع الاجتماعي. كان الأعضاء متساوين في حبهم للبلاد، وانتمائهم للجنس الآري، وفي طاعتهم «للفوهرر»؛ القائد الذي طالما تغنت البروباغندا الألمانية بأنه من عامة الناس.

***

لولا الكساد الكبير، وتأثر ألمانيا بشدة به، لم يكن للنازيين إلا البقاء كمجموعة بلا تأثير يُذكر. في عام ١٩٣٠، وهو العام الثاني من الكساد الكبير، سقطت الحكومة، والتي كانت ائتلافية كالعادة. رفض أعضاء الحكومة من الاشتراكيين الديمقراطيين، تخصيص إعانة البطالة، والتي كان يعتمد عليها الملايين. كان موقفًا كارثيًّا. جاءت الانتخابات بعدها ليحقق النازيون مكاسب ضخمة؛ من ٢.٦٪ من أصوات الناخبين، إلى ١٨.٣٪. وفي الانتخابات التالية في عام ١٩٣٢، مع الوصول إلى عمق الكساد، وصل ما حصلوا عليه إلى ٣٧.٣٪، وأصبحوا أكبر حزب في «الريخستاج». زاد التصويت للنازيين، في البداية، على حساب القوميين في اليمين السياسي، وبعدها على

حساب أحزاب الطبقة الوسطى في الوسط السياسي. التصويت الإجمالي لأحزاب الطبقة العمالية، والاشتراكيين القوميين كان متماسكًا ولم يعبأ أتباعهم بـ«هتلر». لكن واحدًا من كل أربعة من العمال، قام بالتصويت له في عام ١٩٣٢؛ جاء هذا من الناخبين في المدن الأصغر وفي الأقاليم الريفية. أصبحت لـ«هتلر» مساندة من كل الطبقات.

اعتبارًا من عام ١٩٣٠، استخدم الرئيس «هيندنبرج» صلاحياته الاستثنائية لمساندة الحكومة، حيث لم يكن باستطاعة أي حكومة أن تحصل على أغلبية في البرلمان. لم يساند الاشتراكيون الديمقراطيون التخفيضات للضمان الاجتماعي؛ الشيوعيون والنازيون كانوا يساندون أنفسهم فقط. الرئيس، ومن حوله، بدءوا التفكير في طرق لتأسيس حكومة بسلطات مطلقة، لا تعتمد على البرلمان وتتخذ الإجراءات الصعبة اللازمة للتعامل مع الأزمة الاقتصادية، وتمنع ثورة العاطلين، والذين انشغل الشيوعيون باستقطابهم. كبار ملاك الأراضي والجيش وقطاع من أصحاب الأعمال كانوا يطالبون الرئيس بتحجيم الديمقراطية، أو إغلاق أبوابها.

كان من الممكن الحصول على أغلبية برلمانية في «الريخستاج» إذا حكم النازيون متآلفين مع أحزاب قومية أخرى. قدم «هتلر» نفسه كزعيم للأمة، لم يرد أن يكون مجرد وزير أو نائب. أقسم «هيندنبرج» على ألا يسمح لهذا الرجل المتعصب بأن يكون مستشارًا. لكن، في النهاية لم يمكن تجاهل المساندة الشعبية التي يستطيع أن يأتي بها «هتلر» لحكومة سلطوية. خطر «هتلر» كمستشار، كان تجنبه من خلال الاكتفاء بثلاثة وزراء نازيين

فقط في الحكومة؛ والباقون أتوا من الأحزاب القومية الأخرى، والذين كانوا سيراقبون أفعال «هتلر». كان هذا سوء حساب! فقد استغل النازيون ما حصلوا عليه من سلطة بشكل غاشم، أصبح «هتلر»، سريعًا، أكثر شعبية، بما جعل السياسيين القدامى مهمشين. كان الرئيس «هيندنبرج» قوة كابحة. وبموته في عام ١٩٣٤، جعل «هتلر» من نفسه رئيسًا، بالإضافة إلى كونه مستشارًا.

تأسست الدكتاتورية النازية بمظهر قانوني. كانت الخطة هي أن يقوم البرلمان بتمرير قانون يسمح للحكومة نفسها بالتشريع وإصدار القوانين ـ بما تنتفي معه أهمية «الريخستاج». كان مطلوبًا لهذا التعديل الدستوري ثلثا أعضاء البرلمان. بعدما تولى «هتلر» منصب المستشار، طلب من الرئيس عقد انتخابات مبكرة، بما يزيد أعضاء النازيين في البرلمان. وقبل الاقتراع بيوم واحد، أشعل شيوعي هولندي النيران في مبنى البرلمان. أعلن «هتلر» أن هذه هي بداية محاولة الشيوعيين الاستيلاء على الحكم، وأقنع الرئيس باستخدام سلطاته الاستثنائية لتعطيل الحريات المدنية والسياسية. تم حظر الحزب الشيوعي، وسيق الشيوعيون إلى معسكرات الاعتقال. لم يحصل النازيون على الأغلبية، ولكنهم كسبوا ٤٣.٩٪ من الأصوات. احتاج النازيون مساندة الأحزاب القومية، وحزب الوسط الكاثوليكي، والذي احتفظ بمقاعده التصويتية رغم التقدم النازي، وقد وافق الحزب، على مضض، على المساندة بعدما حصل على تأكيدات شفوية، تم النكوص عنها، تتعلق باستقلال الكنيسة. أما الاشتراكيون الديمقراطيون

فقد صوتوا وحدهم، بشجاعة، ضد ذلك. كان النواب الشيوعيون بين محبوس وهارب. وقف أعضاء كتيبة العاصفة محيطين بقاعة البرلمان أثناء عملية التصويت، لإرهاب الأعضاء. استخدمت الحكومة سلطاتها الجديدة لحظر الحزب الاشتراكي الديمقراطي، وبعدها كل الأحزاب الباقية. الحزب النازي، وحده، ظل قانونيًّا.

تم منع الأحزاب الماركسية سريعًا. فقد كان هذا على رأس أولويات من قام بالترتيب لحكومة سلطوية.

بالنسبة لليهود، الذين كانوا محل تركيز شديد من قبل «هتلر»، تحركت الحكومة النازية نحوهم بحرص. كتيبة العاصفة اتخذت إجراءات مباشرة نحو اليهود، وكان يجب كبحها. فمقاطعة المنتجات اليهودية أزعجت أناسًا كثيرين، وتسببت في اضطرابات اقتصادية، وكان واجبًا وقفها. لكن بعد ذلك، وفقًا لقانون صدر عام ١٩٣٥، منع اليهود من حمل الجنسية الألمانية، أو الزواج، أو إقامة علاقة مع الألمان. في عام ١٩٣٨، أعطى النازيون الإشارة لأتباعهم لمهاجمة المحال اليهودية، وأعمالهم، ومعابدهم. كانت هذه «ليلة الكريستال»؛ ليلة تحطيم الزجاج. ولأول مرة تم حبس اليهود في معسكرات الاعتقال كونهم يهودًا، وليس كونهم أعضاء في أحزاب أو تنظيمات سياسية. وبعدها تم العودة «للقانونية»: أصدرت قوانين لمصادرة ممتلكات اليهود، وإبعادهم عن المصانع العامة، وطرد أبنائهم من المدارس. تم تشجيع هجرة اليهود. أما شكل الإبادة التامة لليهود فلم يكن قد تم إقراره بعد.

في خلال سنوات قليلة من توليه السلطة، استطاع «هتلر» أن يحقق وعده في إزاحة القيود التي فرضتها معاهدة «فرساي». أعاد نظام التجنيد العسكري الإجباري، وخطط لجيش قوامه خمسة أمثال الحجم الذي أقرته «فرساي». وشرع في تشكيل قوات جوية. وأمر القوات الألمانية بالتحرك داخل المنطقة منزوعة السلاح في «الراينلاند». لم تكن بريطانيا أو فرنسا على استعداد للمخاطرة بخوض حرب لإيقاف «هتلر». لم يريدا إعادة أهوال الحرب العالمية الأولى، وخاصة في بريطانيا التي استشعرت أن معاهدة السلام كانت قاسية، وأنه يجب السماح لألمانيا بالقيام ببعض «التحسينات». كانت هذه سياسة للمهادنة ولتخفيف حدة التوتر، وبأن يمكن السماح لألمانيا بما هو معقول، وبهذا يهدأ عدوان «هتلر». أو كما قال «وينستون تشرشل»، أشد البريطانيين عداء لسياسة المهادنة: «المهادن هو شخص يقدم الطعام للتمساح بأمل أن يكون هو نفسه آخر طعام هذا التمساح».

وفي النمسا المتحدثة بالألمانية، كانت هناك مساندة قوية للحزب النازي، رغبة في دمج النمسا مع ألمانيا. أخرجت معاهدة «فرساي» دولًا من الإمبراطورية النمساوية ـ المجرية، وتركت كيانًا صغيرًا لأهلها يتحدث الألمانية، متمثلا في النمسا مخفضة الحجم. لكنهم منعوا، وفقًا للاتفاقية، من الالتحاق بألمانيا. كان «هتلر» مصممًا على ضم النمسا. قرر المستشار النمساوي، تحت ضغط من النازيين المحليين، إجراء استفتاء على هذا الأمر. وقبل إجراء الاستفتاء، حرك «هتلر» جنوده، واستقبل بحفاوة في فيينا، وبمثلها

لدى عودته إلى ألمانيا.

تظهر الشعبية التي حصل عليها «هتلر» جراء تصديه لقيود معاهدة «فرساي» مدى عمق الإهانة التي أحدثتها هذه المعاهدة. بعض الألمان كانوا على استعداد لتحمل هذه القيود حتى يأتي وقت أفضل، وفضل آخرون أن يتم التصدي لهذه القيود فورًا، وهو ما حققه «هتلر» لهم. الألمان، على اختلافهم، كانوا سعداء ومتوحدين لاستعادة وضع الأمة كقوة عظمى، سواء كانوا ممن صوتوا لـ«هتلر» أو كانوا ضده. بعد ذلك عندما بدأ «هتلر» في تحقيق هزائم بدلًا من انتصارات، لم يكن بذات الشعبية، إلا أنه كان قد أعد العدة للتعامل مع أي من مقاوميه، كانت تتم إبادتهم بالشرطة السرية، «الجستابو»، أو إخفاؤهم في معسكرات الاعتقال.

في الدول الجديدة التي أسستها معاهدة «فرساي» ـ تشيكوسلوفاكيا وبولندا ـ كانت هناك مجتمعات ألمانية، والتي اعتبرها «هتلر» جزءًا من ألمانيا. التزمت فرنسا وبريطانيا بحماية تشيكوسلوفاكيا، لكن عندما هدد «هتلر» بالحرب لضم التشيك الألمان في إطار الرايخ، غضت فرنسا وبريطانيا الطرف، وأجبرتا تشيكوسلوفاكيا على التنازل. عاد رئيس الحكومة البريطانية «نيفيل تشمبرلين» من ألمانيا، فاستقبل استقبال الأبطال في بلاده، لأنه حافظ على السلام. أعلن «هتلر» أنه ليس لديه أي مطالب إضافية على أراض في أوروبا، لكن «تشمبرلين» سارع في استعدادات الدفاع عن بريطانيا.

عندما قام «هتلر» بغزو بولندا في عام ١٩٣٩، أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على

ألمانيا. وحتى يضمن أنه لن يحارب على جبهتين، توصل «هتلر» إلى تعهد بعدم الاعتداء مع الاتحاد السوفيتي، وهي الدولة التي انتقدها «هتلر» كحاضنة للسم البلشفي اليهودي. في هذه المرة نجحت خطط الألمان في اقتحام فرنسا؛ تمت هزيمتها في خمسة أسابيع بـ«حرب البرق»، حيث تمت حماية القوات البرية بالدبابات على الأرض، والطائرات من فوقهم تحلق وتقصف العدو.

صمدت بريطانيا وحدها ضد «هتلر». تم إعداد خطط غزو بريطانيا واحتلالها، باستثناء أنه كان على ألمانيا أن تسيطر على السماء بسلاح الطيران. كانت هذه «معركة بريطانيا»، والتي انتصر فيها الطيارون البريطانيون. قال عنهم «تشرشل»، رئيس الحكومة البريطانية آنذاك: «لم يحدث مطلقًا في تاريخ الصراعات البشرية، أن مثل هذا الحجم من الدين حمله هذا العدد الكبير من البشر، لهذا العدد القليل منهم». تحير «هتلر» في رفض بريطانيا لعرضه، بأن يترك لها السيطرة على إمبراطوريتها حول العالم، على أن تترك بريطانيا لألمانيا السيطرة على أوروبا. عزا «هتلر» هذا الموقف البريطاني منه لأصحاب النفوذ من اليهود. وبعدم هزيمته للبريطانيين، تحول «هتلر» شرقًا للهجوم على الاتحاد السوفيتي، بما يعني أنه سيحارب على جبهتين. وهو ما يعد خطأً باعتبارات الحسابات العسكرية الضيقة، لكن «هتلر» لم يكن ليترك البلشفية اليهودية تنتعش، وعلى أراض مطلوبة لتعطي ألمانيا «مساحة للحياة». أن يدمر «هتلر» روسيا، فهذا جعله من المحبذين لدى البعض في الدوائر الحاكمة في بريطانيا، والذين أعجبهم عرضه. لكن لم

يكن «تشرشل» منهم بالطبع.

كان «هتلر» مقتنعًا بأنه لن تكون هناك حرب على جبهتين، لثقته بأنه سيهزم روسيا في خمسة شهور. كان هذا أكبر أخطائه. خطة «حرب البرق» لم تعمل كما ينبغي في المسافات الواسعة الممتدة عبر روسيا، وضد عدو لديه قوات احتياطية ضخمة. استطاع الدكتاتور الروسي «ستالين» بسيطرة محكمة، وبإخافة الناس، أن يقوم بتصنيع هذه الدولة المتخلفة التي استولى عليها الشيوعيون، بما كان معناه أن قواته سيمكن إمدادها بما تحتاج من دبابات وطائرات ومدافع. وفي فبراير من ١٩٤٣، في مدينة ستالينجراد أسر جيش ألمانيا كاملًا. لم يسمح «هتلر» للألمان بالانسحاب أو الاستسلام، عندما ظهر بجلاء أنه هزم في هذه المعركة. ومن هذا التاريخ أصبح الروس في هجوم مستمر على القوات الألمانية. وقد استغرقوا عامين من الزمن للوصول إلى برلين.

بالنسبة لـ«هتلر»، فإن الحرب في الجهة الشرقية كانت أكبر من مجرد حرب؛ جعلها اجتياحًا كثير القتلى وشديد القهر حتى يستولي على أراضي السلافيين واليهود، ويتيحهما لاستيطان الجنس الآري. في البداية كان يحاط باليهود ويقتلون، لكن لما كان هذا العمل بطيئًا ومستهجنًا، شيد النازيون آلة قتل على شاكلة مصنع، وفيها كان يتم إعدام اليهود بالغاز، وحرق أجسادهم في أفران. وبمجرد أن أصبح هذا النظام مهيأ، أُتي باليهود، من كل الأراضي التي احتلها النازيون، لإعدامهم. استمر جمع وإعدام اليهود حتى مع اشتداد المعارك ضده وتبعثر موارده. كان التخلص من اليهود، بالنسبة لـ«هتلر»، هدفًا

أعلى وضروريًّا لأمن ألمانيا، وعقابًا ملائمًا للجنس الذي اعتبره سببًا في هذه الحرب، كما كانوا سببًا في الحرب السابقة. مات ستة ملايين يهودي فيما عرف بـ«الهولوكوست». بالرغم من أن النازيين اعتقدوا أن هذا التدمير كان للأصلح، لم يعلنوا عما يفعلونه. لكن آلافًا من الألمان، داخل وخارج الحزب النازي، كانوا على علم به، لأنهم كانوا ضالعين فيه مباشرة.

اعتقاد «هتلر» في مؤامرة عالمية يهودية، يفسر خطأ عسكريًّا آخر له. لم تدخل الولايات المتحدة الحرب حتى شنت اليابان، حليفة ألمانيا، هجومًا على الأسطول الأمريكي المرابط في بيرل هاربور في هاواي، في ديسمبر من عام ١٩٤١. كان من الطبيعي أن يعلن الرئيس الأمريكي؛ «روزفلت»، ، الحرب على اليابان، ولعلمه بالشعور الأمريكي القوي ضد التدخل في صراع أوروبيين فإنه لم يعلن الحرب على ألمانيا. لكن «هتلر» أعلن، من فوره، الحرب على الولايات المتحدة، وبالتالي جعل أكبر قوة على الأرض عدوًّا له. وفي إطار إعلانه الحرب على الولايات المتحدة، ندد بالرئيس «روزفلت»، باعتباره مساندًا بكافة اليهود ذوي «الغدر الشيطاني». وحتى يهزم اليهود، كان على «هتلر» محاربة الولايات المتحدة.



الأفران في معسكر
الاعتقال النازي «داتشو»

رأى «روزفلت» في «هتلر»، ولمدة طويلة، تهديدًا للولايات المتحدة، على الرغم من أن غالبية مواطنيه لم يروا ذلك. فلما أصبحت الولايات المتحدة طرفًا في الحرب، اتفق «روزفلت» مع «تشرشل» على هزيمة «هتلر» أولًا، ثم يشنون حربًا ضد اليابانيين. وبناء على هذا الاتفاق، فإن أغلبية القوات التي رست على شواطئ فرنسا، المحتلة من قبل الألمان، في عام ١٩٤٤ كانت أمريكية، وكان قائدها أمريكيًّا وهو «دوايت إيزنهاور».

أصبح «هتلر» يحارب على جبهتين. ورغم أنه قد ظهر بجلاء أنه سيخسر الحرب، فإن قواته حاربت بعزيمة حتى النهاية. تقابلت القوات الأمريكية القادمة من الغرب، والقوات الروسية القادمة من الشرق في برلين في إبريل ١٩٤٥. كان الروس هم من شقوا طريقهم إلى وسط برلين، حيث احتمى «هتلر» ورفاقه بأحد الملاجئ. لم يتأثر «هتلر» بالدمار الذي ألحقته الحرب بألمانيا. كان مقتنعا بأن الخطأ كان من قبل الألمان

الذين تخلوا عنه، ولم يكونوا جديرين بالبقاء. انتحر «هتلر» حتى لا يُقبض عليه.

شكل النازيون الألمان نمطًا أوروبيًّا ـ وكانوا، أيضًا، متفردين. فشلت الديمقراطية في كل دول أوروبا بين الحربين، وحل محلها الفاشيون والنظم السلطوية. الحكومات، ناهيك عن الديمقراطية، كان لها جذور ضعيفة؛ وكان على الديمقراطية أن تشق طريقها في بعض الدول التي كانت بالفعل جديدة استحدثتها اتفاقية «فرساي». لكن النازية كانت قوة مفجرة ومدمرة، لأنها سيطرت على القوة الأوروبية الأعظم، والتي كان لها سبب للانتقام، ولأنهم كانوا تحت سيطرة «هتلر»، الذي كان نابغًا في الشر دون منازع. أن يصل مثل هذا الرجل للحكم، فمن الممكن فهمه، لكن أن يستطيع أن ينفذ ما عزم عليه من التخلص من اليهود، فهذا بعيد عن القدرة على الفهم، بما يجعل الهولوكوست أمرًا يتحدانا ويرهبنا.

❋❋❋

لم يفشل «هتلر» في تدمير روسيا الشيوعية فحسب، لكنه أتى بالجيش الأحمر إلى وسط أوروبا. أقام الروس حكومات شيوعية في الأراضي التي حرروها من النازيين: بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ودول البلقان باستثناء اليونان. قسمت ألمانيا إلى شرق شيوعي، وغرب ديمقراطي، رأسمالي. في عام ١٩٤٦، تكلم «تشرشل» عن «الستار الحديدي» الذي قسم أوروبا.

في عام ١٩٥١، بدأ حاجز آخر في السقوط. اتفق العدوَّان القديمان؛ ألمانيا وفرنسا،

على تجميع مواردهما من الفحم والحديد، لتفادي المنافسة في تصنيع الصلب. ومن هذه البداية، بدأت السوق الأوروبية المشتركة (١٩٥٨)، والتي كانت تجمعًا لست دول أوروبية، وفرنسا وألمانيا في القلب منها. كانت هذه الترتيبات الاقتصادية الطريقة التي تم قبول ألمانيا من خلالها، وارتبطت بعلاقات سليمة معها. تطور التعاون الاقتصادي الأوروبي، إلى الاتحاد الأوروبي (١٩٩٣)، منظمة سياسية كانت فيدرالية أوروبية تحت التشكيل.

في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، عندما بدأ الاتحاد السوفيتي في إصلاح نفسه، وتخلى عن مساندة النظم الشيوعية في شرق أوروبا، انهارت هذه النظم سريعًا. طلبت الدول الشيوعية سابقًا الالتحاق بالاتحاد الأوروبي، وقوبلت بالإيجاب. انهيار النظم الشيوعية، حرر ملايين البشر من الاستبداد، وحرر أوروبا من الاعتقاد السام بأن حضارتها كانت، ببساطة، نظامًا للقمع، وأن الدكتاتورية الغاشمة ستوجد دولة عمال متساوين تمامًا.

أي قدر من السلطة سيعطى للاتحاد الأوروبي مازال أمرًا محل جدل. الاتحاد نفسه كان طريقة للسيطرة على النزاعات القومية التي احتضنت الحرب، لكن هل يمكن لدولة أن تعمل إذا لم يكن هناك شعور عام يساندها؟ هل يمكن تطوير روح أوروبية تساند اتحادًا فيدراليًّا كاملًا لأوروبا؟

في عام ٢٠٠٤، أعدت الدول الأعضاء دستورًا رسميًّا، وثيقة واحدة تحل محل

اتفاقيات عمل من خلالها الاتحاد، وتجعله أكثر تجانسًا. كان على كل الدول الأعضاء قبوله قبل أن يتم العمل به. تعطلت هذه العملية عندما رفض الفرنسيون والهولنديون هذا الدستور عند الاستفتاء عليه. وكان لزامًا إيجاد اتفاقية جديدة، لتقوم ببعض ما كان سيقوم به هذا الدستور. ربما تجاوز الاتحاد الحدود بتوحيد العملة ـ اليورو ـ دون وجود حكومة مركزية تكون مسئولة عنه.

لدستور الاتحاد الأوروبي، الذي لم يتم إقراره، ديباجة كما هي الطريقة المعتادة، وفي حضارة متعددة الأصول، كان هناك جدل حول ما يجب أن يكتب فيها. أراد البابا أن يشار إلى المسيحية؛ كان الألمان سيقبلون بذلك، لكن فرنسا، بيت وحاضنة التنوير، عارضت بشدة. وبالتالي لم تذكر المسيحية، لكن أشير بشكل مبهم للموروث الديني لأوروبا، والذي يرتبط بالإرث الإنساني منذ عصر النهضة، وبثقافتها على وجه العموم. كان التنوير هو العامل الأكثر تأثيرًا على أوروبا التي تلتزم «بالقيم العامة وبحقوق الإنسان، التي لا يمكن انتهاكها أو مصادرتها»، وتتبع طريق «التقدم والرفاهة». وسيتم التجاوز عن القومية، إذ «إنه مع استمرار اعتزازهم بخصائصهم القومية وتاريخهم، فإن شعوب أوروبا عازمة على تجاوز انقساماتها السابقة، وعلى أن تكون أكثر اتحادًا؛ لتشكل مصيرها المشترك».

قائمة اسماء الدول والاقاليم والمناطق كما جاءت على الخرائط

الخريطة ص ١٨ : المدن والمستعمرات الإغريقية (٥٥٠ ق. م)

الإسكندرية: Alexandria

آثينا: Athens

إسبارطة: Greece

آسيا الصغرى: Asia Minor

إفريقيا: Africa

البحر الأدرياتيكي: Adriatic Sea

البحر الأسود: Black Sea

بحر إيجة: Aegean Sea

البحر المتوسط: Mediterranean Sea

بيزنطة: Byzantion

رودس: Rhodes

روما: Rome

سردينيا: Sardinia

شبه جزيرة إيبيريا: Iberian Peninsula

قبرص: Cyprus

قرطاج: Carthage

قورينة: Cyrene

كورسيكا: Corsica

كريت: Crete

ميسيليا (مارسيليا): Massila (Marseille)

اليونان: Greece

الخريطة ص ١٩: الإمبراطورية الرومانية (١٠٠ م)

إثيوبيا: Ethiopia

البحر الأسود: Black Sea

البحر المتوسط: Mediterranean Sea

جرمانيا: Germania

الدانوب: Danube

روما: Rome

الراين: Rhine

سور هادريان: Hadrian's Wall

شبه جزيرة العرب: Arabia

فرثيا: Parthia

كاليدونيا: Caledonia

هايبرنيا (أيرلندا): Hibernia

الخريطة ص ٦٦: الغزاة الجرمانيون والإمبراطورية الرومانية (٥٠٠ م)

ألامانيون: Alemanni

الأنجليون: Angles

البحر الأسود: Black Sea

بحر الشمال: North Sea

البحر المتوسط: Mediterranean Sea

برجانديون: Burgundians

الجوت: Jutes

الساكسون: Saxons

الفاندال: Vandals

الفرنجة: Franks

القوط: Goths

قوط شرقيون: Ostrgoths

قوط غربيون: Visigoths

لومبارديون: Lombards

الخريطة ص ٧١-١١٧: مملكة الفرنجة (٨٥٠ م)

البانونيون: Pannonians

بحر الشمال: North Sea

البحر المتوسط: Mediterranean Sea

البرانس: Pyrenees

برشلونة: Barcelona

بريتاني: Brittany

البوهيميون: Bohemians

الجوت: Jutes

الدنماركيون: Danes

الدولة البابوية: Papal States

روما: Rome

الصرب: Serbs

الصوربيون: Sorbs

القوقاز (الآفار): Avars

الكروات: Croats

كورسيكا: Corsica

الممالك الأنجلوسكسونية: Anglo–Saxon Kingdoms

مملكة الفرنجة: Kingdom of the Franks

الخريطة ص ٧٣: تقدُّم المسلمين (٧٥٠ م)

إسبانيا:Spain

البحر الأسود: Black Sea

بحر الشمال: North Sea

بحر قزوين: Caspian Sea

البحر المتوسط: Mediterranean Sea

رافينا: Ravenna

شبه جزيرة العرب: Arabia

شمال إفريقيا: North Africa

مصر: Egypt

الخريطة ص ٧٦: الفايكينج في أوروبا (٨٠٠–٩٠٠ م)

الدانوب: Danube

دبلن: Dublin

دنيستر: Dniester

الدون: Don

دينبر: Dnieper

الراين: Rhine

الفولجا: Volga

القسطنطينية: Constantinpole

نورماندي: Normandy

يورك: York

الخريطة ص ١٢٤: أوروبا الغربية ووسط أوروبا (١٦٤٨ م)

إسبانيا: Spain

إنجلترا: England

بحر الشمال: North Sea

البحر المتوسط: Mediterranean Sea

البرتغال: Portugal

فرنسا: France

الخريطة ص ١٢٥ : الدويلات الإيطالية إبان عصر النهضة (١٤٩٤ م)

جمهورية البندقية: Venetian Republic

جمهورية جنوة: Republic of Genoa

جمهورية سيينا: Republic of Siena

جمهورية فلورنسا: Republic of Florence

دوقية سفويا: Duchy of Savoy

دوقية فيرارا: Duchy of Ferrara

دوقية مودينا: Duchy of Modena

دوقية ميلان: Duchy of Milan

الدولة البابوية: Papal States

سردينيا (إسبانيا): Sardinia (Spain)

كورسيكا (جنوة): Corsica (Genoa)

مملكة الصقليتين: Kingdom of the Two Sicilies

مملكة نابولي: Kingdom of Naples

الخريطة ص ١٣٤ : لغات أوروبا

الألبانية: Albanian

البشكنشية (الباسك): Basque

البلطقية: Baltic

الجرمانية: Germanic

الرومانسية: Romance

السلافية: Slavonic

الفنلندية: Finnish

الكيلتيك: Celtic

المجرية: Hungarian

اليونانية: Greek

الخريطة ص ١٣٧ : الحدود بين اللغات الجرمانية والرومانسية

إسبانيا: Spain

ألمانيا: Germany

إنجلترا: England

إيطاليا: Italy

البحر المتوسط: Mediterranean Sea

البشكنشية (الباسك): Basque

بلجيكا: Belgium

الجرمانية: Germanic

الراين: Rhine

الرومانسية: Romance

سويسرا: Switzerland

فرنسا: France

الكيلتيك: Celtic

هولندا: The Netherlands

الخريطة ص ١٨٧ : دول أوروبا بعد توحيد ألمانيا

إسبانيا: Spain

إسطنبول: Istanbul

الإمبراطورية الألمانية: German Empire

الإمبراطورية الروسية: Russian Empire

إيطاليا: Italy

باريس: Paris

البحر الأسود: Black Sea

البرتغال: Portugal

برلين: Berlin

بريطانيا العظمى: Great Britain

بلغاريا: Bulgaria

البوسنة: Bosnia

بولندا: Poland

سويسرا: Switzerland

فرنسا: France

هولندا: The Netherlands

بلجيكا: Belgium

الدولة العثمانية: Ottoman Empire

روما: Rome

رومانيا: Rumania

صربيا: Serbia

فيينا: Vienna

لندن: London

النمسا ـ المجر: Austria– Hungary